

نزهة الأصحاب في معاشرة الأحاب

تصنيف

مؤيد الدين أبي نصر السموءل يحى بن عباس المغربي الإسرائيلي

المتوفى ٥٧٠ هـ

تحقيق وتعليق

أحمد فريد المزيدي

الناشر

دار الآفاق العربية

القاهرة

كتاب تعاليم الاحباب

في معايشة الاحباب

تأليف مؤيد الدين ابن

الشمس محمد بن

عبد الرحمن بن

المعري

الطبعة الاولى سنة ١٢٩٨

الطبعة الثانية سنة ١٣٠٥

١٣٠٥

دار الكتب والادب

بمصر

دار الكتب والادب

بمصر

صورة الغلاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَلَأَ أَرْوَاحَنَا نَجْوَةً لِلَّذِينَ مَلَأَ
 وَفِي طَرَفِ الْبَيْتِ عَلَى الصُّلْبِ إِلَى تَبَاعِ الشُّهُورِ لِحَمْلِ الصُّلْبِ وَفِيهِمْ
 وَبِهِمْ هُمْ وَأَبْنَاءُ فِي أَفْئِدَةِ الشُّرُكِ وَلَوْ سَقَاءُ النَّعْمِ وَكَشَفَ
 زَوْجِ الْعُقُولِ بِأَفْئِدَةِ الْحَالِ عَلَى الْعُقُولِ وَتَحْسِنُهَا وَتَمَامُهَا
 بِالْكَسْرِ فِيهَا أَظْهَرَ أَنَّ الْقُدْرَةَ فِي إِسْقَاتِهِ الْكُلِّ إِلَّا الْأَقْبَادَ لَا رَادَّ لَهُ
 مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأَمِينُ وَحَبِيبُهُ الْمَكْرُمُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 إِلَهُ الْأَكْبَرِ وَنَبِيُّهُ دَائِمُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ وَتَعَدُّهُ لِحَمْلِ الْعُقُولِ
 أَنَّ كِتَابَ كَلَامِهِ فِي طَرَفِ الْبَيْتِ عَلَى الصُّلْبِ وَتَحْسِنُهَا وَتَمَامُهَا
 بِصِفَةِ أَوْلَى الْأَلْبَانِ وَبِهِمْ فِي مَرَاغِبِهِ الْمَأْوُودِ وَالْإِبْهَامِ وَتَحْسِنُهَا
 عَلَى فَوَائِدِ حَلِيلَةِ الْحَطِّ فِي أَنْ زَارَ عِلْمَ الْإِلَهِ وَتَحْسِنُهَا وَتَمَامُهَا
 وَتَمَامُهَا وَتَحْسِنُهَا عَلَى خَلْقِ الْإِنْسَانِ وَتَمَامُهَا وَتَحْسِنُهَا وَتَمَامُهَا
 عَلَى أَنْ يَقْطَعَ عَنْهَا مِنَ الْأَمْرِ وَالْمَدِينَةِ وَالْقِسْمَةِ مَا نَعْنَفُ عَلَى أَعْلَى

الصفحة الأخيرة من المخطوط

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي جعل رحمته للمذنبين ملاذًا، وخلق لعباده آلامًا وملاذ، وفطر غرائز البشر على الصبوة إلى اتباع الشهوة، تسخيرًا لضعفهم وقويمهم وحكيمهم وأيهم في إقامة النسل، واستبقاء النوع، وكشف زواجر العقول بإفاضة الجمال على الصور وتحسينها، وبما قسم لها من ملاحاة تزينها إظهارًا لقدرته في استحالة الكل إلى الانقياد لإرادته.

وصلى الله على رسوله الأمين، وحببيه المكين محمد ﷺ خاتم النبيين، وعلى آله الأكرمين صلاة دائمة إلى يوم الدين.

وبعد فقد أجمعت على إنشاء كتاب جدي هزلي أدبي طبي علمي عملي ندامي حكيم؛ ليسعد بتصفحه أولو الألباب، ويتنزه في رياضته الملوك والأصحاب، ويشتمل على فوائد جلييلة الخطر في أسرار علم الباءة، وعملها، وتقديرها، وآدابها، وما يزيدها وينقصها، وعلل اختلاف أحوال الناس وأهوائهم فيها، ومداواة كل ما يقطع عنها من الأمراض البدنية والنفسانية مما يفتقر إلى علمه من عامة الناس العاكف على الباءة، والصادف عنها، ويحتاج إليه الملوك والرؤساء لتصونهم عن اطلاع الأطباء على العورات، وكراهيتهم على الخروج بأسرارهم إلى الحكماء، ويحتوي من آداب المعاشرة على ما لا يسع طريقًا جهله، ومن فنون المفاكهات ومختارات الأصوات والأبيات، وعجيب الحكايات ما يُلهي عن الهمِّ، ويُروح القلوب المسجونة بالغمِّ، ويسلي الشجي عن حزنه، ويؤنس الغريب النازح عن وطنه، ويوضح الشفاء للكلف المفارق لسجنه، ويمجد أثره في ترويح القلوب، ويعظم غناؤه عن المحب والمحبوب، وأنا أستخير الله جلت قدرته في تأليفه وتخصيصه.

جمل الجزء الأول وأبوابه:

الجملة الأولى: في منافع الجماع ومضاره.

الجملة الثانية: في تقدير الجماع.

الجملة الثالثة: في السَّبب الَّذِي لأجله رغب النَّاسُ في الباءة والعلة في التذاذهم

به.

الجملة الرابعة: في تقسيم أسباب ضعف من يضعف عن الباءة، وعلامات

ذلك.

وهي سبعة أبواب:

الباب الأول: في علامات من يقطعه عن الباءة سوء مزاج القلب.

الباب الثاني: في علامات من يقطعه عن الباءة سوء مزاج الكلى.

الباب الثالث: في علامات من يقطعه عن الباءة سوء قلة المني.

الباب الرابع: في علامات من يقطعه عن الباءة ضعف أعصابه.

الباب الخامس: في علامات من يقطعه عن الباءة سوء مزاج الأنثيين.

الباب السادس: في علامات من يقطعه عن الباءة مرض جسماني أو نفسي.

الباب السابع: في ذكر ما يقطع الرجل عن الباءة من الأسباب المتعلقة بالمرأة.

الجملة الخامسة: في العلة في عفة من يكره أو يعاف جماع محبوبه.

الجملة السادسة: في ذكر العلة في عدولهم بالباءة عن المجرى الطبيعي.

وهي بابان:

الباب الأول: في ذكر العلة في إثارة بعض العقلاء الغلام على الجارية.

الباب الثاني: في ذكر العلة في إثارة بعض النسوان السَّحاق.

الجملة السابعة: في ذكر العلة في تشوق نفوس الشبان ذوي الأمزجة القريبة من الاعتدال إلى الاستكثار من الصُّور الجميلة بغير نهاية.

الجملة الثامنة: في ذكر العلة في اعتكاف العازف عن الباءة.

الجملة التاسعة: في جملة من الآداب.

الباب الأول: في أدب المحادثة.

الباب الثاني: في أدب المؤاكلة.

الباب الثالث: في أدب الشراب.

الباب الرابع: في أدب السَّماع.

الباب الخامس: في أدب المنادمة.

الباب السادس: في آداب المضاجعة.

الباب السابع: في أدب المجامعة.

الجملة العاشرة: في بيع وشراء الرقيق.

وهي خمسة أبواب:

الباب الأول: في ذكر وصايا ينتفع بها في البيع والشراء.

الباب الثاني: في أجساد الرقيق بحسب كل واحد منهم على مذهب الأطباء.

الباب الثالث: في تعرف الأخلاق لقياس الفراسة على مذهب الفلاسفة.

الباب الرابع: في معرفة أجناس الرقيق، وما يصلحون له من الأعمال.

الباب الخامس: في التحرز من تلبيسات النّخّاسين التي يُدّلس بها في مواسم

الرّقيق على المشتري.

الجملة الحادية عشرة: في التزويج.

وهي أربعة أبواب:

الباب الأول: في الصفات المحمودة من النساء.

الباب الثاني: في الصفات المذمومة من النساء.

الباب الثالث: فيما يوصى الرجل المُزْمَع على التزويج.

الباب الرابع: في آداب العُرس.

الجملة الثانية عشرة: في اتخاذ الربيطات والحينات والطريفات المساعدات.

جمل الجزء الثاني وأبوابه:

الجملة الأولى: في ذكر المفردات المعينة على الباءة.

الجملة الثانية: في صفة أدوية وأغذية وطبائخ وحلاوات وأشربة مقوِّية على

الباءة.

الجملة الثالثة: في ذكر الحقن والمسوحات والأطلية المعينة على الباءة.

الجملة الرابعة: في تدارك ضرر الباءة.

الجملة الخامسة: في علاج من نقصت قوته على الباءة لسوء مزاج خاص ببعض

أعضائه.

وهي خمسة أبواب:

الباب الأول: في علاج من ضعف عن الباءة لسوء مزاج القلب.

الباب الثاني: في علاج من ضعف عن الباءة لسوء مزاج الكلى.

الباب الثالث: في علاج من ضعف عن الباءة لقلّة المنّي.

الباب الرابع: في علاج من ضعف عن الباءة لضعف أعصابه.

الباب الخامس: من ضعف عن الباءة لسوء مزاج الأنثيين.

الجملة السادسة: في علاج من ضعف عن الباءة لمرض جسماني أو نفسي، وهي أربعة أبواب:

الباب الأول: في علاج قروح الإحليل واتساع المجاري.

الباب الثاني: في سرعة الإنزال وبطئه.

الباب الثالث: في العشق وعلاجه.

الباب الرابع: في علاج خبث النفس لغم أو خوف.

الجملة السابعة: في الحبل، وما يتعلق به.

وهي أربعة أبواب:

الباب الأول: في كيفية الإحبال.

الباب الثاني: في علاج من لا تحبل، وامتحاق العقيم.

الباب الثالث: في التحرز من الحبل.

الباب الرابع: فيما يسقط الأجنة.

الجملة الثامنة: في مداواة العذبوط.

الجملة التاسعة: في مداواة أمراض تختص بالرحم.

وهي سبعة أبواب:

الباب الأول: في تدبير المفتضة.

الباب الثاني: في معظمات الذَّكر والمضيقات والملذذات والمسحات.

الباب الثالث: في تعرف مزاج رحم المرأة.

الباب الرابع: في مداواة النزف والاستحاضة والسيلان.

الباب الخامس: في احتباس الطمث.

الباب السادس: في مداواة قروح الرّحم وشقاقها.

الباب السابع: مداواة حكة الرحم وآفته.

الجملة العاشرة: في الأسباب القاطعة عن الباءة من جهة المرأة.

الجملة الحادية عشرة: في ذكر المفردات القاطعة عن الباءة.

الجملة الثانية عشرة: في تركيب أغذية وأدوية وأطلية تقطع عن الباءة.

فجميع جمل الكتاب أربع وعشرون جملة تشتمل على ستون بابًا.

الجملة الأولى من الجزء الأول

في منافع الجماع ومضاره

الجماع نافع للفتيات والشبان المعتادين له، وأصحاب الأبدان الجسيمة، والمعتدلة الخصب، الواسعة العروق، والذين ينساق ألوانهم إلى الحمرة، وينفع أصحاب الجنون، والوسواس الذين تسبب وسواسهم احتقان المني في أبدانهم، واستحالته إلى الكيفية الرذيلة، ومن جنونه لفقد قرين موافق، وخليل محبوب، والشبق الذي استفزه الكلف بمن لا يقدر عليه.

وأما نفع الجماع للفتيات اللواتي يعرض لهن المرض المعروف بـ «اختناق الرّجِم»، واللواتي يعرض لهن من إحساس المني صرع وجنون هائج؛ فهو نفع لا يعادله غيره حتى أنه كالترياق السريع النفع لهذه العلل.

فأما المشايخ؛ فيسرع بهم إلى الهرم والسقم، ويهدم بنيانهم، ويحدث بالناقة سوء مزاج، ويسوقه إلى المرض، ويعظم ضرره بأصحاب النقرس وعرق النساء، وأوجاع الظهر، وضعف البصر، ويضر بمن يجد خفقاناً في قلبه، واصفراراً في لونه، ووجعاً في كُليتيه أو يبساً في عينيه، ويستتبع غور العينين ونقصان رطوباتهما، وصغرهما، ويذهب بنظر حسن العينين ورونقهما، وينكئ في أصحاب الجذام والسل والدق.

والإكثار منه ضار بمن كان صدره غير رحيب لاستعداده للسل، وما ذكرناه أثره في العينين لا يكاد يظهر إلا في أصحاب الأمزجة الضعيفة، وعند الإكثار منه واستدامة الإفراط فيه، ولذلك قال أفلاطون: «صاحب الجماع مُستمد من ماء الحياة،

فإن شاء فليزد، وإن شاء فليتنقص»^(١).

ولبعض عقلاء المجانين:

لا تكثرنَّ من الجماع فإنه ماء الحياة يراق في الأرحام^(٢)

وقال أبو العلاء المعري:

وَالْبَاءُ مِثْلُ الْبَاءِ نَحْ — فِضُّ لِلدَّاءِ أَوْ تَجْرُ^(٣)

فأمَّا المقدار القصد منه؛ فغير ضار بالشبان والكهول المعتادين له إذا هم راعوا علامات الضرر به، وتعمدوا به أوقات صدق شهوتهم له، وتجنبوه عند امتلاء المعدة بعد الاستحمام والرياضة المتعبة، وعَقِيب تناول الأغذية الغليظة، والأغذية الباردة، وفصل الصيف.

وَمَنْ كَانَ مَعْتَادًا لِلْبَاءِ وَتَرَكَهَا فَرُبَّمَا اسْتَرَحْتَ آلَتَهُ، وَنَقَصَ اقْتِدَارَهُ عَلَى الْبَاءِ، وَذَلِكَ أَنَّ فِي اسْتِعْمَالِهِ عَلَى الدَّوَامِ نَوْعَ رِيَاضَةٍ لِلذِّكْرِ، وَتَعْوِيدًا لِلطَّبِيعَةِ، تَوْفِيرًا لِمَادَةِ الْقُوَّةِ عَلَى آلَةِ التَّنَاسُلِ، وَنَفْعَهُ لِأَصْحَابِ الْغَمِّ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَشْفَى بِهِ مِنْ لَذَّةِ الْعَقْرِ، وَهُوَ شَدِيدُ الضَّرَرِ بِالصَّائِمِ وَاللَّغْبِ وَالْجَائِعِ إِلَّا أَنْ يَغْلِبَهُ الطَّعَامُ؛ فَإِنْ نَامَ بَعْدَ الْجَمَاعِ

(١) انظر: «التمثيل والمحاضرة» لأبي منصور الثعالبي ص (٢٣٥)، و«محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء» للراغب الأصفهاني ص (٣٢٩٦).

(٢) البيت لابن المجلي الجزري في «الوافي بالوفيات» ص (٣٢٦٧)، وينسب لابن سينا في «وفيات الأعيان» ص (١٠٠٢).

(٣) البيت من مجزوء الكامل، وهو لأبي العلاء المعري في ديوانه من قصيدة مطلعها:

أَشَدُّ دَيْدِكَ بِمَا أَقْو — لُ فَقَوْلُ بَعْضِ النَّاسِ دُرُّ

على جوعه ذبل بدنه، وغارت عيناه، وهزل وشحب لون وجهه، وإن جامع ثم أفطر ثم نام ترهّل لحمه وجفونه، وتكدّرت عيناه.

وأحوال النَّاس في الباء مختلفة كاختلافهم في غير ذلك من أحوالهم، فَرُبَّ مترفٍّ ضعيفٍ البطش لا يستطيع مدَّ قوس ضعيف، وهو مع ذلك دائم الإنعاط، يكاد يكسر الجوز بإحليله، ويفصل عن المرأة، وآلته على حالها في الصلابة، ورُبَّ نبيل جسيم حسن القدّ واللون، وحاله على خلاف ذلك، ورُبَّ قصير ذميم شاري الجمار في عظم آلته وبالضد.

ومستند كثرة الإنعاط إلى أمرين: احتياج الشهوة من الكلى، والثاني قوة الأعصاب، والسَّبَب الأوّل هو الأصل، وأكثر ما يوجد من الشبان والأحداث لشدة شبقهم إلى الجماع، والدليل على هذا أن من كان ضعيفاً عن الباء إذا استجد منكوحه تعجبه وجد من قوته على الباء زيادةً بيّنة لاهتياج الشهوة من الكلى للتوقان إلى نكاح الحسنة الجديدة، وكلما علت السن قلّ الانتفاع به، وكثر الضرر منه.

* * *

الجملة الثانية

في تقدير الجماع

إذا كان الفتى فيما بين البلوغ وبين اثنين وعشرين سنة؛ فهو في غاية من القوة، وفي هذه المدة يسمى غلامًا؛ لأن الغلظة غالبية عليه، وشهوة المباشعة عالية مستنفرة له، وهذه المدة تحتمله للإكثار من الباء، لا يتأذى الفتى فيها به أصلاً - أعني: أذى ظاهراً. أما الأذى الباطن لا ينفك عنه؛ لأنَّ الطبيعة وإن كانت تخلف من الأغذية عوض ما يحلل به، فإنه لن يفاوته؛ لأنَّ الجوهر الذي خرج كانت الطبيعة قد حصَلته بإنضاج تامٍّ على المودة [والمحبة] قبل أوان الاشتغال بتلك المجامعة.

فأما مَنْ جامع في ليلة عشرة مراتٍ أو أكثر من ذلك؛ فلا محالة أن الطبيعة تكون في فقر وفاقة إلى خلاف ما يحلل ويعوض عنه، فتستلب العروق الأغذية قبل كمال نضجها لتغذي بها الأعضاء لشدة الحاجة إلى الغذاء لخلوها من الرطوبة التي استفرغها الجماع والحركة العنيفة، فتكون الرطوبة واللحم وغير ذلك مما تتكلف الطبيعة غرامته دون الأوّل في النُّضج والموافقة؛ فهذا هو المقدر الذي يتطرق من الضرر على مَنْ كان فيما بين البلوغ واثنين وعشرين سنة إذا أكثر من الباء.

فأما ضرر الظاهر فلا يتطرق إليه بالإكثار ما دام صحيح اللون والبدن، لكنه يُكره الإفراط فيه؛ لأنه يُسرّع خروج اللحية قبل أوانها، وتجعل لها من الوجه مكانًا كثيرًا، والإفراط فيه أيضًا من دواعي الهزال.

فأما مَنْ كان بين اثنين وعشرين سنة وبين ثلاثين سنة؛ فأكثر ما ينبغي تناوله من الجماع مرتان، وغايته ثلاث مرات في كل يوم في زمانين متباعدين، إلا أن يكون الجماع مع محبوب معشوق؛ فإن الإكثار من غشيان المعشوق أنفع من الترياق الفارق مادام لا يجد شيئًا من علامات الضرر به، وقد تقدم ذكرها.

وأما مَنْ كان بين ثلاثين سنة وبين أربعين سنة؛ فلا يصلح له أكثر من مرة، وأكثره ثلاث مرات في يومين.

فأما مَنْ كان بين أربعين سنة إلى خمسين سنة؛ فلا يصلح له أكثر من مرتين في كل ثلاثة أيام، وهذا هو المقدار الَّذي إذا دام عليه لم يحدث منه ضرر. وأما مَنْ كان فيما بين الخمسين والستين؛ فإنه يحتمل في كل أربعة أيام أو خمسة أيام مرة.

ومَنْ كان بين الستين والسبعين، وكان صحيح المزاج؛ فإنه يحتمل في كل شهر ثلاث مرات، وغايته أربع مرات.

ومَنْ كان فيما بين سبعين وخمس وسبعين؛ جاز له ذلك في الشهر مرة أو مرتين بحسب قوته.

ومَنْ كان بين الخمس والسبعين والثمانين؛ فيجوز له ذلك في السنة مرة أو مرتين، وإن كانت قوته وانبساطه صحيحين، وشهوته موجودة؛ جاز له ذلك في كل شهر مرة.

ومَنْ وصل إلى الثمانين؛ فلا يصلح له الباء أصلاً، وسبيله أن يهجره هجرًا، فأما هذا التقدير فهو ضعيف المزاج القريب من الاعتدال في قوة التركيب وضعفه.

وقد يتَّفَق من يكون في عمر السبعين، وهو في قوة أبناء الأربعين، فذلك يصلح له ما قد رتبناه لأبناء الخمسين وبالضد.

وقد يتَّفَق لبعض النَّاس أن يأتي عليه من عمره أربعون سنة، ولم يجامع كثيرًا؛ فذلك يحتمل حاله ما رتبناه لأبناء الثلاثين.

ومن النَّاس من يفرط في الباء بحيث إذا بلغ الثلاثين سنة يكون قد جامع

جماعاً لا يتهياً لغيره في مائة سنة؛ فذلك يصلح له ما رتبناه لأبناء الستين، وعلى أنه من أبناء الثلاثين، فافهم ذلك.

ودخل إليّ بقلعة «روسد» - حماها الله - في شعبان سنة اثنين وستين وخمسمائة شيخٌ من كبراء حُجَّاب أتابك - نصره الدُّنيا والدين، أدام الله سلطانه - يقال له: الحاجب ماهرو، وكان قد وصل إلى الثمانين سنة، فشكى إليّ مرضاً كان به، فتقدمت إليه بما رأيت أن يصلح معالجته به؛ فسألني عن الجماع هل يضره أم لا؟ وما كنت أتوهم، ولا يسبق إلى ظني أن مثل ذلك الشيخ الهرم يحدث نفسه بالجماع، وهو مريض، فلمّا نهيته عنه؛ قال: إنّه لا يمكنني ذلك؛ لأنّ عندي عشر جوارٍ، إلى أي جهة حولت وجهي في داري أرى وجهًا صبيحًا، وطرفًا مفتانًا، وقدّا يقيم عليّ حدًّا أو جارية تقيم قيامتي بقامتها، فلو عاينت تلك العيون لعذرتني إذا لم أتوق المنون.

فقلت: إنك شيخ مفتون، ولولا مراقبتي شيبته لا هيّته لأسمعته عوض المفتون مجنون، أما تشفق على هذه الحشاشة التي قد قرب منها أوان الانطفاء؟ أما ترحم هذه البنية العجفاء؟ أما يشغلك ما كلفته وبلغته من مشقة الهرم المشفّ، والسُّقم المُدنف، وإدبار الطبيعة، وعجزها عن القيام بها دهاها، ومقاومة ما آذاها عن مغازلة الفتيات، ومعالجة الجاذبات التركيات، وتعاطي ما لا قبل لك به؟

فقال: ليس لي إلى ترك ذلك سبيل، فعجبت منه ومن حاله، ولم يمض إلا أيام قلائل حتى بلغني خبر موته، فترحمت عليه، وتذكرت ما قاله بعض الحكماء إذ يقول: لا ينبغي للشيخ أن يتخذ طباخًا حاذقًا، ولا جاريةً حسناء؛ لأنه يكثر من الطّعام فيسقم، ومن الجماع فيهرم.

ولذلك يؤكد الوصايا بأنّه لا ينبغي لكل من يبلغ ثمانين سنة أن يقتني جاريةً

حسناء، ولا امرأة جميلة، ولا غلامًا صبيحًا ذا ملاحه، هذا إذا كان المزاج في غاية الصحة، وأصل التركيب في أكمل القوة، فأما إن كان المزاج ضعيفًا؛ فإن صاحبه ينبغي أن يقطع نفسه عن ذلك منذ الستين سنة.

* * *

الجملة الثالثة

في السَّبَبِ الَّذِي لِأَجْلِهِ رَغِبَ النَّاسُ فِي الْبَاءَةِ

والعلة في التنازله به

اعلم أنَّ أشدَّ الموجودات في عالم الاستحالة إحساسًا باللذة والألم هو الإنسان، وذلك أنَّ النبات له حياة ما بها بقاءه ناميًا مغتذيًا مُورِّقًا فَمورِّدًا فمُثمرًا، إلاَّ أنه ليس من شأن النفس النباتية أن تشعر بالملائم، ولا بالمؤذي المفسد لصورتها، فأما الحيوان غير الناطق؛ فإنه يشعر باللذة والألم لكنه لا يشعر بشعوره.

والإنسان يشعر بالمُليِّد والمؤلم، ويشعر بشعوره بكل واحد منهما، فصار له بشعوره باللذة لذة زائدة في حال الالتذاز، وصار له أيضًا بشعوره بالألم ألم زائد، لا يساويه في هذين شيئا من الحيوانات، وأيضًا كما لكلِّ واحدٍ من هذه الأجسام النباتية والحيوانية والإنسانية هو بلوغه إلى حدِّ الإيناع والإثمار، وأنَّ يفضل من رطوباته ما تستفضله الطبيعة وتُصفيه منه ليكون هيولًا وبذرًا لمثله ليصدر عنه مثله؛ لأنَّه لما استحال البقاء الدائم لهذه الموجودات المضمحلَّة بأشخاصها، واستحال أيضًا أن يفنى أنواعها؛ انتزع من كل واحد منها ما يحيا بالتربية مثله، ليكون خلقًا منه إذا اضمحل وفني بالموت.

ولما كانت الآفات المفسدة للبذر والحلْف كثيرة في حال قبوله للصورة، وفي حال قبوله وبعد قبوله، وكانت الآفة رُبَّما عرضت له، فمنعت من كماله، انتزعت الطبيعة بإذن الله من كل واحد من هذه الأشخاص في عدة مرات ما لو سلِمَ من الآفات، وقبل الصُّورة، وكمل؛ لكان أضعافًا كثيرة للصورة التي صدر عنها.

واعلم أنَّ هذا البذر الَّذِي يقبل الصُّورة إنَّما يصدر عن الشجرة أو الحيوان في الوقت الَّذِي يكون فيه على أكمل حالاته، وأتم صحته.

وأما الحيوان فلا يوجد منه النشاط للفساد والهيجان له إلا إذا كان بدنه خصباً، ولحمه غزيراً، وصحته كاملة؛ فحينئذ يبتدئ به الهيجان للفساد، وكذلك الإنسان المريض إذا كان به نوع من أنواع سوء المزاج لا يكاد يجبل منه أصلاً، فقد تبين لك أن خروج البذر من الشجرة والحيوان إنهما هو كمالها، والحال إنهما هو يتهيأ لها مع السلامة من العلل والأدواء الرديئة.

فأما النبات؛ فإنه يثمر في السنة مرة واحدة أو مرتين، لا بإرادة، ولا في وقت غير معين.

وأما الحيوان؛ فله أن يوجد نفسه هذه الحالة، وأن يستفضل بذره، ويخرج منه بالفساد بإرادته مرات غير محصورة، ومن شأنه أن يشعر لهذه الملائمة فيلتذ.

وأما الإنسان؛ فإنه أقوى الحيوانات على المباشعة، وأكثرها ميئاً لاعتدال طباعه، ووفور القوة المولدة للمني في بدنه، وليس في الحيوانات الكبيرة الأجسام ما يقوى على الباءة كقوته؛ فإن الجمل الهائج والحصان المودق إذا ألقى مني في وعاء الأثني مرة أو مرتين في يوم انكسر نشاطه، فإن هو أدام على ذلك خمسة أيام يقفز في كل يوم ولو مرة واحدة؛ غارت عيناه، وعظم ضره وهزاله، والفتي من الناس رُبما جامع في كل ليلة ثلاث مرات، وبقي على ذلك سنة لا يزداد إلا قوة وجمالاً، وخصباً في بدنه، وإن أُخِلَّ في الجماع ليلتين متواليتين؛ فربما احتلم.

فأما إن كان فيما بين الأربعة عشر عاماً والتسعة عشر عاماً؛ فربما جامع في أول الليل مرتين، واحتلم في آخر الليل مرتين، وهو أدل دليل على رطوبة مزاج الآدمي، وقوته على الباءة، وتوليد طبيعته للمني أكثر من سائر الحيوانات؛ فصار للإنسان من الالتذاذ بالجماع ما ليس لشيء من الحيوانات مثله، لشعوره بهذه الحالة الملائمة،

وشعوره بشعوره بها، وقد بقي لنا أن نبين ما هذه الملائمة؟

فنقول: إنَّ القوة المحسَّنة مسكنها العصب، وإنَّ هذه القوة الحساسة تجري في هذه الأعصاب باتصال، وهذه الأجسام المتصلة التي هي الأعصاب بينها من المشاركة والاتحاد ما هي جملتها به كشيء واحد، فسائر أعصاب البدن صغارها وكبارها متصلة كأنها شيء واحد - أعني: كأنها شجرة واحدة - فأَي موضع تألم منها أو غلب عليه كيفية مفرطة الإحالة؛ فإن الحس الذي في ذلك العصب يؤدِّي ذلك إلى سائر الأعصاب، ومن المعلوم أنه إذا دعت بعض المتطبعة الحاجة إلى وضع دواء حادٍّ على قرحة؛ فإنه يتجنب أن يكون قريباً إلى بعض الأعصاب؛ لأن الدواء الحاد إذا دام على العصب حدث منه التشنُّج، ولست أعني بالتشنُّج تشنُّجاً في ذلك العصب وحده بل في أكثر الأمر يحدث التشنُّج في سائر الأعصاب أو أكثرها، ويؤدِّي ذلك إلى الموت.

وكذلك من وجد في أعصابه يبساً، فيدهن ببعض الأدهان المرطبة؛ فإنه يرطب أعصابه، وذلك الدهن لا يضعه على الأعصاب؛ لأن الأعصاب مستورة في داخل البدن، وإنما يُلْقَى الدهن على الجلد الذي هو نهاية الأعصاب، فيحصل للجلد به أدنى رطوبة، ولست أعني بهذه الرطوبة أنه يدخل إلى داخل الجلد رطوبة أو مقدار من الدهن؛ فإن الدهن إنَّما يدخل إلى باطنها إذا كانت يابسة قحلة جافة، فأَما إذا كانت ليّنة فلا، وإنما يكتسب الجلد من الدهن ليناً ولدونة؛ فيسري اللدونة في الأعصاب من الجلد، ويتصل أثرها بسائر الأعصاب.

وهذا أمر عجيب من حال العصب على أن كل أمور الأعصاب عجيبة إن شئت تحريكها للأعضاء، وإن شئت إدراكها وإحساسها وتأديتها محسوساتها إلى العقل؛ فلما كانت هذه حال الأعصاب في أنه إذا اتصل ببعضها مؤلم أو ملائم، شاركته في الألم

أو الانتفاع ببقية الأعصاب، وكان العصب يلتذ بالحرارة والرطوبة؛ لأنها ثلاثمه، إذا كان العصب باردًا يابسًا صار الذَّكَرُ الذي هو عضو عصبي إذا انحصر في شيء من الأجسام الدَّسمة اللَّيِّنة النَّاعمة اللَّدنة التي لا تنفك عن الرطوبة الدَّسمة، والحرارة المعتدلة، يجد بهذه الحال الملائمة لذة، والقوة المحسَّنة تؤدي هذه اللذة إلى سائر الأعصاب؛ فتستولي على الإنسان بهذه اللذة ما لا يجده في لذة أخرى.

فأمَّا لِمَ كان إذا حدث هذا الاحتكاك بالجسم اللين الحارَّ الرطب الدَّسم واللَّزج، خرج المنيُّ من البدن؛ فهو أن هذا العضو يتصل بمجري المنيِّ، فإذا ترادف عليها الاحتكاك بالجسم الملائم، أكسبه ذلك حرارة؛ لأن كل جسمين يحك أحدهما الآخر؛ فلا بدَّ من أن يكون من احتكاكهما حرارة، وتلك الحرارة تُسخن مجرى المنيِّ، وتفتحه، وتحدث فيه اختلاجًا، فتصل تلك السخونة والاختلاج إلى أقصى مجاري المنيِّ، فتتفتح جميعًا، فعند ذلك، إن كان ذلك المنيُّ معدًّا أسرع خروجه، وإن لم يكن معدًّا أبطأ الإنزال حتى ينجذب المنيُّ من معدته، ويقع إلى المجاري، وهذا الاحتكاك إنَّما يحتاج أن يكون بجسم معتدل بين الصلابة واللين؛ لأنه إن كان صلبًا كان مؤلمًا، وإن كان في غاية اللين لم يحصل به الاحتكاك، وإن كان باردًا لم يحصل به ملائمة إلا لأصحاب الدَّق.

والذين يغلب على أعضائهم الاسترخاء والحرارة؛ فإن هؤلاء متى جامع أحدهم ذات رحم كثير السُّخونة لم يجد لذة؛ لأنه غير ملائم له، فلا يلبث بعد قوة الإنعاض أن يسترخي الذَّكَرُ للحرارة التي يلقاها؛ فهؤلاء وأمثالهم إنَّما يلذهم أخلاط ذوات الأرحام الباردة، وأوفق ما باضعوا الجواري التركيات ذوات البياض السَّاطع،

والأبدان الخصبية، ولا سيما الففحاق^(١)؛ فإن هذا النوع من الرقيق ذوات أرحام باردة، وهذا دليل كاف على أن العلة في الالتذاذ بالجماع ملاقة العضو الحساس بجسم ملائمه.

وهاهنا سبب ثانٍ في الالتذاذ بالجماع لا يتعلق بالأعصاب إلا أنه لا يخرج عن كونه إحساساً يلائم، وهو أنه إذا اجتمع من مادة المنيّ في أوعيته، ومن الرطوبة في الأعضاء المجاورة للأعصاب مقدار كثير، كان ذلك كلاً وثقلاً على تلك الأعضاء؛ لأنه جسم رطب، فله ثقل على كل حال، ولا سيما أن تلك الأوعية رقيقة لطيفة يثقلها السير، وهذا إنّما يتفق إذا كانت الرطوبة والدم قد كثرت في البدن، فإذا وقع الاحتكاك بالجسم الملائم للأعصاب، وانفتحت مجاري المنيّ انصب إلى مجاري المنيّ جملة صالحة، ورُبّما وقع بعضه إلى المجاري فصادفها في غاية الانفتاح والسعة فجرى فيها، وإذا وقع إلى هذه المجاري، وهي عصبانية ثقلت، وارتحت بوقوع المنيّ فيها، واختلجت اختلاجا يستدعي التزريق بل يوجب، فإن اختلاج باطن المجاري بالضم والفتح هو علة التزريق؛ فإذا في حال التزريق يتفق في زمن واحد راحتان.

أعني: حصول الملائمة من وجهين:

أحدهما: احتكاك الذكّر بالجسم الملائم.

والثاني: الراحة بإخراج الثقل الذي أثقل المجاري.

فإن رمي المثلث من أعظم اللذات، ألا ترى لو أنه حمل إنسان حملاً لا ينهض به لكان إذا اشتد به الإعياء يلتذ برمي ذلك، وإلقائه عنه أعظم لذة، ومما يشبه ذلك حال الحاقن الذي قد ضغطه البراز، ونهضه ثقله، وقد كانت أمعاؤه السفلى مملوءة من البراز

ثم انصب من الأمعاء العليا ريح، وتبع تلك الريح براز آخر من الأمعاء العليا، فلم تبق لها طريق إلى الصعود، والثقل من فوقها يحفزها؛ فيضطر إلى دفع البراز السفلي أشد دفع فيلتد من دفع إلى هذه الحال بالبراز كما يلتد المجامع بالجماع وأكثر، وهذه الراحة الموجودة في إلقاء الثقل، وأيضاً؛ فإن المني وإن لم يكن ثقيلاً أو كثيراً كالبراز؛ فإن قلته على قدر ضيق المجاري، ولطافته على قدر لطافتها، فهي للطافتها وضيقها تجد به من الثقل ما تجده الأمعاء بالبراز؛ فإذا خرج عنها، وجدت في خروجه الملائمة المُلذَّة.

ومن الأسباب الباعثة للناس على الجماع محبة النفوس بالطبع للأشياء المتناسبة التي تتوالى فيها الأشياء المتشابهة، وتتخللها الأضداد التي يُظهر بعضها حسن بعض، وهذه الصفات توجد في نقرات الموسيقى، وفي الوجوه الحسان؛ فلذلك صار الجماع تميل إليه نفوس الناس.

ولما كان الحيوان العادم للقوة المميزة لا يحس بالفضيلة التي في الموسيقى، ولا يهتز للطرب، لما حُصَّ به من فضيلة التميز يطرب له، ويحبه؛ صار من الناس أقوى حساً، وأذكى طبعاً، وأشدَّهم طرباً للسماع، والتذاذاً بالموسيقى.

فأما الوجوه الحسان والصور الجميلة؛ فقد اجتمع فيها من الحكمة البديعة والآيات العجيبة ما لم يجتمع في شيء سواها، وذلك أنَّ في جمل الأعضاء التناسب الذي كان عليه المحبة للموسيقى، ثم في شكل كل واحد منها تناسب آخر، ثم فيها الألوان المختلفة والمتضادة التي يظهر بعضها جمال بعض.

ثم أعجب من ذلك كله أن فيها طلسمية خارجة عما ذكرناه بقوة فلكية متصلة، فلا يتمالك القلوب إذا عاينتها الأبصار أن تنجذب إليها، فترنو النواظر نحوها، فإن كان مع الجمال البارع لباقة في الحركات، وظرافة في المعاطف، وحلاوة في الشرائع؛ فقد

انضم إلى التناسب الذي ذكرناه، والطلسمية التي ذكرناها، لسحر العيون أن تنظر إلى غيره، والقلوب أن تفكر في سواه، والهمم أن تميل إلى غير الاتصال بتلك الصورة ومخالطتها؛ فإن تبع ذلك نعمة حادة وألفاظ عذبة، ومنطق عذب كان سحرًا ثانيًا.

وإن انضاف إلى ذلك موافقة في الأخلاق، وحسن معاشرة، وذكاء وفصاحة أو بلاغة، وسرعة جواب صائب، كان ذلك طلسمًا ثانيًا لصيد القلوب، فتجتمع من ذلك مع أسباب الطّرف طلسمان وسحران، ولا بقاء للرأي والعقل بين ذلك، ولا استمساك له عن مواصلة صاحب هذه المواصفات أو بعضها بحسب اقتناع الهمم الصغيرة بالبعض، وعلو الهمم الكبيرة التي تطلب الكمال المذكور، وإذا قد بينّا أن الصور الجميلة، والوجوه الحسان هي أعجب شيء في عالم السفّل لما اجتمع لها من التناسب الملائم، والسحرين والطلسمين اللّذين لا يوجد أحدهما في سواها، فبحق ما كانت أنفُسٌ موجودٍ في عالم السفّل.

ولقد أحسن القائل في قوله: «النظر إلى الوجوه الحسان عبادة».

ولو ذهب إلى شرح ما في هذه الكلمة من الحكمة، وإقامة البرهان على صحتها لكان ذلك يحتاج إلى مقالة مفردة.

وكذلك قوله ﷺ: «حُبَّ إِلَيَّ من دُنياكم ثلاث: الطيب، والنساء، وقُرّة عيني في

الصلاة»^(١).

فإن شرح الحكمة في ذلك يحتاج إلى كتاب قائم بذاته، ولمّا لم يكن في أنواع المواصلة أتمّ مواصلة من الجماع؛ لأنها مواصلة ظاهر البدن وباطنه، اشتاقت النفوس المشغوفة بالصور الجميلة إلى مجامعتها، ولمّا كان الالتذاذ بالجماع سريع الزّوال

(١) رواه أحمد في مسنده (٣/١٩٩)، والنسائي في سننه (٧/٦١).

والانقضاء، وكان انقضاؤه طبعياً من غير إرادة المجمع، صار كثير من الناس يلتذ بغير الجماع من المواصله أكثر من التذاذه بالجماع، وذلك هو العناق والبوس والضَّم واللمس والمغازلة والمضاحكة والمعاركة، وليس ذلك عبثاً من متعمده، ولا سفها من القاصد له، ولكنه بهذه الأحوال يستدعي إلى ظهور الحركات العجيبة الحسنة الجميلة من الصورة الجميلة، لعلمه بأنه إذا اعتمد مع تلك الصورة، وما ذكرناه من الدَّغْدَغَة والمُضاحِكة والمُعَارِكة ظهر منها من الحركات الجميلة، والنغمة المطربة، ما يزداد به جمالاً، وتزداد نزهة وتعجباً بما يراه.

فأما من يعتمد شيئاً مما ذكرناه مع صورة ليست ذات جمال رائع، فليس من العقل في شيء، وإنما هو مغتلم قد استفزَّه الشَّبَقُ؛ إمَّا لأنَّه لم يكن قبل ذلك قادراً على الجماع والخلوة بشخص ما، وإمَّا أنَّ أعضاء نسله كانت مملوءة بالمَنِيِّ فهاج كما يهيج الذكور من ذوات الأربع، عافانا الله من مثل هذه الحال.

وقد تختلف طباع الناس في الرضا بالدُّون والكراهية له، وقوة تصورهم للصورة الغائبة عن أبصارهم حتى أنَّ منهم من رُبِّما جامع المرأة الحسناء، فإذا وجد من آلتِه فتوراً أو استرخاءً تصوَّر في خياله أنه يجامع امرأة أخرى غير التي تحته، أحسن صورة من التي عنده، ومن قد تكرر رؤيته لها من النساء، وانطبع شكلها في خياله، وأنه مجرد قضاء أكثر الأمر؛ لأنه يجد قوة في آلتِه، وإنعاطاً في ذَكَرِه لم يكن يجده قبل ذلك.

ولهذه العلة صار أكثر النُّسوان اللواتي قد عرفن من أنفسهن قُبْح الصورة أو علو السن إذا جامعهن إنسان سترن وجوههن، يظهرن أن ذلك من الحياء المستولي عليهن، وهيهات ذلك، إنَّها غطين مخازيهن، وسترن من قُبْحهن ما يعلمن أنَّ مباشره

يصير الناكح له مؤدًّا إلى فتورٍ، واسترخاءٍ متاعه، ويثول بآخره إلى القَلَى^(١) والملال.
 فأما إذا اتَّفَقَ مع جمال المنكوحه جمال الناكح وطراوة سنَّه؛ فإنَّ لذَّةَ التناكُحِ
 تتضاعف؛ لأنه إذا عَلِمَ بالتذاذ المنكوح، وأنَّ له لذَّةً منوطة بلذته تضاعف التذاذه
 بالباءة؛ فهذه أيضًا حال أخرى زائدة في التذاذ الأحداث والشبان بالباءة.

(١) القَلَى: البغض؛ قَلَيْتُهُ أَقْلِيهِ قَلَى شَدِيدًا [لسان العرب (قلى)].

الجملة الرابعة

في تقسيم أسباب ضعف من يضعف عن الباءة وعلامات ذلك

وهي سبعة أبواب:

الباب الأول من الجملة الرابعة

في علامات من يقطعه عن الباءة سوء مزاج القلب

فمن ذلك خفقان القلب بقوة عَقِيب الجماع، فإن كان مع ذلك الشَّعر النابت على الصدر قليلاً، وكان المَنِيُّ عند تزريقه قليل الحرارة، فذاك من قِلَّة الحرارة المنبعثة من القلب، وإن كان المَنِيُّ شديد الحرارة، وتزريقه قوياً، وعلى صدر الرجل شعر كثير، وشعر إبطه أيضاً وافر، وعَرَقَ إبطه كثير، فذلك دليل حرارة القلب، فإن كان صاحب هذه الصِّفة ضعيفاً عن الباءة، وكان يلتذُّ بالهواء البارد والماء البارد عند الجماع، ويخفق قلبه قبل الجماع أكثر من خفقانه بعد فافته من شِدَّة حرارة القلب، وغلبة البخار الدُّخاني عليه.

* * *

الباب الثاني

من الجملة الرابعة

في علامات من يقطعه عن الباء سوء مزاج الكلى

اعلم أن الباري جلّت قدرته جعل الكلى محل شهوة الجماع التي هي الأصل في الباء، فمتى ضعف مزاج الكلى ضعفت الشهوة، ونقصت قدرته على الباء والشوق إليه، وقلت رغبة الإنسان فيه، فإن كان سوء مزاجها عن حرارة ويس.

فعلامه ذلك: شِدَّة المنيِّ، وقِلَّة مقداره، وصداع يعرض في بعض الأوقات، وألم في نواحي الكلى، وهذا العرض أكثر ما يتفق عَقِيب الحرارة والأسفار الطويلة، أو عَقِيب الجماع المتواتر، وإن كان سوء مزاجها عن برد.

فعلامته: التألم في ناحية الكلى عند أكل المأكّل، والأغذية الباردة أو عند شرب الماء البارد، ويكون المنيُّ مع ذلك باردًا في ملمسه.



الباب الثالث

من الجملة الرابعة

في علامات من يقطعه عن الباء قلة المنى

إذا غلب اليأس على البدن، ونقصت رطوباته؛ ضعف صاحبه عن الباء وتأذى به.

وعلمة ذلك: بقاء الإنزال، وقلة المنى إذا نثى وثلث، وغور العينين، ورداءة اللون عقيب الجماع.

الباب الرابع

من الجملة الرابعة

في علامات من يقطعه عن الباء ضعف أعصابه

اعلم أنه إذا ضعفت الأعصاب أو أحدها؛ ضعف الإحليل لاتصاله بأعصاب البدن، وإذا ضعف العصب زالت صلابته، واسترخى، وعدم التلذذ الذي به يكون قوته، وصار متحلحلاً.

فعلمة هذا: قلة صلابة الذكر، وأنه في وقت إنعاضه يكون أقل صلابة من المعهود، ويتبع ذلك قلة القوة، ونقصان شدة البدن عن المعتاد.

الباب الخامس

من الجملة الرابعة

في علامات سوء مزاج الأنثيين

اعلم أنَّ الباري جلت قدرته خلق في الأنثيين قوة معينة على جذب المنِّي، وبها يصير المنِّي إلى البياض، فإذا أضعفت القوة التي في الأنثيين لسوء مزاج أو ورم؛ صار لون المنِّي إلى الصُّفرة، فكانت رائحته غير ذكية، ولا موصوفة بالطيبة، فأما إذا كان مزاج الأنثيين معتدلاً، والقوة التي فيها وافرة.

فإنَّ المنِّي يكون شديد البياض، وتكون رائحته شبيهة برائحة بزر النخل الذَّكَر الذي يلقَّح إناث النخل أو رائحة ورد السوسن، هذه رائحة منِّي الرجل المعتدل الحال في صحته وتدبيره؛ فأما ورم الأنثيين، وتألُّمها باللمس فمن العلامات الظاهرة.

الباب السادس من الجملة الرابعة

في علامات من يقطعه عن الباءة مرض جسماني أو نفسي

الأمراض القاطعة عن الباءة هي أمراض العصب، وأوجاع الظهر، والقضيب، والكلى، ولا سيما هزال الكلية أو قروح القضيب؛ فإنها أضر الأمراض على صاحب الباءة؛ لأنها تضعف الإحليل الذي هو الآلة التي يفتقر إلى قوتها.

وقروح الإحليل تعرف بأحد ثلاثة أشياء:

إما إحساس بألم وحرقه في موضع واحد من القضيب، وذلك عند الابتداء وقبيل الانفجار، ثم يسكن الألم بعد الانفجار، وهو علامته، ورُبَّما تعاهد المكان في الأحيان كالناخس بغير مكث.

وإما ظهور مادة يسيرة في فم الإحليل يكشف فاه، ويحف عليه، ويتثبت به، فلا يقلع عنه بغير ألم إلا بالتؤدة والتأني، وأكثر ما يظهر ذلك بعد النوم الأطول، فترى مَنْ دُفع إلى هذه الحال مفتقرًا قبل الجماع وقبل البول إلى بلّ رأس إحليله في اللطف بفتح فيه، وإماطة الأذى اليابس عنه؛ لأنه إن أهمل ذلك وخرج البول أو المنّي من أوعيته، فلم يصادف مخرجًا، فهقر في مسلك ضيق، فأحدث لدغًا وحرقه، وهذه الحال إنما تعرض في وسط الأمر، ورُبَّما طال مكثها الحول والأكثر، ولا سيما إذا لم يُعرض لعلاجها.

وصاحب هذه العلة إذا تعشّى باللبن، وأصبح فعصر الإحليل كأنه يسوق ما فيه إلى الخروج خرج القيح من رأس إحليله وعينه، ويتبعه التصاق كالالتحام يعرض في باطن مجرى القضيب كل يوم.

وعلامته: أنه إن لم يفرك الإحليل، وينثر برفق لم يخرج المنّي والبول خاصة إلا بحرقة أو ألم، ويخرج البول في أكثر الأمر منقسماً كأنه من ثقبين، وهذا إنَّما يكون بعد

توسط المرض، وهو أكبر أسباب استرخاء الذَّكر، ولا سيما إذا عُتِق، على أنَّ أكثر الأمراض الجسمانية قاطعة كأصناف سوء المزاج والحميات.

ومنها ما يقطع عن الباءة بالسياسة لا بالقدرة كالنُّقرس، ووجع الكلى، وأوجاع العينين، والقلب والزُّكام.

وأما المرض النفساني القاطع عن الباءة فالعشق المبرح.
ومن علامته: كثرة السهر، والأنفاس المتصاعدة، وتُسمى زفرات.

* * *

الباب السابع من الجملة الرابعة

في ذكر ما يقطع الرجل عن الباء من الأسباب المتعلقة بالمرأة

فمن ذلك: أن يكون عند الرجل امرأة واحدة مريضة ببعض الأمراض المانعة من مباضعتها؛ فيضطره ذلك إلى إغياب غشائها، وقلة الالتهام بها فتعتاد طبيعته قلة الحاجة إلى المني؛ فيقل تولده في بدنه، ويقل إنعاظه؛ لأن في حركة الذكر بالجماع نوع رياضة للذكر يكون له بها إنعاش، وقوة إذا لم يتجاوز المقدار الملائم، فإذا هجر الرجل مدة؛ فقد الذكر تلك الرياضة، وألفت الطبيعة قلة الحاجة إلى توليد المني فقل توليدها له؛ فكان ذلك سبب قلة الإنعاظ، وقلة الانتشار؛ فهذا معنى قول القائل:

إن هو إلا كالضرع إن حلبته درّ وإن تركته قرّ

ومن ذلك: علو سن المنكوحه؛ فإنه وإن كان النكاح عند قوم أفضل من عبادة النفل؛ فإن الصلاة على الجنائز أفضل من نكاح العجائز، ومن دُفع إلى نكاح عجوز، فلا لوم عليه إذا هجر الباء، وقال بتركه، ولم ينخرط في سلوكه، وكيف لا يكون كذلك وقرينته عجوز قد ذهب شبابها، ونصل خصاها، وصارت كالسعلاة أو الثعبان أو كقضيب البان، فهي لا تزال تبهرج نفسها على قرينها، وتخفي معايبها على ضجيعها، بما تعتمد من ملازمة الخطاط والخضاب والحمرة والغمرة والغسول المزيل للكلف والسُمرّة والمواظبة على التكلُّم بالإئتمد المسود، وتناول ما ينقص اللحم الحادث عن علو السن، وتطبيب النكهة التي خبث ريحها لتساعد البخارات الدخانية.

فليت شعري كيف تخفي الكبر الواضح من نعمتها، وأين تذهب بهزال خديها، ورقّة جلدها، وظهور سالفها، ويبس عينيها، وهزال مآقيها، واسترخاء ثديها، وتحلل لحمها، وعظم حلمتها، وظهور عظم حاجبيها؟!

هيات، ليس التحلل في العينين كالكل، والله عند سفور اللثام، واستماع الكلام يبين الصبي من المتصابي، فأما الضَّمة واللَّثة فيعربان عن حقيقة أمرها، ويدلان على ما مضى من عمرها؛ فإن كان زوجها شاباً ذا مروءة وحياء استولت عليه، وحصرته، واستطالت عليه فأسرته، وذلك أنها تحتوي على درهمه وديناره وجميع شعاره وديناره، وتستجرُّ ماله سرّاً وجهراً، وتوهمه نقصان دخله عن خرجه لينطوي من ذلك على غمٍّ دائم، وفكر ملازم، فيشغل بذلك تفقد حالها، وينقطع به عن التفرغ لاستبدالها، ورُبَّما أُلجأت إلى اقتراض، لعلمها بما في الاستدانة من الاستكانة، وهي مع ذلك توهمه عظيم النصيحة، وتُمنُّ عليه بالشفقة والكفاية التي تدعيها، وأن قوام منزله وعمارة بيته بوجودها فيه، وتظهر مع ذلك التشكي من حالها معه، وتسخط عيشها لديه، ولا سيما إن كان صداقها ثقيلاً.

وإن كانت قد أنفقت عليه مالاً جزيلاً، فحيثُ تملكه بقهر وغلبة، ويضعف الرجل عن مقاومتها، ويضطر إلى الانقياد لمراضيتها، والنزول على أحكامها ومباغيها، ولا سيما إن كان ركيكاً محجماً.

فإن كانت ذات أقارب؛ فهم يختاطون به كالعقارب، وينهبون ماله كالسلاهب، فإن غاب في سفر جعلتهم رقباء عليه وحفظاء مخافة أن يحدث أمراً يطلعه على نقصها، ويحاذره أن يصغي إلى قول أخ ناصح أو يخلو بخليل مشفق، يوضح له كيفية ذهاب عمره ضياعاً، فتراه معها في سفره وحضره كالأسير العاني في يد العاسف الجاني، فشرها كل يوم متفاقم في زيادة.

ثم إنها تنهاه عن البشاشة بإخوانه، والالتفات إلى إخوانه وأحداثه، وتكفُّه عن برهم ومراعاتهم، وتشرط عليه بما يخلف مودته في نفوسهم لثلاثة أسباب:

أحدها: لعلمها أنه إذا مازح الأوداء، وخالطهم، وتقرب إلى قلوبهم؛ لم يخلو من ناصح منهم ينصحه، ويكشف له خطاه في نزوله على مرضيها ورضاه بالدون.

والثاني: لعلمها أنه إذا اعتاد حفظ قلوب الإخوان، وتفقد أحوالهم، ولم شعثهم وبرهم ووصلهم، وأنفق شطر ماله عليهم؛ فترى أن ذلك المال قد فاتها؛ لأنها لم تحزه كما حازت غيره، فصار كالمسلوب منها، إذ لو لم يخرجها في تلك الوجوه، لتناولته ببعض وجوه مكرها وحيلها.

والثالث: أنها لا تريده يتحبب إلى القلوب بحيث تؤثره، وتجتمع الألسن على شكره؛ لأنه إذا اصطالح الناس على شكره، كان الناس كلهم في معونته، وحفظ جانبه متى ساقها وأغضبها، ثم إنها تلجئه إلى إهمال إخوانه باحتياجها إلى ذات يده، وتوهمه أن المروءة كلها قد حازها بطرفيها بإحسانه إلى أقاربها وأولادها، وتحقق في نفسه أن غير ذلك لا يلزمه.

فيا رحمته! لمن يقع مع عجوز بهذه الصفة، فإن زمانه وعمره، وأوان شبته قد ذهب في غير محمدة ولا لذة، فينفضي أوان حدائته، وزمان طراوته بالأمان، حتى إذا ذهبت طراوته، وشابت طرته؛ ندم على إضاعة أيام الشباب ندامة الكسعي، ولم يستطع رد يوم من عمره المنعِي، ولم يحظ من زمانه بطائل؛ لأنه قد أسخط الأخلاء، وأهمل حقوق الأولياء والأوداء، وصار منحلًا بين إخوانه، مذمومًا بين أهله وأقرانه لرضاه بالدون، واستكانته لامرأة، تحمله على الهون، وهو يعذر نفسه في ذلك، ولا يعلم أن العاقل لا يضيع من عمره وزمانه ما لا يمكن رده خوفًا من إسخاطه عجوز متعدي.

وقال النبي ﷺ: «تناكحوا وتناسلوا؛ فإنني مكاثر بكم يوم القيامة، ولو

بالسَّقَط»^(١).

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (٥/ ٣٩١)، وابن قدامة في «المغني» (٧/ ٢٢٦).

فإن توهمنا أن رجلاً قد تزوج امرأة، وهما جميعاً متساويان بالسن؛ فإنها إذا بلغا نيفاً وخمسين سنة، امتنع الحبل من المرأة، ولم يمتنع من الرجل، فإن اهتما بعمارة الدنيا، وأخذ بالخبر النبوي، فالزوج يحتاج إلى أن يتخذ زوجة ثانية شابة حتى يولدها، ولا ينقطع منه التوليد إلى نيف وسبعين سنة، وإن كان قوي التركيب، فإلى نيف وتسعين سنة.

والسبب الثالث من الأسباب التي تقطع الرجل عن الباءة من الأسباب المتعلقة بالمنكوحه: أن تكون المرأة شابة إلا أنها قبيحة الصورة، ويكون الرجل قد صاحب وجالس من هو أحسن صورة منها، فيكون ساخطاً عيشه معها، متبرماً بغشيانها، فلا يكاد ينساغ له الإلمام بها إلا عن ضرورة وإنعاظ وامتلاء.

والسبب الرابع: أن تكون المرأة شابة إلا أنها قد ولدت وأرضعت، واسترخت صلابة أعضائها الرخصة، واسترخى لحم ثدييها، وتشقق جلد بطنها، هذا إن لم يحدث في رحمها بعض الأعراض المكروهة، فكثير من الناس يكره هذه الأحوال من المرأة وتعافها نفسه، فإذا لم يقدر على غيرها، قال بترك الباءة والإقلال عنه وإعيائه.

والسبب الخامس: العتق؛ فإن الملل آفة المتواصلين، وأكبر دواعي الإدلال، ورُبَّما مال الرجل إلى امرأة ليست هي أحسن من التي عنده، ولا مثلها بسبب عتق الأولى، وجدة الثانية، وهذا تراه عياناً ممن يولع بشراء الجوارى وابتياح الرقيق؛ فإنه إذا اشترى جارية جميلة شابة، وعنده في داره من يفوقها في الجمال والطراوة؛ فإنه يتشوق إلى غشيان الجديدة المتباعدة أكثر من تشوقه إلى من عنده من الجوارى، وليس هذا في طبع الإنسان فقط، بل هو في طبع فحول الحيوانات جميعاً.

فإن من يرتبط ذكراً وأنثى من ذوات الأربع، أمّا الجمل أو الحمير أو غيرهما من

الدواب الشبهة بحيث تتنافر المدة؛ فإنه إذا حضر غير تلك الدابة معها، وجد منازعة ذلك الفحل إلى الوثوب على الجديدة بنشاط ما لا يوجد مثله، إذا وثب على العتيقة التي كانت عنده.

ومما يدل على اشتراك الناس في محبة الجديدة، وإعجابهم بجديد الفراش قول عمر رضي الله عنه: «أمنوني على خزائن الأرض، ولا تأمنوني على سوداء حبشية».

إلا أنه وإن كان حب الجارية مطبوعاً في الغرائز، فقد يوجد في النادر من الأشخاص البديعة الجمال من الأتراك، وإن عُتِقَ أفضل من كل جديد، وذلك أن الفتاة إذا كملت جمالاً وقواماً وعقلاً وفطنةً وذكاءً وحياءً وصيانةً وكفايةً، وكانت أخلاقها موافقة لخلائق قرينها على وفق إرادته، وأحدهما وإمق^(١) لصاحبه؛ فإنها على الحقيقة تكون كما قال ذو الرمة:

وخرقاء لا تزدد إلا ملاحية ولو عُمِّرت تعمير نوح وجَلَّت^(٢)

ورأيت امرأة ولدت ثلاثة بطون، وهي ناهد، وثدياها في صدرها كثدي رجل، ولها من العمر نيف وثلثون سنة، وبدنها كأرخص أبدان الفتيات إلا أن وجود هذا التركيب الذي لا يسرع إليه الكبر، وعلو السن نادر عزيز، وإذا اتَّفَقَ فما أعزَّه على واجده، وأصَرَّه على فاقده، وهو إن عُتِقَ أفضل من كل جديد، ومن وجد مقصوده، وابتغى عوضه؛ فقد عدل عن مقصوده، وهذا من العقلاء خَلَفَ.

والسادس: مباينة اللسان والمولد؛ فإننا نجد الجارية الجميلة الحسناء، ولو بلغت

(١) المِقة: المحبة، وقد وَمِقهُ يَمِقهُ بالكسر فيها، أي: أحبه، فهو وإمق [تاج العروس (ومق)].

(٢) البيت من الطويل، وهو للقحيف العقيلي في «الأغاني» (١٨/١١٧٤٨)، و«طبقات فحول الشعراء» ص (٤٢١)، و«التذكرة الحمدونية» ص (٣٧٥٩).

من الجمال ما بلغت لا يستلذُّ بمعاشرتها إلا أهل لسانها؛ فإن المنطق الرَّخيم لا تستلذُّه الأسماع إلا إذا كان بلسان المستمعين، فأما من تكلف مجاوزة قرينه بغير لسانه المألوف له في حال المؤانسة؛ فإن التذاذه بمحادثته ومحاورته منقوصة.

وأما اختلافهما في المولد، فيلزم منه الاختلاف في الأخلاق والعادات، ولا يكمل بمعاشرة المخالف في الأخلاق لذَّة ولا متعة؛ لأنه لا يتحرك في وقت يحتاج إليه وسكونه، ويسكن في وقت يحتاج قرينه إلى حركته، ويتكلَّم في وقت يستحب سكوته، ويسكت في وقت الكلام.

فهذا أيضًا من أسباب فتور الرجل عن الباءة ودواعي الملل والانقطاع، على أن هذه العيوب التي ذكرناها إنما يحسُّ بها من كان ذا حسٍّ تام، وذكاء وافر، فأما الأجلاف والجهَّال والأغمار، فلا يكاد أحدهم يحسُّ بشيء ممَّا ذكرناه، ولعمري لقد أراحهم من مشقة كثيرة.



الجملة الخامسة

في العلة في عفة من يكره أو يعاف جماع محبوبه

اعلم - أيّدك الله - أن من يقول بالشاهد ويعف على ضربين:

أحدهما: يعفُّ عنه خوفاً من العار أو من النار، وهؤلاء يجدون لا محالة ألم مجاهدة النفس، ومُغالبة الشهوة، ومحاربة الهوى.

ومنهم من لا يزال مستحسناً للصورة والمشاهد مادام بعيداً عنه، فإذا صار مكانه منه قريباً؛ نفر من قربهِ، وكره مدانته لوحشة الحس، وكثافة الجسمية، وهذه الصفة إنما تكون فيمن كان أشدَّ لطافة من الناس، وأكثرهم حظاً من الصفات الروحانية؛ فهؤلاء يتمثل أحدهم صورة المشاهد في خياله أحسن ممَّا يراه في عينه مثل ما يرى النائم في أحلامه من الصور؛ فإنه يستحسنها أكثر ممَّا يستحسن ما يراه في اليقظة منها.

وإن احتمل بإحداهن، كانت لذته فوق لذة المجمع؛ لأن تلك الصورة وهمية منطبعة في خياله من غير كثافة جسمية؛ فهي من اللطافة والخلو من الكثافة في غاية سلمت من وحشة.

والدليل على أن التذاذ المجمع بالاحتلام في النوم أكثر؛ لأن المنّي الخارج بالاحتلام يكون أبداً أكثر من المنّي الخارج بالجماع، ولا خلاف بين أهل الصناعة الطبيعية أن قوة اللذة يتبعها كثرة خروج المنّي، وليس كل أحد يتخيّل ما ذكرته.

وأيضاً فإن الأمور المتخيّلة في المنامات أمور عجيبة وهمية لم تخرج إلى عالم الشوب؛ فالأمر المشاهد في النوم أكثرها ما تخلو من الشوب، فلهذا يكون الخوف في النوم خوفاً ليس مثله في اليقظة، وتكون لذة النوم تزيد على نظائرها من اللذات في اليقظة، وشبهه يزيد على شبهه، ولذة السرور بما يسرُّ في النوم أكثر منها بما يسرُّ في

اليقظة، بخلوص ما ترى في النوم من الشوب كثافة الحس الجسمية، وبها انضاف إلى هذه الحال لبعض المتنزهين لم يجد لذة بالعفة والنزاهة.

فمن كان بهذه الصفة فعفته طبعاً وببؤته سريعة، وإبائه يمنعه من كثير من اللذات، وكثير ما يجلب لنفسه فراق من يحب، ويهرب مما يعده غيره منية، وبأدنى العوارض ينفر عن أعز الموجودات عليه، ولا تعجب من ذلك؛ فالناس طباع، وكلٌ ميسر لما خُلق له.

الجملة السادسة

في ذكر العلة في عدولهم بالباءة عن المجرى الطبيعي

وهي بابان:

الباب الأول من الجملة السادسة

في ذكر العلة في إثثار بعض العقلاء الفلام على الجارية [...] ^(١)

الباب الثاني من الجملة السادسة

في ذكر العلة في إثثار بعض النسوان السحاق

فذلك لأن من النساء من يكنّ بطيئات الإنزال لبرودة أرحامهن أو برودة مسهن أو قلته، إذا جومعن سبقن إلى الإنزال، فيقمن غير قاضيات للوطر، وينفصل الرجل عن إحداهن، وقد تأججت نار غلمتها، وانبعث من الكلى هائج شهوتها؛ فإن كانت قد قاربت الإنزال إلا أنها لم تنزل، فلو استطاعت حينئذ، أرسلت على نفسها حماراً إن لم يمنعها حفاظ.

وأما أقله فيهن فزياد لها، فيباطى الإنزال أو تهرع إلى المساحقة [...] أو خصيئ يؤمن عليها، ومن كانت منهنّ بهذه الصفة؛ فإنها إذا وقعت إلى بطيء الإنزال أهاها عن السحاق، ولوي وجهها عنه.

ومنهنّ: من سبب إثارها للسحاق كون عنق رحمها قصيراً، وكون إحليل صاحبها وافر الطول، فيحدث لها من الألم بالجماع ما ينغص لذتها، فلا يلائمها إلا رجل قصير المتاع.

ومنهنّ: من تكون سريعة الإنزال، وتقع بسهم رجل بطيء الإنزال، فإذا بدأ يباضعها لم تلبث أن تنزل، فإذا وصل منيها إلى إحليله فتر وأبطأ إنزاله، وازداد بطناً؛

(١) فضلنا عدم ذكر هذا الفصل لما فيه مخالفات، وعدم موافقة للشرعة الإسلامية.

فإن استدام حالته كلّفها إنزالاً ثانياً، ورُبّما كان مزاجها ضعيفاً عن ذلك، ثم إنها بعد الإنزال الثاني لا تقدر على السكون، وتودع رحمها وإراحتة، وحينئذ يكون الرجل في أشدّ رهزه، وأشدّ حرصه لقربه من الإنزال، فتأوه وتتضجر وتتململ، وتضمّر الرغبة عن الرجال، ثم لا تلبث أن تساق، فلو وقعت إلى سريع الإنزال للائمها.

ومنهنّ: من يكون في رحمها بعض الأمراض، والعايات التي يحدث الإيلاج لأربابها أماً؛ فتعوض بالسّحاق، وتتفع به، وهذه لا تصلح إلا للعنّين.

ومنهنّ: من آفتها تقبيل فم من لم يشبه خشونة الشعر، وإصاق خدّها بخدّ ناعم؛ فهي إن ظفرت بفتى أمرد بلغت مُناها، وإلا كان تُعوّضها بمساحقة فتاةٍ سحرُ جماها أثر عندها من تكلف ما لا يُستساغ لها احتمالها من الناس السّود، فما ظنك بموقع اللمة السّمطاء عند مثل تلك الحيّة الرّقطاء.

وحكي أن عَنابَ جارية الناطفي كانت تحبُّ غلاماً من أولاد التُّجّار وتعرض له فلا يلتفت إليها، وتراسله فلا يجيبها؛ فأضربت عن ذكره، ثم اجتازت به بعد مدة، وقد التحّى فهشّ إليها، وتعرّض بها فلم تكلمه، ومضت إلى منزلها، وكتبت إليه هذه الأبيات:

هلا وأنتَ بماء وجهك تُشْتَهَى رُود الشباب وأنتَ ممنوح الصّفا
فألزَمَكَ الزّمان بلحية ما كان أحوجها إلى أن تُتَفَا
قد كنتَ وجهاً مدبراً ومولّياً فالآن وجهك حيث دُرتَ به قفا^(١)
ولبعض من يرى منهنّ هذا الرأي في المعنى:

(١) الأبيات ذكرها الشابي الإربلي في «المذاكرة في ألقاب الشعراء» ص (٣٧٨).

أنت بدرٌ جنى الكسوف عليه ظلمة ما يرى لها من نفاذ^(١)
ولبعضهم:

هلا أتيَتْ وماءٌ وجهك مُشْتَهَى رود الشباب قليل شعر العارضِ
والآن حين بدت بخدك لحيَةً ذهبت بملحك ملء كف القابضِ
مثل السلافة عاد همُرُ عصيرها بعد اللذاذة خلَّ خير حامضٍ^(٢)

ومنهنَّ: من يفوق غيرها في الذكاء والحياء، وفي طبعها كثير من أخلاق الرجال
حتى رُبَّما أشبهتهم في حركاتها وكلامها وصوتها، وتكون محبة لأن تكون هي الفاعلة؛
فهي تُريدُ من يُمكنُها بحيث تعلوه، ولا تحتشمه عن المراودة كلما تحرَّكت غلمتها، ولا
تسومها الجماع وقت سكون شهوتها، فيُخرجها ذلك مع استعصاف النزول تحت
مراضي الرَّجُل وحكمه إلى السَّحاق، وأكثر أصحاب هذه الصِّفات هنَّ المتطرفات
والكاتبات والمقرئات والعالمات.

ومنهنَّ: من يلحُّها إلى السحاق شدَّة الحجر عليها؛ فلا يتهيأ لها الخلوة مع ستر
وأمن بغير النساء.

ومنهنَّ: من يغلب على مزاج رحمها البرودة المفرطة؛ فتلتذ بكثرة الاحتكاك
المسخن ما لا تلقى مثله بالجماع؛ لأنَّ احتكاك الجسمين المتلاصقين يؤثر الحرارة
الشديدة المسخنة بالفعل، فتسخن مجاري المنى، فتفتح وتجد به.

(١) البيت من الخفيف، وهو للصنوبري في «المحب والمحبوب والمشموم والمشروب» للسري الرفاء
الكندي ص (٤٥).

(٢) الأبيات من الكامل، وهي لأبي نواس في ديوانه من قصيدة البيت الأول مطلعها، ولسعيد بن
حميد في «التشبيهات» لابن أبي عون ص (٤٧٩)، و«الحيوان» للجاحظ ص (١٥٤).

ومما جاء في السَّحاق:

أَلَا يَا ذَوَاتِ السَّحَقِ فِي الْغَرْبِ وَالشَّرْقِ أَفَقْنَ فَإِنَّ النَّاسَ أَهْلَ مِنَ السَّحَقِ
أَفَقْنَ فَإِنَّ الْخُبْزَ بِالْأَدَمِ يُشْتَهَى وَلَيْسَ يَسُوعُ الْخُبْزَ بِالْخُبْزِ فِي الْخَلْقِ
أَرَاكُنَ تُرَقِّعَنَّ الْخُشُوقَ بِمِثْلِهَا وَأَيُّ لَبِيبٍ يَرْقَعُ الْخُرْقَ بِالْخُرْقِ^(١)

(١) كلمة تعني الجماع فضلنا عدم ذكرها.

(٢) الأبيات من الطويل، وهي لأبي العتاهية في «الأغاني» (٤/ ٢٢٣٥)، و«معاهد التنصيص» لعبد

الرحيم العباسي ص (١٢٥٣).

الجملة السابعة

**في ذكر العلة في تشوق نفوس الشبان ذوي الأمزجة القريبة
من الاعتدال إلى الاستكثار من الصور الجميلة بغير نهاية**

ولما كان مولد كل واحد من الناس محصًا بشكل فلكي لا يخص غيره من الأزمنة التي وُجد فيها سواه، واستحال أن يتساوى شكل الفلك بكواكبه ومراكزه في وقتي ولادتي كل اثنين من الناس؛ استحال لذلك أن يتساوى اثنان من الناس في صورتيهما كل التساوي، وكذلك تساويهما في الأخلاق وتوابعها.

فالرجل الواحد بين طالعه مناسبة ما، وبين كل واحد من الناس جميعًا غير المناسبة التي له إلى واحد آخر منهم، فيلزم من ذلك أن يكون انتفاعه وضرره واستمتاعه بقرب كل واحد منهم، والتذاذه به غير ما له من هذه الأنواع من غيره على مذهب المنجمين، فيصير ميله إلى كل واحدة من النّسوان الحسان غير ميله إلى الأخرى؛ لأنّ الذي أماله إلى الأولى مناسبة بين طالعيهما غير المناسبة التي بين طالعه وطالع الأخرى.

وأيضًا فإن اختلاف الأشكال الفلكية وقت مواليدهن سبب لاختلاف أشكاهن واختلاف أعضائهن؛ فإن المعاني التي تستحب من الحسنة التركية غير المعاني التي تستحب من الكاعب الرومية والحدود الأرمنية، ثم يترتب من هذه المعاني والروثق وأنواع الملاحاة مع أقسام الجمال ما لا يتناهى تركيبه.

وكذلك حال كل واحد من الأعضاء التي يباشرها المخالط ببصره أو ملمسه، فربّ قبيحة تؤثر لطيب خلوتها، وملائمة حركاتها على الكاعب الحسنة، فضلًا عن اختيار إحدى الحسناتين لفضيلة في إحداهما، إمّا في أخلاقها أو في حسن أدبها أو لطيف مؤاناتها أو خلة مستحسنة في بعض أعضائها الباطنة.

وهذه الأسباب لا يمكن تمييزها إلا بالمخالطة لهما جميعاً؛ فإذا كانت هذه حال تفاوت النسوان الجميلات، فمثلهن إذا تساوين في الجمال الظاهر مثل صناديق مزوقة الظاهر يشتمل كل واحد منها على ما لا يشتمل عليه الآخر، ورُبَّما اشتملت عدة منها على أشياء متشابهة.

فأمَّا الدليل على أنَّ المقدار المتناهي يقبل صورة ذات وضع يحتمل الزيادة بغير نهاية ولا يصل إلى مساواة صورة أكبر منها؛ فهو أنَّا نفترض مثلث (أ ب ج) قائم الزاوية، وزاويته القائمة زاوية (ب)، ويخرج (ب ج) إلى (د)؛ فيكون زاوية (ب أ ج) حادة، أعني: أصغر من زاوية (أ ب ج)، وزاوية (ب أ د) أعظم من زاوية (ب أ ج)، وهي أيضًا حادة؛ لأنَّ مثلث (أ ب د) قائم الزاوية، وكذلك زاوية (ب أ د) أعظم من زاوية (ب أ ج)، وهي أيضًا أصغر من زاوية (ب) القائمة، وزاوية (ب أ د) أعظم من كل واحدة من زوايا (أ)، وهي مع ذلك لا تنفك عن كونها أصغر من زاوية (ب)، ولا يزال يخرج خط (ب د) على استقامته، ويتعلم نقطة بعد نقطة، ويصل بينهما وبين نقطة (أ)، فلا تزال زاوية (ب أ ج) تتعاضد دائماً، وتقبل الزيادة أبداً، ولا تصل أبداً إلى مساواة زاوية (أ ب ط) القائمة؛ لأننا لو فرضنا أن زاوية (ب أ ط) مثلاً قد ساوت زاوية (أ ب ط) لكان خلقاً من وجهين:

أحدهما: أن مثلث (أ ب ط) يكون فيه زاويتان قائمتان، وذلك من المستحيل.
والثاني: (أ ط) و (ب ط) وقع عليهما خط (أ ب)، وصيرَ زاويتي (أ، ب) قائمتين والتقيتا، وهذا محال.

فقد بين أنَّ زاوية (ب أ ج) تقبل الزيادة أبداً، ولا تصير أبداً مساوية لزاوية (أ ب ج)، بل لا تزال أصغر منهما، فإن قيل: أنَّ الزاوية قد اختلف كونها مقداراً كمية أو

صورة ذات وضع؛ قلنا: فإذا كانت الزاوية صورة؛ فإنها أردنا أن نبين وجود هذا المعنى في الصُّور وهيئات الأشكال، فإذا كان هذا حكم زاوية واحدة في موضوع واحد؛ فكيف يتصور تساوي صور سائر الأعضاء من شخصين على الحقيقة؟!

ثم إنَّ الاختلاف في المقدار والصُّورة يتركَب معه الاختلاف في الألوان، والاختلاف في قَلَّة اللون الواحد، وكثرته، وصفاته، وخشونته، وكدورته، وخلوصه، وشوبه، ثم مقدار الموضع المنصبغ، ثم يتركب مع رائحة ما يباشر ريحه والتَّعَمَّة الَّتِي اختلاف حال النَّاس فيها، وسائر حظوظهم منها يعادل أخلاقهم في سائر أحوال خلقتهم؛ فالنفوس إذا اشرَّأبت إلى التَّنَزُّه على اختلاف هذه المعاني طالبة للاطلاع على ما لم تَطَّلِع عليه أو لأنَّ أنفُسَهَا حالاً لم يكن لها أو مثل أفضل ما وصلت إليه من الملائكة الحسنة.

ولهذه العلة اقتضت السياسة المبالغة في صيانة النِّسوان عن الأبصار، وحملهن على الحَفَر^(١)، وكَفَّهن عن ابتذال صورِهِنَّ محاذرة لما لا يؤمِّن خُطُوره ببال أحد من النَّاظِرين، كما قال ابن المقفع: وإن استطعت ألاَّ يُبَصِّرَنَّ غيرك فافعل؛ فإنَّ شِدَّةَ الحجاب أيسر عليك من الارتياح، ولولا أن الأقاليم المولدة للأكياس، وأولي الحسِّ الوافر، والذكاء الفائق، من سُنَّة نسوان ساكنيها التظاهر بالحفر والحياء، وستر الوجوه، وصيانة سائر البدن عن أن تباشره الأبصار؛ لكان ذلك داعياً إلى افتتان البطالين، وفساد قلوب ذوي الطَّبَاع اللطيفة، والحسِّ الوافر، وإلى تنافس عظيم، وعداوات مؤدِّية إلى هلاك وخراب.

ويناسب ما نحن فيه الآن مسألة سألني عنها بعض المتفقهة، وهي أنَّه قال: إنَّ

(١) الحَفَر: شِدَّة الحياء، وامرأة خَفِرة: حَيَّةٌ مُتَخَفِّرَةٌ [العين (خفر)].

الشَّرْع قد نهى عن الجزء الأحكامي من صناعة التنجيم، فأَمَّا الجزء الحسابي والإلهي، فلم يرد نهى عنهما.

فقلت: كذلك هو.

قال: فأخبرني، كيف ظهر لأبصارنا كوكبٌ زُحَل أو المشتري أو غيرهما من الكواكب الثابتة؟

فقلت: ذلك لأنَّ جسم الأفلاك ذو شفاف في الغاية؛ فمن شأنه ألا يستر ما وراءه.

فقال: علمتُ ذلك؛ أفليس الكتابُ العزيزُ ناطقًا بأنَّ الجنةَ عرضها السماوات والأرض؟

قلت: بلى.

قال: فهذا يلزم منه أحد أمرين: إما أن تكون الجنةُ هي السَّماء السَّابعة، أعني: فلك زُحَل أو وراء ذلك أو خارج الأفلاك جميعًا بتقدير أن يكون معنى هذه الآية أن عرضها مساوٍ لسعة السماوات والأرض.

فقلت: وما الَّذي أشكل عليك في ذلك؟

فقال: إذا كانت الأفلاك مشفَّة لا تستر ما وراءها وما فيها، وكانت الجنةُ.

فقلت: ذلك لأحد أمرين:

أحدهما: بُعد المسافة عن البصر؛ فإنَّا نرى زُحَل، وهو مثل كرة الأرض نيفًا وثمانين مرة صغيرًا جدًّا، وليس في الأشخاص والصُّور التي هي في الجنة ما يقارب عِظَم جُرم زُحَل حتَّى ينبغي أن يرى، وأيضًا فإن زُحَل لو لم يكن معدنًا لنور ساطع شديد الإنارة لما رأي على عِظَمه لشدة بعده.

والثاني: أَنَّهُ كَمَا خَلَقَ اللهُ أَبْصَارَنَا مَطْبُوعَةً عَلَى الْإِحْسَاسِ بِهَذِهِ الْأَجْسَامِ الْمَشَاهِدَةِ؛ كَذَلِكَ جَعَلَ فِي طَبِيعَةِ أَبْصَارِنَا أَلَّا تَرَى مَا فِي السَّمَاوَاتِ، وَلَا تُدْرِكُ مَا يَتَخَلَّلُ أَطْبَاقَهَا، إِذْ لَوْ كَانَ النَّاسُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَهُمْ يَشَاهِدُونَ الْجَنَّةَ، لَبَطَلُوا عَنْ الْأَعْمَالِ وَالصَّنَاعَاتِ، وَأَهْلَاهُمْ ذَلِكَ عَنْ سَائِرِ الْأُمُورِ الَّتِي بِهَا عِمَارَةُ الدُّنْيَا، وَبَطَلَ هَذَا النِّظَامُ الَّذِي اخْتَارَهُ صَانِعُهُ؛ فَاسْتَصَوَّبَ ذَلِكَ وَارْتَضَاهُ جَوَابًا.

الجملة الثامنة

في ذكر العلة في اعتكاف العازف على الباء

قلت للعازف على الباء: يأتى المفتون بأباطيل انطبقت في تصوّره قديماً كيف تعشق الصُّور، وهي أغراض زائلة؟ أم كيف تعشق المواد، وهي لعينها استحالت ممّا لو رأيتَه لفررت منه، وعفت النظر إليه، فضلاً عن ملاسته، بل هو عين ضد ما عشقته منها، قد تناولته يد الكون والفساد؛ فإن قلت: عَشِقْتُ ذلك الكون؛ لأنه إقبال، ولأنه ضدّ الفساد الَّذي هو إدبار، فالَّذي عشقته هو عين ما كرهته، الَّذي هو الفساد؛ لأنّ كل شيء؛ فإنما فسادَه كون ضده الَّذي يستحيل إليه.

قال: كلا، غاب عنك ما أتى فيه إلى ما لا تصور القبيحة والحسنة، وقد سلخَ عنها الجلد المحيط بأبدانها، فلا يَبْقَى بينهما ذلك الفرق، ولا يَبْقَى لإحداها فضيلة على الكبش الذَّبِيح إذا سلخ جلده، والجاهل مفتون بالتقوش المزيّنة بالجلد، وإنّي لأتصوّر نفسي مطلّعاً على عالم الأرض بأسره في الليلة الظلماء، فإذا سائر صوره وأشخاصه وأجسامه سودّ مظلمة، لا فرق بين قبيحها وحسنها، وأبيضها وأحمرها وأصفرها. فاعلم أنّ النَّاس مفتونون بأباطيل لا حقائق لها، وإنّا افتتنوا بالنور، والنور سبب افتتانهم، واختلاف النفوس المذكورة في الجلد هو أيضاً بعض لوازم النور؛ لأنّه من آثار النِّبَرَات العلوية.

قلت له: فما بالك مع علمك بهذا على ما أرى؟

قال: اعلم أنّ العارف المستحسن للصور الجميلة، المعتكف على الباء هو الَّذي مزاجه الجسماني، ومزاجه الروحاني معتدلان، وما يدريك ما المزاج الروحاني؟ لا تسألني عنه، عرفه مَنْ عرفه، وجهله من جهله، ودليل الاعتدال الَّذي ذكرته ما تجده يعترى المزاج، وأصحاب الخلوات الكثيرة من سوء الأخلاق وغلبة السوداء.

واعلم أنَّ العازف إنَّما يوجد فيه الاعتكاف على الباء لثلاثة أسباب، يشاركه النَّاس في أحدها، ويمحس بالسبيين الآخرين:

فأمَّا السَّبَب الأوَّل: فهو أنَّ العازف لا يمكنه بكونه عارفاً أنَّ يتماسك عن الأفعال لذوات الحواس من الأشياء الَّتِي تُفعل بخواصِّها؛ فإن من يسبب السقمونيا، وهو يعلم أنَّها تسهل الصَّفراء، فإنَّ علمه بهذا غير نافع من فعل السقمونيا ما شأنه أنَّ تفعله، بل فِعْلها في بدن الجاهل والعازف سواء، وهذه الصُّور والأشخاص الَّتِي ترانا معجبين بها، مشغوفين بلقائِها أو قُرْبها، من شأنها أنَّ تجذب القلوب والهمم إليها كجذب المغناطيس للحديد؛ فإنه لا يتماسك إلا إن كانت قوة المغناطيس ضعيفة، إما لصغر مقدار الحجر، أو لسبب آخر؛ فهذه المغناطيسية الجاذبة والخاصية القاهرة بل الطلسمية الظاهرة، لا يمكننا معشر العارفين مقاومتها إلا من كان منها سوداوي المزاج، رُحِّلِي الفكرة، فهذا هو السَّبَب الأكثر لما سألت عنه.

والثاني: أنَّ العازف لا يرى فائدة، ولا نفعاً في سائر المساعي الدِّينية، ولا يكمل معرفة العازف إلا إذا علم أنَّ معرفته أَلَّا تفيده، وأنَّ العلم وغيره لا يغني عنه، وأنَّ التَّعرض الدائم عبودية، ومن وصل إلى هذه الدرجة؛ فإنه يرى الحياة مغرماً، فإما أن نقصد الموت بأحد الطُّرق المؤدِّية إليه، وذلك سعيٌّ باطلٌ؛ لأنَّه لا يمكن تقديمه على الوقت الذي قدر فيه.

وإما أنَّ يقتضي زمانه شيء يتخذه شغله لُتَقْصَى به الأوقات، وأصلحُ ما كان التَّشاغل إذا كانت سائر أنواع التَّشاغل لا يفيد ما كان غير متضمَّن الفناء، ولا إعمال الفكرة، ولا قسر طبع؛ لأنَّا قد ذكرنا أنَّ العازف يعلم أنَّ الفكر وغيره لا ينفعه.

وإما أن يكون غرضه تسكين اهِمَّة الحابسة، وردع الخواطر المتحركة، وقطع

مواد الحرص، واجتناب الغرائم؛ فإن الباء تُسكن غليان الفكر، وتطفئ توقُّد الأفكار، وتُبرد نار الحرص، وربما تبلد خاطر؛ ولذلك صار علاجًا للشباب الذين يعرض لهم الوسواس السوداوي والمالنخوليا والعشق، إذا استعمل مع التدبير الصالح، فإذا كان الاهتمام عند العازف لا يجدي فائدة، فأصلح ما وقع التشاغل بما ينقص المهمة، ويبرد توقدها.

والثالث: أن من بعض فوائده أنه يبرد القتود، ويفتُّ حيطان السجن، ويخلخل أحجار المجلس ليسهل على النفس عند انقضائها عن هذا الهيكل فرارها منه، وذلك أنه يهزل البدن، ويضعف الأعصاب، وينقص الحرارة الغريزية، وفي ذلك إحساس بالآلام، وإعدام للبدن لانحلال تركيبه.

وليس يقدر العازف على أمن يعتري بدنه لانحلال التركيب، وقبول الآفات المميتة من غير أن يحدث فيه ألم ولا مكروه إلا الجماع.

وقد أشار النبي ﷺ: النساءُ خيرٌ مشغلةٌ يتشاغل بها العازف في الدنيا بقوله: «الدنيا متاع، وخيرها المرأة الصالحة»^(١).

وقد أشار القرآن العزيز إلى أن الدنيا لعب ولهو ومتاع إلى حين، وإذا كان خيرها المرأة الصالحة؛ فقد وافق ما قلنا الآية والخبر.

وقد جاء في الآثار أن الاشتغال بالنكاح خير من عبادة النفل، وذلك مطابق لما ذكرناه.

فهذا مقصودنا من النساء؛ فاعلمه، وإن شئت فصِّدق، وإلا فلا ضرر لنا إن كذبت، فعجبت من مقالته، وأثبتها هاهنا ليتدبر متأمله في معانيها.

الباب الأول من الجملة التاسعة

في أدب المحادثة

وهي ثلاثة وعشرون أدبًا:

الأول: حسن الإصغاء إلى المتكلم بترك الكلام مع سواه، وترك الإصغاء إلى

غيره.

والثاني: التَّحَرُّزُ من أن يطغي عليه فكر في غير ما يسمعه من محدثه، فيلهيه عن

فهم بعض مقاله، فيطلبه منه في آخر الكلام؛ فلا يجده معلومًا عنده، فيحشمه^(١) إعادته.

والثالث: ألا يميل بوجهه عن محدثه؛ لئلا يتهمه بالفكر في غير حديثه.

والرابع: ألا يقطع عليه كلامه بشيء حتى ولا باستدعاء ماء ليشربه.

والخامس: ألا يسابقه إلى حديث يبدوه لمعرفته بذلك الحديث، بل يريه من

الارتياح له، والتعجب منه ما يوهمه أنه لم يخطر بباله، ولا وقر في سمعه قط.

والسادس: كتمان سرّ المحادث، والوفاء له بما يعهد إليه بكتمانه.

والسابع: التحرُّز من الإشارة إلى تكذيب المحدث أو المناقضة بين أقواله أو

مناقشته ومناظرته؛ فإن ذلك كله مفسد للمودة مولد للضغائن.

والثامن: التَّحَرُّز من الكذب.

والتاسع: التَّحَرُّز من الممازحة بما ظاهره مكروه؛ فإنه من أكبر أسباب

التباغض، ولا سيما ما كان منه مقاربًا للحقيقة في باطن الحال، كمن يمازح الأبخر إذا

تبخر وتعطر، فيقول: «لا تدنُ منَّا، فيؤذينا قبح ريحك»؛ فإن هذا القول، وإن كان

(١) حَشَمَهُ يَحْشِمُهُ وَيَحْشِمُهُ حَشْمًا وَأَحْشَمَهُ، وَحَشَمْتُهُ: أَخْجَلْتُهُ، وَأَحْشَمْتُهُ: أَغْضَبْتُهُ [لسان العرب

ظاهره ينطلق على التنبيه على روائح طيبة، فهو موهم بأننا قد عرفنا ما تحت هذا البُخور والطيب.

والعاشر: التَّحَرُّزُ من الوعد مهما استُطيع احترازًا من العوائق؛ فإنها أكثر أن يُهتَدَى إلى التَّحَرُّزِ منها.

والحادي عشر: تجنب العجلة في الكلام؛ فإنها مُذهبة لروث المتكلم في النفوس، وخصوصًا من النساء؛ فإنها أكبر أسباب القلي والملال، وأحسن ما قصدت له المرأة التَّؤدة عند النطق بالحروف.

والثاني عشر: احتراز المتكلم من أن يستولي على فكره الغوص فيما يتكلم، فيعثر بلحيته أو أظفاره أو يعرض مروحة تكون في يده أو يقطع بعض أهذاب المروحة أو أطراف الحصير، ويلقط ما يسقط بالأنامل أو يلقط زنب.

والثالث عشر: الإقلال من الأيمان؛ فإن من يُتَّهم قوله إذا لم يحلف يُتَّهم أيضًا إذا حلف.

والرابع عشر: التَّحَرُّزُ من الاستشهاد على صحة ما يقوله بما يوقع الشك فيه، كمن يلتفت إلى غلامه في المجلس؛ فيقول له: يا غلام! فيم بعثتك اليوم بكرة؟ فيقول: يا مولاي! في شراء ثوب كذا أو شغل كذا؛ فإن هذا لا يزيد من يسمعه إلا شكًا في قوله، إذ لا يبعد أن يقرر مع غلامه النطق بذلك قبل أن يضمهما ذلك المجلس.

والخامس عشر: التَّحَرُّزُ من الإكثار في قول «أفهمت؟»، وما شاكلها.

والسادس عشر: التَّحَرُّزُ من مخاطبة إنسان بما لا يعنيه منه حال، ولا يستدعيه منه أحد؛ فإن أكثر الناس يستولي على خاطره أمور له تجري، فلا يلبث إذا لقي إخوانه أن يحدثهم بها، ويلزمهم حسن الإصغاء إليها، ورُبَّما لا يشتمل على فائدة.

والسابع عشر: التَّحَرُّزُ من إضاعة الزمان، وتبديد خاطر المحدث، واستيائه

أسماء من يجري ذكرهم في الحديث والتواريخ والأمكنة، وحذف جميع ذلك.

مثل أن يروم^(١) المحدث الاعتذار من التأخر عن الحضور لميعاد؛ فيقول: إني عزمت اليوم على البكور إليك، فأمرت الغلام بإسراج الفرس، فركبت فلما صرت في الشارع الفلاني؛ أما تعرف؟ هناك دُكَّانُ خيَّاط، فيتفق أن المحدث ربِّها لا يعرف ذلك الخياط والشارع، فيقول: ما أعرفه! فيقول: سبحان الله، أليس بين دكانه وبين المعصرة ثلاثة دكاكين؟ أما تعرف المعصرة؟ فإن قال: لا، ما أعرفه! طال هذيانه في إلزامه إياه بمعرفة ذلك؛ فإن أراد التخلص من هذيانه ادعى المعرفة، فيقول له: بعد ذلك لقيني فلان، أما تعرفه؟ فالويل له، إن قال: لا أعرفه؛ فإنه يقول: صهر فلان، أما تعرفه؟ فإن قال: لا، يقول: هو الَّذي داره مشرفة على كذا، فلا يزال يضيع الزمان في أمثال هذا الهذيان القبيح، وإذا أراد الاعتذار عن مثل هذا، قال: إني بكَّرت لآتيك، فلقيني من عَوْقني إلى الآن، فإن سأله: عمَّن لقيه، قال: فلان؛ فإن سأله: أين لقيه؟ قال: في موضع كذا، وإن لم يسأله لم يأت بفضول.

والثامن عشر: يحترز من أن يخرج الإدلال بالنصح إلى سوء الأدب؛ فكثير من ذوي العزة يتحفظ ذلك، وكثير من المحدثين يخرج الاستغراق في النصح إلى الشطح فيما لا ينقاد المنصوح لمثله، ولا تساوي له تلك النصيحة تتبعه من تلك العبارة، وهجن اللفظ.

والتاسع عشر: الاحتراز من التمثيل بالمخاطب.

حدثني بعض أصدقائي أنه سأل رجلاً قدم من أذربيجان عن خصب الناحية

(١) الرَّوْمُ: طَلَبُ الشَّيْءِ، وَالْمَرَامُ: الْمَطْلَبُ، رَامَ يروم رومًا ومرامًا: طَلَبَ [العين (روم)].

وهوائها، فقال: أما هواؤها في ليل الصيف كله بارد، إن لم تتغط بالدُّوَّاج^(١)، وإلا مت من البرد، وفيها العنب الحلو البارد، إذا أكلت منه عنقودًا، كسر أسنانك برده، وأمّا بطيخها فتشرق وتسلم، تحتق من حلاوته، وأمّا خمرها فإذا شربت منه ثلاثة أقداح، ضرب رأسك الأرض يا مولاي، فقال: يا هذا، ما أرى هذا البلد خلق إلا لحتفي، فهذا النوع من الهذر القبيح المتجنب.

والعشرون: التَّحَرُّزُ من ثلب أحد النَّاس عند غيره؛ فَرُبَّما كان المثلوب نسيبًا للمتحدث، وكان الطالب لا يعلم ذلك، فيتخلله من الخجل إذا، وفي هذا وأمثاله قبح عظيم.

والحادي والعشرون: أَنَّهُ لا يهجم على الحديث، وأن يتوصل إلى احترازه بما يشاكله، ويسبب له ما يسهل أن يجري في عرضه حتى تكون بعض المفاوضة متعلقة ببعض، على حسب قولهم في المثل: «الحديث ذو شجون»^(٢) أي: يشبه ويفرعه عن أصل واحد إلى معان كثيرة.

والثاني والعشرون: ألا يبدأ بحديث يقطعه، ويعد بإتمامه.

والثالث والعشرون: ألا يكثر المحدث التَّبَسُّم والقهقهة.

عن عبد الملك الحجاجي قال: مرَّ يزيد بن عاتكة في بستانه على حمارٍ له واضعًا يده على امرأته الثقفية ابنة محمد بن يوسف، وفي عنقها عقد جوهر الخلافة؛ فانحل وسقط، وهو يخاطبها بحديث، فلم تلتفت إلى العقد، وفطن له يزيد، فقال: أما رأيتِ عقدكِ قد سقط؟ قالت: بلى، ولكن لم يبلغ من قدره أن أقطع له حديث أمير المؤمنين؛ فقال: أعيتموني يا آل أبي عقيل فصحاء.

(١) الدُّوَّاجُ: ضربٌ من الثياب [لسان العرب (دوج)].

(٢) انظر: «الأمثال» لأبي عبيد بن سلام ص (٤٨)، و«مجمع الأمثال» للميداني ص (٦١٤).

قال عبد الملك الحجاجي: إنما كان هذا موضعًا لا ينزل عن حماره فيواقعها، ولا يغني عن الجماع.

وفي حسن هذا الحديث يقول كثير عزة:

كثير من البيض مبسام يودُّ جليسُها إذا ما قَصَّتْ أحدىثة لو تعيدها^(١)
وللبحتري:

ولما التقينا والنقا موعِدُنا تعجَّب رائِي الدُرِّ منا ولا قِطُه
فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه^(٢)
وقال عليُّ بن العباس الرُّومي:

وحديثها السحر الحلال لو أنه لم يحن قتل المسلم المتحرز
إن طال لم يملل وإن هي أوجزت ودَّ المحدث أنَّها لم توجز
شرك العقول ونزهة ما مثلها للمطمئن وعقلة المستوفز^(٣)
وقال بشار بن بُرد:

وكأنَّ تحت لسانها هاروتَ ينفُثُ منها سِحْرًا^(٤)
وقال كُثير عزة:

رُهبان مدين والذين عهدتهم ييكون من حذر المعاد تعوذا

(١) البيت من الطويل، وهو لكثير عزة في «الباقلاني» لأبي البركات الأنباري ص (٣٢٣).

(٢) البيتان من الطويل، وهما للبحتري في «نهاية الأرب في فنون الأدب» للنويري ص (٩٠٧).

(٣) الأبيات لابن الرومي في «الأشباه والنظائر» ص (٧٣)، و«التذكرة الفخرية» ص (١٦٣).

(٤) البيت من مجزوء الكامل، وهو لبشار بن برد في «الأغاني» (٣/ ١٧٥٨)، و«البيان والتبيين» ص

لو يسمعون كما سمعت حديثها خرُّوا لعزة رُكَّعاً وسُجُوداً^(١)
وقال المنتكب السلمي:

ييضاً يظل الشيخ مجمداً لحديثهن بجانب الحذر

(١) البيت من الكامل، وهو لكثير عزة في «العقد الفريد» لابن عبد ربه الأندلسي ص (٦٧٦)،
و«ديوان الصبابة» لابن أبي حجلة ص (٤٩٣).

الباب الثاني من الجملة التاسعة

في أدب المأكلة

العيوب التي من علمها كان خبيرًا بأدب المأكلة؛ وهي خمسة وخمسون عيبًا، وهذه أسماء أربابها: الحكّاك، الزّاحف، المجوّع، المُشَنّع، المتناقل، المدّمع، المبلّع، المقطّع، المبيع، المفرّق، الدّفّاع، اللطّاع، اللّخّاس، المعطّاش، المُعرّض، النّفّاخ، الممتدّ، المزفّر، المُقرّز، العائب، المستبد، المهمل، الجمليّ، المخرب، الفضولي، الطّفيّلي، الملقو، حاطب ليل، النّهم، الحامد، المبقّي، المستظهر، المستهلك، المحتمي، الموحّش، المتشكّي، المستأذن، المملّع، المتطاوّل، المنقّط، المُرشّش، المصّاص، المتسابق، الموزّع، الموفرّ، المحدث، المستأثر، المتعدّي، اللّفّاف، العضاّض، التلّفّت، الثّار، البقّار، المغنّم، المبطر.

فأمّا الحكّاك: فهو الذي يحكّ رأسه أو موضعًا من جسده بعد أن غسل يده، وقبل أكل الطّعام.

فقد حدّث أن رجلاً غسل مع المأمون يده، وأبطأ الطّعام، فسبقته يده إلى رأسه؛ فقال له المأمون: أعد غسل يدك، فغسلها ثم لم يلبث أن سبقته يده إلى لحيته، فقال له: أعد غسل يدك، فقال: أدام الله إقبالك، لا يجب غسل اليد إلا والطعام حاضر.

وأمّا الزّاحف: فهو الذي إذا قدم الطّعام زحف إلى المائدة قبل الجماعة، ورُبّما كان الطّعام لم يتكامل تصفيفه أو كان ربّ المنزل مرتقبًا حضور من يترقبهم؛ فإن زحف الحاضرون إلى المائدة، فقد سجّل على نفسه بالنّهم، وإن ثاقلوا عن موافقته، بقي على المائدة زمن فيخجل، ورُبّما كان الذي يتوقعه ربّ المنزل من إخوانه هو المقصود بذلك الطّعام، فإذا حتّ على سبقه، ثقل على ربّ المنزل موضعه.

وأمّا المجوّع: فهو ربّ المنزل ينتظر مأكليه إدراك طعمه حتى يجمعهم.

حدّث أن محمّدًا بن عبد الله بن طاهر دعا رجل من أصحابه إلى دعوة، تقدم

فيها واحتفل لها، فلما حضر محمد طالبه بالطعام، فمطله ليتكامل، ويتلاحق على ما أحبه من الكثرة، والحفلة حتى تصرم النهار، ومَسَّ محمدًا الجوعُ، فتنغص عليه يومه، وأراد محمد سفرًا، فتبعه هذا الرَّجُلُ حتَّى إذا دنا منه ليودِّعه، قال له: أأمر بشيء؟ قال: نعم، اذهب، واجعل طريقك على أحمد بن يوسف الكاتب، وقل له: بعثني إليك الأمير لتعلِّمني الفتوة؛ فقال: سمعًا وطاعةً، ثم قصد في رجوعه دار يوسف بن محمد الكاتب، فأنكر أحمد مجيئي في مثل ذلك الوقت؛ فسألني عن حاجتي، فقلت: بعثني إليك الأمير لتعلِّمني الفتوة، فضحك، وقال: يا غلام، هات ما حضر، فجاء بطبق كبير عليه ثلاثة أرغفة من أنظف الخبز، وسكرجات مري، وخل، وملح من أجود الملح، وما يتخذ من هذه الأضناف، وابتدأ يأكل، فتداركه الطَّبَّاحُ بطياهج^(١)، ووافاه من داني جرَّته بفضلة من شوي، وأهدى له جَامَ حلوا، فانتظم أمره بشيء خفيف ظريف خفيف بغير احتشام ولا انتظار.

وَأَمَّا الْمُسْنَعُ: فهو الَّذِي يجعل ما ينقِّيه من عظام أو نوى تمر أو غيره بين يدي جاره تشنيعًا عليه بكثرة الأكل.

حُدِّثَ أن متلاحنين حضرا مائدة بعض الرؤساء، فقدم لهما رطبًا، فجعل أحدهما كلما أكل، جعل النوى بين يدي جاره تشنيعًا عليه بكثرة الأكل حتَّى اجتمع بين يديه ما ليس بين يدي أحد من الحاضرين مثل ذلك، فالتفت الأوَّل إلى ربِّ المنزل، وقال: ألا يرى سيدنا ما أكثر ما أكل فلان من الرُّطب؛ فإن بين يديه من النوى ما يفضل به الجماعة، فالتفت إليه صاحبه، وقال: أمَّا أنا أصلحك الله، فقد أكلتُ رُطبًا كثيرًا، ولكن هذا الأحقُّ أكل الرُّطب بنواه، فضحك الجماعة، وخجل المسنع.

(١) الطَّيْهُوجُ: طائر، وقال ابن دريد: «لا أحسبه عربيًّا» [لسان العرب (طهج)].

وأما المتناقل: فهو الذي يُدعى، فيجيب، ويحمل ذلك على نفسه، ويوثق منه بالوفاء ثم يتناقل عن الداعي الملهوف حتى يجيعه ويجمع إخوانه، ويلثم عليه عمر يومه، فجري ما بعد الاستظهار عليه بالحجة، وإعادة الرسول إليه أن يستأثر إخوانه بالمؤاكلة دونه معتمدين بذلك الاستخفاف؛ ليؤدّبوه إن كانت فيه مسكة^(١)، وينهوه إن كانت فيه فطنة.

وقد جاء في الخبر المأثور في إجابة الدعوة، وترك التأخر عنها ما جرى مجرى الفرض والحق الواجب، وهو قول النبي ﷺ: «من دُعي إلى طعام؛ فليجب، فإن كان مفطراً؛ فليأكل، وإن كان صائماً؛ فليصل»^(٢).

فإذا كان الصائم قد أمر بالحضور، فكيف بالمفطر، ومن أجاب ثم تأخر؟! وقد نال ذلك جحظة البرمكي؛ فكتب إليه جحظة البرمكي هذه الأبيات: تأخرت حتى كددت الرسول وحى سئمت من الانتظار وأوحشت إخوانك المسعدين وفجعتهم بشباب النهار فإن كنت تأمل ألا تُسبَّ فأنت وحقك عين الحمار^(٣) ويقال: «ثلاثة تفني: سراج لا يضيء، ورسول يبطئ، ومائدة تنتظر من لا يجيء».

وأما المدّمع: فهو المتناول اللقمة الحارة لا يصبر إلى أن تبرد، فيتناول اللقمة،

(١) رجل مُنْهِك: بخيل [جمهرة اللغة (سكم)].

(٢) رواه مسلم (١٠٥٤/٢).

(٣) الأبيات من المتقارب، وهي لكشاجم في ديوانه من قصيدة البيت الأول مطلعها، وفي «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء» للراغب الأصفهاني ص (٢١٢٥).

فَتُخْلِفُ ظَنَّهُ فِي احْتِمَالِ حَرَارَتِهَا، فَتَدْمَعُ عَيْنَاهُ عِنْدَ احْتِرَاقِ فَمِهِ، وَرُبَّمَا اضْطُرَّ إِلَى إِخْرَاجِهَا مِنْ فِيهِ، وَإِلَى ابْتِلَاعِهَا بِجُرْعَةِ مَاءٍ خَوْفًا مِنْ إِحْرَاقِهَا مَعْدَتَهُ، وَهُوَ مِنْ عِيُوبِ الْمُؤَاكَلَةِ.

وَأَمَّا الْمُبْلَعُ: فَهُوَ الَّذِي لَا يَنْهِنُهُ اللَّقْمَةُ فِي فِيهِ حَتَّى يَبْلَعَهَا قَبْلَ تَكَامُلِهَا، فَإِنْ ذَلِكَ مَعَ كَوْنِهِ مِنْ أَكْبَرِ عِلَامَاتِ الشَّرِّهِ وَالتَّهْمِ يَضُرُّ مِنْ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: تَكْلِيفُ الْمَعْدَةِ هَضْمَ مَا لَا يَسْحَقُ، وَتَنْفَصِلُ أَجْزَاؤُهُ.

وَالثَّانِي: أَنَّ الطَّعَامَ إِذَا لَمْ يَطْحَنَ بِالْأَضْرَاسِ نَاعِمًا؛ كَانَ أَقْلَ تَغْذِيَةٍ وَتَقْوِيَةٍ.

وَأَمَّا الْمُقَطَّعُ: فَهُوَ الَّذِي إِذَا تَنَاوَلَ اللَّقْمَةَ بِيَدِهِ اسْتَكْبَرَهَا، فَعَضَّ عَلَى نِصْفِهَا، وَبَقِيَ بِيَدِهِ النِّصْفُ الْآخَرُ، فَيَعَاوِدُ غَمْسَهُ فِي الْمَرْقِ ثُمَّ يَأْكُلُهُ.

وَأَمَّا الْمُبْعِيعُ: فَهُوَ الَّذِي إِذَا أَرَادَ الْكَلَامَ لَمْ يَصْبِرْ إِلَى أَنْ يَبْلَعَ اللَّقْمَةَ، لَكِنَّهُ يَتَكَلَّمُ فِي حَالِ الْمَضْغِ، فَيُبْعِيعُ كَالْجَمَلِ، وَلَا يَكَادُ يُفَسِّرُ كَلَامَهُ خُصُوصًا مَعَ كِبَرِ اللَّقْمَةِ.

وَأَمَّا الْمَفْرِقِعُ: فَهُوَ الَّذِي لَا يَضْمُ شَفْتَيْهِ عِنْدَ الْمَضْغِ، فَيَسْمَعُ لِأَشْدَاقِهِ صَوْتَ مِنْ بَابِ دَارِهِ، وَهُوَ مِنْ عِيُوبِ الْمُؤَاكَلَةِ، وَالْأَحْسَنُ أَلَّا يَسْمَعَ صَوْتَ الْأَكْلِ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَى الْأَكْلِ.

وَأَمَّا الدَّفَاعُ: فَهُوَ الَّذِي إِذَا جَعَلَ اللَّقْمَةَ فِي فِيهِ؛ أَدْخَلَ مَعَهَا بَعْضَ سَبَابَتِهِ كَأَنَّهُ يَدْفَعُهَا بِهَا.

وَأَمَّا اللَّطَّاعُ: فَهُوَ الَّذِي إِذَا اسْتَوْعَبَ مَا فِي الْإِنَاءِ؛ لَطَعَهُ بِأَصَابِعِهِ.

وَأَمَّا اللَّحَّاسُ: فَهُوَ الَّذِي يَلْحَسُ أَصَابِعَهُ، لِيَمِيطَ عَنْهَا وَدَلَ الطَّبِيخِ قَبْلَ أَنْ يَفْرَغَ مِنَ الْأَكْلِ، وَهُوَ مِنْ عِيُوبِ الْإِنَاءِ إِلَّا أَنَّهُ بَعْدَ الْفَرَاغِ مَبَاحٌ عَلَى الْإِنَاءِ إِلَى الطَّعَامِ، وَأَفْضَلُ الْحَالِينَ تَعَهُدُ الْأَصَابِعَ بِهَا يَمْسَحُ بِهِ كُلَّ وَقْتٍ كَمَثَرِ الْمَائِدَةِ.

وَأَمَّا الْمِعْطَاشُ: فهو الَّذِي إِذَا عَطَشَ، وَفِي فَمِهِ لَقْمَةٌ لَا يَصْبِرُ حَتَّى يَبْلَعَهَا ثُمَّ

يَشْرَبُ، بَلْ يُمْسِكُهَا فِي شِدْقِهِ ثُمَّ يَشْرَبُ الْمَاءَ، وَيَعَاوِدُ إِلَى مُضْغِهَا.

وَأَمَّا الْمُعَرِّضُ: فهو الَّذِي يُعَرِّضُ بِذِكْرِ مَا أَخْلَّ بِهِ رَبُّ الْمَنْزِلِ مِنَ الْأَطْعَمَةِ، وَلَوْ

فِي حِكَايَةِ يَوْرَدِهَا؛ فَإِنَّ ذَلِكَ نَوْعَ اسْتِصْغَارِ رَبِّ الْمَنْزِلِ إِنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى إِحْضَارِهِ، وَتَثْقِيلًا

عَلَيْهِ إِنْ تَكَلَّفَ إِحْضَارَهُ فِي الْوَقْتِ، كَمَنْ يَطْعَمُ الْأَرَزَ بِاللَّبَنِ؛ فَيَقُولُ: هَذَا الطَّعَامُ نَافِعٌ،

وَلَوْ كَانَ مَعَ الْعَسَلِ، وَمَعَ سَكْرٍ؛ كَانَ أَنْفَعُ وَأَسْرَعُ لِلْإِنْهَضَامِ وَكَثِيرِ التَّغْذِيَةِ، فَيَحْتَاجُ

رَبُّ الْمَنْزِلِ إِلَى إِحْضَارِ ذَلِكَ.

وَبَلَّغْنِي أَنَّ الْمَأْمُونَ طَلَبَ مِنْ عَلِيٍّ بْنِ هِشَامٍ أَنْ يَعْمَلَ لَهُ دَعْوَةً، وَلَمْ يُمْكِنَهُ الزَّمَانُ

الَّذِي تَمَكَّنَ فِيهِ أَنْ يَحْتَفِلَ لِدَعْوَةٍ، فَلَمَّا دَخَلَ الْمَأْمُونَ دَارَ عَلِيٍّ، شَاهَدَ مِنَ الْآلَاتِ

وَالْتَجَمَّلَ مَا حَارَ لَهُ؛ فَقَالَ: مَا أَظُنُّ أَنَّ رَجُلًا تَبْلُغُ مَرُوءَتَهُ وَنَبْلَهُ إِلَى مَا أَرَى، وَخَافَ عُمَرَ

ابْنَ مَسْعُودَةَ عَلَى عَلِيٍّ مِنَ الْمَأْمُونَ.

فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنْ عَلِيًّا شَعَرَ بِأَنَّا نَهْجُمُ عَلَيْهِ، فَاسْتَعِدْ لَنَا وَاسْتَعَارَ، فَلَمْ

يَفْطِنَ عَلِيٌّ بِمَقْصُودِهِ، وَظَنَّهُ يَذْهَبُ إِلَى الْإِنْتِقَاصِ بِمَرُوءَتِهِ، فَبَادَرَ وَحَلَفَ بِرَأْسِ الْمَأْمُونَ

إِنْ كَانَ اسْتِعَانُ بِأَحَدٍ فِي تَجَمُّلِهِ أَوْ اسْتِعَارُ شَيْئًا، فَلَمَّا جَلَسُوا عَلَى الطَّعَامِ، غَمَزَ الْمَأْمُونَ أَبَا

أَحْمَدَ وَلَدَ الرَّشِيدِ، فَقَالَ: أَشْتَهِي حُحًّا؛ فَقُلْتُ: صَحَافُ الْمَخِ، وَهُوَ يَأْكُلُ وَيَسْتَزِيدُ، فَلَمَّا

شَعَرَ الطَّبَّاحُ بِمَقْصُودِهِ، قَالَ: أَنْتَ فِي دَارِ عَلِيٍّ بْنِ هِشَامٍ، وَإِنْ هُوَ لَا قَصْدَ الْتَعْدِي عَلَى

مَرُوءَةِ سَيِّدِنَا وَنَبْلِهِ، وَإِظْهَارِ عِجْزِنَا عَنْ إِحْضَارِ مَا طَلَبُوهُ، وَقَدْ ذَبَحْتَ كُلَّ مَا كَانَ

عِنْدِي، وَمَلَأْتَ الصَّحَافَ بِمَخِّهِ، وَهُمْ غَيْرُ مُقْتَنِعِينَ، وَلَا يَمْلَأُ عَيُونَهُمْ إِلَّا مَخُّ الْمَهْرِيِّ،

وَكَانَ لِعَلِيٍّ مَهْرِي تَسْبِقُ الرِّيحَ، قَدْ اشْتَرَاهُ بِعَشْرَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ، فَقَالَ لَهُ: مَا أَنْتَ ظَارِكُ بِهِ؟

قَالَ: أَسْتَأْذِنُهُ؟ قَالَ: لَيْسَ عِنْدَنَا وَقْتُ إِذْنٍ، وَبَادَرَ الطَّبَّاحُ إِلَى الْفَصِيلِ وَذَبَحَهُ، وَخَلَّصَ

عظامه، وصلفها، وخلّص المخ، وصار يمدّهم بصحاف المخ، وهم يأكلون، وأبو أحمد يستزيد إلى أن خجل المأمون، وغمز أبا أحمد فأمسك.

والنَّفَّاح: هو الَّذِي يتناول اللقمة الحارّة، فينفخها بفيه ابتغاء تبريدها، وكان سبيله الكفّ عن الطَّعام إلى أن يمكنه تناوله.

وأَمَّا الممتدُّ: فهو الَّذِي يأكل من صحفة بعيدة عنه، فيحتاج إلى مدّ باعه، والتزحزح لها.

وأَمَّا المزفّر: فهو الَّذِي إذا استدعى الماء في حال الأكل، تناول عروة الشربة بأصابعه الملوثة بالطعام؛ فيزفّر الشربة، والأدب في هذا أن يمسح أصابعه بالمتزر ثم يتناول بالخنصرين والبصرين.

وأَمَّا المقرّز: فهو الَّذِي يتحدث على المائدة بما تسمثر به نفوس مؤاكليه من سمّعه بذكر أخبار المرضى والقَيْح والبراز والمخاط، وما شاكل ذلك، والَّذِي يكثر من التنخُّع، والبصاق على الطعام.

وأَمَّا العائب: فهو الَّذِي ينبّه على بعض عيوب الطَّعام؛ فيقول: هذا شواء قد أحرقه الشَّواء، وهذه هريسة جيدة لولا أنّها سمراء، وهذا طبيخ كثير الملح.

وأَمَّا المستبدّ: فهو الَّذِي يستبد بالملعقة دون مؤاكليه أو يغيّرهما ممّا يجري هذا المجرى.

وأَمَّا المهمل: فهو الَّذِي لا يراعي جاره الجالس إلى جانبه، والأدب أن يؤثره ببعض ما يستطاب من قطع اللحم، وأن يعرض عليه الشُّرب عند تناوله الشربة.

فأَمَّا الرئيس: فمن أدبه في المؤكلة تقديم النّوالات إلى مؤاكليه.

وأَمَّا الجَمَلِيّ: فهو الَّذِي من خشيته من تنقيط المرق على أثوابه يمدّ رقبته، ويتناول إلى قُدّام كالجَمَل حتى يقطر ما ينقط من فيه على المائدة أو المتزر.

وأَمَّا المخرب: فهو الَّذِي إذا أكل من صحفة لم يبق فيها سوى العظام، وذلك من العيوب.

وَأَمَّا الْفُضُولِي: فهو الَّذِي لَا يَتِمَّالِك إِذَا رَأَى الْخُرُوفَ الْمَشْوِي حَتَّى يَتَنَاوَلَهُ بِيَدَيْهِ، وَيُمَزَّقُهُ إِرْبًا إِرْبًا، وَيُظَنُّ أَنَّهُ قَدْ أَحْسَنَ، وَيَرَى الْحَاضِرُونَ فِي ذَلِكَ تَثَاقُلَ عَلَى رَبِّ الْمَنْزِلِ، وَرُبَّمَا كَانَ يَرِيدُ يَنْفِذُ نَصْفَهُ الْوَاجِدَ صَحِيحًا إِلَى مَنْ يَرِيدُ، وَهُوَ بِالْجُمْلَةِ مِنْ عِيُوبِ الْمُؤَاكَلَةِ، إِلَّا أَنَّهُ مِنْ رَبِّ الْمَنْزِلِ حَسَنٌ.

وَكَذَلِكَ الَّذِي يَتَنَاوَلُ بِيَدِهِ مَلْحًا، فَيَضَعُهُ فِي الصَّحْفَةِ؛ لِأَنَّهُ رُبَّمَا أَفْسَدَهَا عَلَى مَنْ يُوَاكِلُهُ فِيهَا، وَالَّذِي يَتَنَاوَلُ صَحْفَةَ الْمَرِي، فَيَضَعُهُ عَلَى الْمُهْرِيَّةِ، وَرُبَّمَا كَانَ فِي الْحَاضِرِينَ مَنْ يَكْرَهُهُ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْتَدِهِ، وَسَبِيلُ الْمُتَأَدَّبِ أَلَّا يَتَجَاوَزَ إِصْلَاحَ مَا يَأْكُلُهُ. وَالطُّفِيلِي: فَإِنْ حَالَهُ مَعْرُوفٌ.

وَالْمَلْقُو: الَّذِي يَأْكُلُ اللَّقْمَةَ الْكَبِيرَةَ، فَيُرَى خَارِجَ فَكِّهِ كَالسَّلْعَةِ الْعَظِيمَةِ عَلَى فَكِّهِ مَقْدَارَ الْبَيْضَةِ، فَيَبْقَى كَأَنَّهُ الْمَلْقُو، وَلَوْ صَغَرَ اللَّقْمُ لِأَمِنْ ذَلِكَ.

وَأَمَّا حَاطِبُ لَيْلٍ: فهو الَّذِي لَا يَسْتَقْصِي تَأْمُلَ مَا يَأْكُلُهُ، فَرُبَّمَا أَكَلَ ذَبَابَةَ عَسَاهَا تَقَعُ فِي الْإِنَاءِ، وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، فَيَتَغَامَزُ عَلَيْهِ الْحَاضِرُونَ، وَإِنْ أَكَلَ سَمَكًا لَمْ يَسْتَقْصِ تَنْقِيَتَهُ مِنَ الْعِظَامِ قَبْلَ تَنَاوُلِهِ، فَتَرَاهُ فِي أَكْثَرِ الْأَوْقَاتِ قَدْ نَشَبَ الْعِظَمَ فِي حَلْقِهِ، وَأَشْرَفَ مِنْهُ عَلَى مَكْرُوهِهِ، وَقَدْ يَنْشَبُ أَيْضًا عِظَامُ دِجَاجٍ فِي الْحَلْقِ، فَيَبْقَى مَدَّةَ طَوِيلَةٍ يَمْتَنِعُ مِنَ الْأَكْلِ وَالشَّرْبِ وَيَذُوقُ الْعَذَابَ، كَمَا أَصَابَ الشَّيْخَ النَّجِيبُ يَوْسُفَ بْنَ يَعْقُوبَ رَئِيسَ هَرَايَانَ؛ فَإِنَّهُ شَارَفَ الْمَوْتَ مِنْ ذَلِكَ عَشْرُونَ يَوْمًا حَتَّى خَلَصَ الْعِظَمَ مِنْ حَلْقِهِ.

وَالنَّهْمُ: هُوَ الَّذِي يَأْكُلُ لَقْمًا دَرَاكًا، وَيَتَأَخَّرُ الْجَمَاعَةُ عَنِ الْمَائِدَةِ، وَهُوَ عَلَى حَالِهِ.

وَأَمَّا الْحَامِدُ: فهو الَّذِي يَحْمَدُ اللَّهَ فِي وَسْطِ الطَّعَامِ جَهْرًا كَأَنَّهُ يَتَسَبَّبُ فِي ذَلِكَ إِلَى

تَنْبِيهِ الْحَاضِرِينَ عَلَى الْكَفِّ عَنِ الْأَكْلِ.

كَمَا حَكَى جَحْظَةُ الْبَرْمَكِيُّ عَنْ نَفْسِهِ قَالَ: أَكَلَ عِنْدِي بَعْضُ الرِّجَالِ فَسَمِعَنِي،

وأنا أحمد الله في وسط الطعام لشيء خطر ببالي من نعمه التي لا تحصى، فنهض، وقال: أعطي الله عهداً، إن عاودت، وما معنى التَّحَمَّدُ في هذا الموضع؟ كأنك تريدُ تعلِّمنا أننا قد شبعنا، ثم مال إلى الدَّوَاة؛ فكتب:

وحمداً لله يَحْسُنُ كل وقتٍ ولكن ليس في وسط الطعام
لأنك تُحْشِمُ الأضيافَ منه وتَأْمُرُهُم بِإِسْرَاعِ الْقِيَامِ
وتؤذِنُهُم وما شَبِعُوا بِشَيْعٍ وذلك ليس من خُلُقِ الكرام^(١)
وأما المَبْقَى: فهو مثل رجل دعاني يوماً، وأحضر على الطعام دجاجةً مع
صحفات، وفي بيته ثلاث دجاجات سمان مسموطة معلقة؛ فكانه أبقى عليها إذ
صغرت هِمَّتُهُ عن طبخ كلِّها حضر عنده، ومثل من يُقَدِّم طعاماً قليلاً لا يكفي
الحاضرين، واللحم في داره معلق بإزاء إخوانه.

ويُروى أنَّ رجلاً دعا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام؛ فقال: «آتيك على ألا
تدَّخِرَ ما عندك، ولا تتكلَّفَ لنا ما ليس في وسعك».

وأما المستظهر: فمثل بعض الأغنياء؛ فإنه اعتذر بترك الحفل بعذر، ما حسن
قط الاعتذار بمثله، وذلك أنه قال: ما يمنعني عن الاحتفال إلا الاستظهار، ف قيل:
وكيف ذلك؟ فقال: أكره أن أحتفل؛ فيتأخَّرَ عني من أدعوه، إما من عمد أو عائق،
فأكون قد تكلفتُ شيئاً لم يُنتفع به.

فقال في ذلك بعض إخوانه:

إذا كنت لا تدعي الاحتفال إلا لأنك تستظهر

(١) الأبيات ذكرها الحصري القيرواني في «زهر الآداب وثمر الألباب» ص (٩٢١، ٩٢٢).

فلا تدعونَ أحدًا بتهٍ فهذا هو النظر الأوفر

ولا سيما أنا من بينهم فيني وحقك لا أحضر^(١)

وكان آخر لا يشرع في شيء من آلة الدعوة حتى يحضر إخوانه، ويأمن تأخرهم، فحينئذ يأمر بإصلاح ما يحتاج إليه بمقدار ما قد عرفه، فلا يلحق طعامهم حتى يتصرم يومهم، ويضرم نار الجوع في أحشائهم.

فقال بعضهم في ذلك:

خَاف الضِّيَاعُ عَلَى شَيْءٍ فَعَجَّلَهُ مِنْ الْمَطَاعِمِ إِنْ إِخْوَانَهُ ثَقُلُوا

فليس تعلقوا على الكانون برمته حتى ترى أنهم في البيت قد حصلوا^(٢)

وحُكي عن بعض البخلاء أنه دعا قومًا، فابتاع لهم جديًا، فأشفق من أن يذبحه، ولا يحضر القوم، فحضر إلى الجدي فنوره، وعمل على أنهم إن حضروا ذبحه، وأحضره كهيئة المسموط، وإن تأخروا استبقاه إلى يوم حضورهم، فانتهى إليهم الخبر، فدعوه إلى منزل أحدهم، واحتالوا على الجدي حتى ظفروا به منورًا؛ فأخجلوه وفضحوه.

وأنشد بعضهم في ذلك:

ومستظهر مفرط الاحتياط بخيل بمذهبه مغتبط

دعامة بعض إخوانه على غير عمد ولكن غلط

(١) انظر: «البصائر والذخائر» لأبي حيان التوحيدي ص (٦٩٠).

(٢) انظر: «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء» للراغب الأصفهاني ص (٢١٧٤)،

و«قطب السرور في أوصاف الخمور» للريق القيرواني ص (٤٢٤).

وجاء بجدي كبعض الجداء أعظم من جسمه جسم قِط
فقال لغلمانهِ نَوِّروه على أنه أجردٌ ممْتَط
فإن جاء من نتقي أن يجيء رأى أنه ذابحٌ قد سُمِط
والأمناء على جدنا وكان حقيقةً بأن يُرتبط^(١)

وأما المستهلك: فهو الذي يفسد أسنانه، ويهلك أضراسه بشرب الماء عَقِيب
الخلوى؛ فإن جلسائه يعيرون عليه ذلك، وكذلك شرب الماء الصَّادق البرد في الشتاء
عَقِيب الحارَّة إلا من إبريق، وكذلك الشُّرب على الهرائس والأكارع، وما جرى مجراها؛
فليس من أدب المؤكلة.

وأما المحتَمي: فهو ربُّ المنزل إذا صغر اللُقمة جدًّا، وتباعد بينهما طويلاً،
وحكي بفضل الحمية حكايات، وأشار على من يشتكي وجعًا بالحمية؛ فهو في ذلك
منحل.

وفي مثل ذلك يقول الأخطل:

حسن أكل الفتى يدل على إيناسه ضيفه وبسط أكياله
وتراه يقل منه فيدعو ذاك أضيافه إلى تبخيله^(٢)

وأما الموحِش: فهو ربُّ المنزل الذي يحرز على غلمانهِ أو يهدد طباخهِ أو يضرب
في دارهِ جارية أو غلامًا عند اجتماع ندمائه.

وأما المتشكِّي: فهو ربُّ المنزل إذا اشتكى السنة غلاء الأسعار، واعتذر إلى

(١) انظر: «قطب السُرور في أوصاف الخمور» للرقيق القيرواني ص (٤٢٥).

(٢) انظر: «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء» للراغب الأصفهاني ص (٢١٥١).

ضيفه شدة ضائقته، وأقبح ذلك في حال الأكل أو قبله.

وحكى أبو العيناء قال: استضاف بي بعض العرب؛ فلما حضر الطعام، وكانت سنة مجدبة، فاعتذرت إليه غلاء الأسعار، وأكثرْتُ من ذلك؛ فرفع يده قبل أن يأكل، وقال: ليس من المروءة أن تذكر غلاء الأسعار للأضياف عند حضور الطعام؛ فاعتذرتُ إليه، وناشدته الله أن يأكل، فلم يفعل، ورحل من الغد، ولم يأكل طعامي. وأما المستأذن: فهو الذي يستأذن ضيفه في إحضار طعام.

كما قال أبو العلاء المعري:

لَا تَسْأَلِ الضَّيْفَ إِنْ أَطْعَمْتَهُ ظَهْرًا بِاللَّيْلِ هَلْ لَكَ فِي بَعْضِ الْقُرَى أَرْبُ
فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ قَوْلٍ يُلَقَّنُهُ لَا أَشْتَهِي الزَّادَ وَهُوَ السَّاعِبُ الْحَرْبُ
قَدَّمَ لَهُ مَا تَأْتِي لَا تُؤَامِرُهُ فِيهِ وَلَوْ أَنَّ الطَّرِثُوثُ وَالصَّرَبُ^(١)

وأما المملوق: فهو الذي يتخذ من الخبز ملاعق يحتمل بها المرق، وقلما يسلم من تلويث يده وثيابه أو لحيته.

وأما المتناول: فهو الذي يلح بالنظر إلى ما بين يدي غيره من الطبايح؛ فكأنه يتناول إليها أو يتمناها.

والمنقُط: معروف.

وأما المُرشُش: الذي يتناول القطعة القوية من اللحم بيديه جميعاً، ويروم أو يلوي فخذ دجاجة لينفك مفصله؛ فيرش على جاره وجلسائه.

والمصاص: الذي لا يتمالك إذا رأى عظماً عن استخراج حُجّه ودقّه ومصّه.

(١) الأبيات من البسيط، وهي لأبي العلاء المعري في ديوانه من قصيدة البيت الأول مطلعها.

وأَمَّا المتسابق: فهو الَّذِي يمسك اللقمة في يده قد أعدها قبل أن يمضغ الَّتِي فِيهِ، فلا يُرى فكُّه خالياً عن مضغ، ولا يده خالية عن لقمة يمسكها.

وأَمَّا الموزع: فهو أيضاً فضولي، وهو الَّذِي يفرق معظم الطَّعام على غلمان ربِّ المنزل، وليس ذلك من أدب المؤاكلة.

وأَمَّا الموفر: فهو الَّذِي يحضر في أول طعامه ما يرخص عليه كالخل والبقل، ويطيل الأكل، ويؤخر إحضار الأطعمة الجيدة إلى أن يشبع الحاضرون ممَّا هو دونها توفيراً.

ومرَّ بعضهم بجدي سمين؛ فقال: ليت شعري لغلمان من هذا؟ فسئل عن معنى هذا القول؛ فقال: يُؤخَّر أصحابنا الجداء، فلا يصل إلينا، فيفوز بها الغلمان. وخُبرت أنَّ بعض المتقدمين كانوا يذكرون ما يصنع لهم من الطَّعام في رقعة، ويعرض على من يدعى؛ فمن استطاب شيئاً وقرَّ نفسه عليه.

وأَمَّا المحدِّث: فهو ربُّ المنزل يشاغل مؤاكله بالحديث المتصل الَّذِي يستدعي الجواب، ويلهيهم الإصغاء عن الأكل، وذلك معدود من اللؤم.

وأَمَّا الحديث الَّذِي لا يستدعي جواباً، ولا يورد على عجلٍ بل يتأن كثيراً، بحيث يحلل عشرة كلمات لقمة؛ فهو صاحب المنزل، والمائدة أحسن من الزائر المدعو. كما قال بعضهم:

صَادَفَ زَادًا وَحَدِيثًا مَا إِشْتَهَى

إِنَّ الْحَدِيثَ طَرَفٌ مِنَ الْقَرَى

ولا محالة أن الآكل إذا اشتغلت همّته بالإصغاء إلى حديث حسن أو استماع شيء يعجبه أو يهّمه أمره، وهو في خلال الإصغاء مقبلاً على الأكل، كثر مقدار ما يحصل له من الطّعام.

ويستجاد لبعض المحدثين:

كَيْفَ احْتِيَائِي لِبَسَطِ الضَّيْفِ مِنْ خَجَلٍ عِنْدَ الطَّعَامِ فَقَدْ ضَاقتْ بِهِ حِيلِي
أَخَافُ تَرْدَادَ قَوْلِي كُلِّ فَأَحْسِمُهُ وَالصَّمْتُ يُنْزِلُهُ مِنِّي عَلَى الْبَخْلِ^(١)

وأما المستأثر: فهو ربُّ المنزل يدعو رجلاً؛ فيؤاكله ثم يغلب عليه النّهم فيستأثر بأطياب الطّعام دونه، وإن اتفق الطّعام لا يكفيهما جميعاً كان شبعه أهمّ عنده من شبع ضيفه.

وفي عكس هذا المعنى يقول مُتَمِّم بن نويرة:

لَقَدْ كَفَّنَ الْمَنَهَالُ تَحْتَ رَدَائِهِ فَتَى غَيْرَ مِيطَانِ الْعَشِيَّاتِ أَرْوَعًا^(٢)

يريد: أنّه كان يؤثّر الأضياف بالزاد على نفسه، ولا يستوفي منه شبعه. وقد قال المبرد: إنّهُ كان يُؤَخِّرُ العشاء إلى الليل انتظاراً لضيّف أو طارق يؤاكلة. وأحسن ما قيل في إيثار المؤاكلين قول حاتم طي:

وَإِنِّي لِأَسْتَحْيِي صَحَابِي أَنْ يَرَوْا مَكَانَ يَدِي فِي جَانِبِ الزَّادِ أَقْرَعًا

(١) البيت من البسيط، وهو لدعبل الخداعي في «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء» للراغب الأصفهاني ص (٢١٥٢).

(٢) البيت من الطويل، وهو لمُتَمِّم بن نويرة البربوعي في «الآمال» لليزيدي ص (٢٧)، و«المفضليات» للمفضل الضبي ص (٢١٩).

وَأِنَّكَ مَهْمَا تُعْطِ بَطْنَكَ سُؤْلُهُ وَفَرَجَكَ نَالَا مُتَّهَى الدِّمِّ أَجْمَعًا^(١)

وحكي عن الرَّشيد عليه السلام من كرم المجالسة ولطف البرِّ في المؤاكلة على ما يتجاوز هذا كله، وهو أن الفزاري قال: دخلتُ عليه بالرقعة، وهو في قصر الخشب، ولم يكن معنا ثالث غير من يقوم بين يديه من خاصة حشمه، فتحدثنا ملياً ثم أوماً إلى بعضهم، فجاءوا بطبق كبير مغطى، فوضعه بين يديه، وأدخل يده فيه من غير أن يرفع المنديل، فاستخرج رطبة، فأكلها ثم استخرج أخرى، فأوماً بها نحوي، فقمت فتناولتها، وقبّلت يده ثم أمره برفع المنديل؛ فلما رُفِعَ، فلم أر في الطَّبَق شيئاً؛ فقال: إِنَّهُ كَانَ أَهْدِي لَنَا فِيهِ رطب ولات، ولم يكن بقي منه غير ما رأيته، فعلمت أَنَّهُ أمر بتغطيته؛ لئلا أرى فِعْلته، فأمتنع من أكل الرُّطبة الَّتِي ناولنيها أوفرها عليه.

وَأَمَّا الْمُتَعَدِّي: فهو الَّذِي يَأْكُل ما بين يدي غيره.

وَأَمَّا اللَّقَاف: فهو الَّذِي يَلْفُ لِنَفْسِهِ لَفَةً بَعْدَ لَفَةٍ مِنَ الْخَبْزِ كُلِّ وَاحِدَةٍ نَحْوِ ثَلَاثِ رَغِيفٍ، وَيَعْضُّهَا فِي عِدَّةِ مَرَاتٍ؛ فَهُوَ بَيْنَ الْإِخْوَانِ غَيْرِ مُسْتَحْسِنٍ أَنْ يَفْعَلَهُ الْمَرْءُ لِنَفْسِهِ، لَكِنْ يَحْسُنُ أَنْ يَفْعَلَهُ رَبُّ الْمَنْزِلِ لغيره، وَخُصُوصًا لِلنِّسَاءِ؛ فَإِنْ اعْتَمَدَ ذَلِكَ مَعَهُنَّ مِمَّا يَقْرُبُ إِلَيْهِنَّ، وَخُصُوصًا بَعْدَ امْتِنَاعِهِنَّ مِنَ الْأَكْلِ.

وَالْعَضَّاض: هُوَ الَّذِي يَعْضُّ أَحَدَ مَوَاكِلِهِ، وَلَا يَجِدُ مَاءً لَغَفْلَتِهِ عَنْ إِعْدَادِ الْمَاءِ

قَبْلَ الْأَكْلِ.

وَالْمَتَلَفَّت: الَّذِي لَا يَزَالُ يَتَلَفَّتُ إِلَى النَّاحِيَةِ الَّتِي يُنْقَلُ عَنْهَا الطَّبِيخُ كَأَنَّهُ يَتَوَقَّعُ طَبِيخًا آخَرَ؛ فَإِذَا رُفِعَ الطَّعَامُ أُلْفِيَ مَتَلَفَّتًا إِلَى صَحْفَائِهِ كَأَنَّهُ يُشَيِّعُهَا بِنَظَرِهِ، فَيُوهِمُ مَنْ يَرَاهُ أَنَّهُ لَمْ يَشْبِعْ مِنْهَا.

(١) البیتان من الطویل، وهما لحاتم الطائي في «البيان والتبيين» ص (١٣٨٠)، و«الشعر والشعراء»

والنَّارُ: هو الَّذِي يُفْرط في القهقهة، واللُّقْمَةُ في فيه، فيشاهد جلساؤه اللقمة ممضوغة داخل شذقه، ويتناثر منها ما استحق على ما بين يديه.

والبَقَّارُ: هو الَّذِي يُجْرَج لسانه كالبقرة وقتًا بعد وقت، للحس شفثيه وخارج فمه.

وأَمَّا المَغْتَمُّ: فهو النديم الَّذِي إذا عرض عليه الرئيس غسل يده بحضرته تَحْمُلًا اغْتَمَّ ذلك، وبادر إليه، ولو أتى ذلك، وغلب الأدب؛ لَخَفَّ على القلب، واستفاد الحظوة، وأَمِنَ التَّقْيِيلَ.

ولو اصطَلَح النَّاسُ على الاعتزال لغسل الأيدي مع كل طبقة حتَّى لا يرى بعضهم بعضًا، لكان ذلك أَلْيَقَ الطَّرِيقِ، وأشدَّ مكانًا، لما يحتاج إليه من استقصاء الغسل والتنظيف، وإحاكة الأنامل في اللهوات، والخلال في الأسنان، وما شابه ذلك، يَمَّا لا يشك أحد أن ستره عن النَّاسِ مَحَبٌّ ومُبْغِضٌ، ورفيع ووَضِيعٌ، أحمد من اطلاعه عليه، وأنَّ المرء يتأذى بأن يرى ذلك من نفسه، فكيف من غيره.

وحُكِيَ أن الحَجَّاجَ أصبح جائعًا؛ فقال لأصحابه: ما خُبِرَ الغذاء؟ فقال ابن القرية: بواكره أيها الأمير، فقال: ولم ذلك؟ وهل ذلك في كل أوان؟ فقال: نعم، إن كان الزمان شتاءً؛ فليطول الليل، وهضم المعدة، وإن كان قِيظًا؛ فليبرد الماء، وقلَّةُ الذُّبابِ، رجُلٌ رجلاً، فقال له: هل لك أن تصير إلى منزلي، فنأكل خبزًا وملحًا؟ فظن ذلك القول منه على المجاز، فمشى معه، فلم يزده على الخبز والملح شيئًا، فبينما هما يأكلان إذ وقف بالباب سائل، فردَّه صاحب الدار مِرَارًا، فلم يبرح وألَحَّ عليه، فقال: إما انصرف، وإلا خرجتُ إليك فكسرتُ رأسك، فقال له المدعو، وهو يسمع: يا هذا انصرف؛ فإنك لو عرفت من صدق وعيده ما عرضت له.

وقد حُكِيَ عن محمد بن عبد الملك، قال: أَعِين على أحمد بن أبي داود بأشياء لم أعن مثلها، حتَّى أنه أَعِين عليَّ في تمكّن حاله عند الواثق بأنَّه كان طيب الأكل، طحون الضرس، هضوم المعدة، وكنت على خلاف ذلك، فحضرته يؤاكل الواثق، وليس معهما ثالث، ودعاني الواثق إلى الطَّعام، فأقبلت أنقَرَّ على حسب عادتي، وخمود شهوتي، وهما

يتباريان في تكبير اللُقمة، وجودة الأكل، فلما رأى ذلك منِّي أحمد، قال: يا أمير المؤمنين، ما جلوس هذا المحتمي معنا يحصي علينا اللُقَم؟

إمّا أكل كما نأكل فوقاً حقّ المؤكلة، ولم يحشمنّا، وإلا نهض، فيتفرّد بمؤكلة أمير المؤمنين من يحسن حضورها، ويقابلها بما يلائمها، فقال الواصل: قد صدق أحمد، فاختر أو دَع؛ فما نهضتُ.

لبعض الشعراء يوصي طُفليّاً:

وإذا القطائف جاء والفالودج يصبو الفؤاد إليه أو يتمنع

فاحسر كما منك عن ذراعك كله حتى كأنك طول شيء تذرع

ثم افترسه فريسة الليث الذي هو منذ شبع في الفلاة مجوع

وإذا ضعفت فغنّهم متمثلاً وقفاك في أيديهم يتقطّع

ومجّلي للشماتين أريهم أني لريب الدهر لا أتضعع^(١)

من كان تعجبه الجداء الرضع من غير حاصله فلم لا يصفع

وحكي أنه كان على سُفرة بعض الكرام مكتوباً هذه الأبيات:

ألا كُلْ هنيئاً ولا تجتشم فما الاجتشم فعال الكرم

فما الجود والفضل إلا لمن تفضل يوماً بنقل القدم

(١) البيت من الكامل، وهو لأبي ذؤيب الهذلي في «الحماسة المغربية» للجراري ص (٤٣١)، و«العقد

الباب الثالث من الجملة التاسعة في أدب الشُّراب

مجلسُ الشُّرابِ مجمعُ النَّدماءِ والأصحابِ، ومَوسمُ مؤانسةِ الإخوانِ والأحبابِ، ومعدنُ اللذاتِ والمسراتِ، وله آدابُ أهمُّها سبعة عشر أدبًا:

الأوَّل: تحرُّزُ ربِّ المنزلِ من إحضارِ نبيذٍ قد تسلطَ عليه الهواءُ أو فُتِحَ رأسُ إنائه منذ مدة، أو قد مُزجَ يومًا أو أكثره ممزوجًا أو في طعمه مرارة؛ فإنَّ النَّاسَ إنَّما اجتمعوا على الخمرة؛ لأنَّها تفرِّح، والخمر الَّذي قد فُتِحَ منذ زمان قَلَّ ما يفرِّح، والَّذي قد تسلطَ عليه الهواءُ أو بطولِ مكثه ممزوجًا بحيث يتغير طعمه يولِّدُ الغمَّ والفكر، خصوصًا إذا مال إلى شيء من الحموضة.

فإنَّ المعاشرينَ يحوِّزون في الطَّعامِ، ولا يحتملون كدَرَ الشُّرابِ، ويشربون الجيِّدَ الرَّائِقَ من الشُّرابِ، فيعفي عن صغير الطَّعامِ، والكثير من غليظ الشُّرابِ يفسد ما يولِّع به من شريف الطَّعامِ زمانَ المشاربة أطول من زمانِ المؤكلة.

قال أبو نواس في مدح رائق الشُّرابِ، وذم غليظه:

مِنْ شَرَابٍ أَلَذٍّ مِنْ نَظَرِ الْمَعِ شَوْقٍ فِي وَجْهِ عَاشِقٍ يَابِتِ سَامٍ
لَا غَلِيظٌ تَنْبُو الطَّبِيعَةُ عَنْهُ نَبْوَةُ السَّمْعِ عَنْ غَلِيظِ الْكَلَامِ^(١)

وقال البحتري:

إِذَا صُوبَ مُسَوَّدَةٌ فِي الزُّجَا جِ فَكَأْسُ النَّدِيمِ بِهِ مَحَبَّرَةٌ^(٢)

(١) البيتان من الخفيف، وهما لأبي نواس في «اللطيف واللطائف» لأبي منصور الثعالبي ص (١٠٩)، و«المحب والمحبوب» للسري الرفاء ص (٨٨٢).

(٢) البيت من المتقارب، وهو للبحتري في «التذكرة الحمدونية» لابن حمدون ص (٥٦٧٦)، و«التشبيهات» لابن أبي عون ص (٣٠٥).

وقال أحمد بن الرومي:

عَلَّنِي أَحَدُ مَنْ الدُّشَابِ شَرِبَةً بَغَّضَتْ قِنَاعَ الشَّبَابِ
لَوْ تَرَانِي فِي يَدِي قَدْحُ الدُّوْ شَابَ أَبْصَرْتَ بَازِيَارَ غُرَابٍ^(١)
ولحظة البرمكي في المعنى:

لأبي الفضل نبيذ جيّد ليس يُعَابُ
هو في حال طعام وهو في حال شراب

والثاني: ألا يُحْضِرُ نَبِذِينَ جَيِّدًا وَرَدْنًا، يَخْصُ بِالْجِدِّ قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ؛ فَإِنْ ذَلِكَ مِمَّا
يُبْخَلُّ بِهِ رَبُّ الْمَنْزِلِ وَيَسْتَلَامُ بِهِ مُشَارِبُوهُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِمَّا ذَمَمْنَا مِنْ تَلْوِينِ الشَّرَابِ إِلَّا لَمَّا
سَارَ فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ الشَّاعِرِ:

رَأَيْتَ نَبِذِينَ فِي مَجْلِسٍ فَقُلْتَ لِإِخْوَانِنَا مَا السَّبَبُ
فَقَالُوا الَّذِي نَحْنُ فِي بَيْتِهِ يَفْضُلُ قَوْمًا بِسُوءِ الْأَدَبِ^(٢)
وقال العطوي:

نَبِذَانِ فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ لَا يُثَارُ مَثَرُ عَلَى مَعَسَرٍ
فَلَوْ كُنْتَ تَفْعَلُ ذَا فِي الطَّعَا مِ لَزِمْتَ قِيَاسَكَ فِي الْمَسْكَرِ^(٣)

(١) البيت من الخفيف، وهو لابن الرومي في «التذكرة الحمدونية» لابن حمدون ص (٥٦٧٤)،
و«التشبيهات» لابن أبي عون ص (٣٠٤).

(٢) البيتان في «الجلس الصالح» للمعافى بن زكريا الجريري ص (٢٢٦٦)، و«قطب السرور في
أوصاف الخمر» للرقيق القيرواني ص (١٢٢).

(٣) البيت للعطوي في ديوانه من قصيدة البيت الأول مطلعها، وبلا نسبة في «الأغاني»
(٨/٥٣٢٣)، و«قطب السرور في أوصاف الخمر» ص (١٢١).

والثالث: ألا يغفل ربُّ المنزل عن عرض الطَّعام على مَنْ يدخل عليه في مجلس الشُّرب قبل عرض الشَّراب عليه لا سيما إذا صادفه الداخل على الشُّراب، ولم يُدع إليه، فربَّما وافقت هذه الحالة منه جوعًا لا يَحتمل الشُّرب إذ في ذلك من التَّعرض للمغص والمرض ما يُحترز على الإخوان من مثله.

والرابع: أن يعفَى ربُّ المنزل عن الشُّرب من يستعفيه، ولا يلح عليه بالتشفُّع، ولا يثقل عليه بالنزول عنده إلا أن يتفرَّس أن امتناعه يكون ارتقَابًا؛ لأنَّ يُلزم بذلك، فالناس أطوار، ورُبَّ صالح تَقِيٍّ في ثياب فاجر، وبالضَّد.

وما أحسن قول أبي نواس:

ولست بقابل لنديم صدق وقد دار الشُّراب بوجنتيه

تناولها وإلا لم أذقها فإخذها وقد ثقلت عليه

ولكنني أصدُّ الكأس عنه وأتركها بغمزة حاجبيه

فإن مدَّ الوساد لنوم سُكرٍ دفعت وسادتي أيضًا إليه^(١)

وإذ يحتمل أن يكون للمستعفي من الشُّرب مهمل لا يمكنه دفعها، وهو يستبقي

لها.

والخامس: أن يعفَى عن الشُّرب من استعفى، ويغير الدور عمن استقال، ولا يلفت إلى بغيض أمر بلزوم النظام؛ فإن اختار المستقيل من الدور عين الجهل إذا مزجه النَّاس لا يتناوى في احتمال الشُّرب والأكل؛ لأنَّ الإنسان شِبال المزاج مستعد لحدوث الأعراض المانعة عن الشُّرب؛ كالمغص والشري والخوانيق.

(١) الأبيات لأبي نواس في «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء» ص (٢١٢٥)،

و«التذكرة الفخرية» ص (٤٩٧).

وأصل ترتيب الشُّرب على الدور إنَّما جعل ليكون عرض الكأس على حاضريه بالعدل والسَّواء والقسط؛ فيؤمن نسيان الساقى أحدهم، وإغفاله من تحتشمه المجلس عن المطالبة بالكأس.

قال عمرو بن معدي:

صددتِ الكأس عَنَّا أمَّ عمرو وكان الكأس مجراها اليميناً^(١)
والغرض من ألا يغفل الساقى عن أحد الحاضرين أن يتساووا في الشُّرب،
والغرض من ذلك تساويهم في النشوة في السرور الَّذي يحدثه، والأخبار بمعزل من
اجتلاب المسرات، وتوخي الأفراح.

وكما أن من النَّاس من يشعر نفسه أن القليل من المسكر يلحقه بالمنتشين، وإذا
تجاوز ذلك سبقهم إلى السُّكر، كذلك أيضًا من النَّاس من لا ينشيه القليل، ولا يسكره
الكثير، فلا إكراه على الأوَّل، ولا منع على الثاني، والأحسن أن يشرب الأوَّل بالصَّغير،
والثاني بالكبير، والأوَّل أن يكثر مزاج قدحه وأن ينقصه، والثاني أن يصرفه ويدهقه.
وقال السهمي بن عبد الرحمن في ظرفاء الحجاز:

إذا أنت نادمت العتير وذا الندى جبيرًا ونازعت الزجاجة خالدًا
أمنت بحمد الله أن تُقرع العصا وأن توقظوا من نومة السُّكر راقداً^(٢)
وقلَّما سمعنا بأحد يبين منه، ومنه كثيرًا محل الأغلب عليه إجبار النديم على

(١) البيت من الوافر، وهو لعمرو بن معدي كرب الزبيدي في «الأغاني» (١٥/١٠٠٦٨)، و«معجم الشعراء» للمرزباني ص (١٦).

(٢) البيت بلا نسبة في «الأغاني» (٢٠/١٣٤٤٢)، و«الأشربة وذكر الاختلاف فيها» لابن قتيبة الدينوري ص (٢٥).

الشُّرب، والحلف عليه، واستثقاله واستزادته إذا تَبَّى وامتنع، ولا عيب على النديم في السكر إذا كان مجبراً عليه بل يغفر له فرطاته، ويقلل فيه عثراته.

كما قال العطوي:

ومن حَكَمَتَ كأسك فيه فاحكم له بإقالية عند العشار^(١)

والسادس: ألا يستعفي من الدور مَنْ يكون قادرًا على الشُّرب؛ فإن الحرفاء تشق عليهم تخلف الحريف عنهم في الشُّرب، مع علمهم باستطاعته وقدرته عليه؛ لأنهم ينسونه إلى استبقاء حسه وعقله، لينفرد بالهزؤ بهم، وإحصاء فرطاتهم.

قال الحسين بن الضحاك:

على مدير الكأس حيث على الكأس ندبا

سأقول الدَّهر أحسنت وإن كنت مسيا

لست أستعفيك من حثك في السقي عليا

وجوّد بعضُ الكُتّاب في قوله:

ولست بمُستعفي من السكر صاحيا إذا كان يهوى أن أصير إلى السكر

ولكنني أسعى إلى السكرِ واثقا بما فيه إن أخطأت من سعة الصدر

فإن هو أعطاني سكرت ولم أكن لأكثر من شرب يزيد على القدير^(٢)

والسابع: أن يسقي كل حريف بما يوافقه من المزاج والمقدار، ولا يجاوز إلى ما يكرهه الشارب.

والثامن: المسارة لبعض الحاضرين استشعارًا، وإثارة معاتبات وعربدات؛ فهي

(١) البيت للعطوي في «التمثيل والمحاضرة» ص (٩١٠)، و«زهر الآداب» ص (٢٧١).

(٢) البيت الأول والثاني لأبي نواس في «قطب السرور في أوصاف الخمر» ص (٣٦٠).

مِمَّا يَكْرَهُ فِي مَجْلِسِ الْخَمْرِ حَتَّى كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ، بِحَيْثُ لَمْ يَعْتَرَفْ بِشَيْءٍ مِنْهُ، وَلَوْ نِيلَ مِنْهُ، وَكَتَمَانَ مَا تَبْدِيهِ النَّشْوَةِ مِنْ فَلَاتِ اللِّسَانِ، وَعَوْرَاتِ الْكِرَامِ، وَمَا يَبْدِيهِ الْمُتَكَلِّمُ.

قال علي بن الجهم:

وَالْقَوْمُ إِخْوَانُ صِدْقٍ بَيْنَهُمْ نَسَبٌ مِنْ الْمَوَدَّةِ لَمْ يُعْدَلْ بِهِ نَسَبُ

تَرَاضَعُوا دِرَّةَ الصَّهْبَاءِ بَيْنَهُمْ وَأَوْجَبُوا لِرَضِيعِ الْكَأْسِ مَا يَجِبُ

لَا يَحْفَظُونَ عَلَى السَّكْرَانِ رَزَلَتُهُ وَلَا يَرِيكَ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ رَيْبٌ^(١)

وقال آخر:

كَرِيمٌ يُمِيتُ السَّرَّ حَتَّى كَأَنَّهُ إِذَا اسْتَخْبَرُوهُ عَنْ حَدِيثِكَ جَاهِلُهُ^(٢)

والأصل في هذا ما حُكي عن المأمون في قوله: [الند بساط؛ فإذا رفع طووه]^(٣).

والعاشر: ألا يمازح أحد على الخمر من لا يمازحه، ولا يعبت بمن لا يعرفه.

والحادي عشر: قَلَّةُ الْعَبَثِ بِالنُّقْلِ إِلَّا بِمَا يَجِبِي بِهِ.

والثاني عشر: الامتناع عن الشُّرْبِ عَقِيبَ الطَّعَامِ؛ فَإِنَّهُ يَهْدِرُ الطَّعَامُ قَبْلَ

انتهضامه، ويتذرف به إلى العروق قبل تحلله، إلا إن انتظر إلى ذلك حضور من لا يمكنه مخالفتة؛ فيشرب حينئذ بالصَّغِيرِ.

والثالث عشر: التحرز من قول شيءٍ يثقل على ربِّ المنزل حين تستحسوا

السَّاحَةِ بِهِ.

(١) البيت من البسيط، وهو لعل بن الجهم في «الأغاني» (١٠ / ٦٧٨١)، و«التذكرة الحمدونية» ص (٥٦٨٦).

(٢) البيت من الطويل، وهو لكثير عزة في «نهاية الأرب في فنون الأدب» للنويري ص (٣٨١٠)، و«الأمالي» لأبي علي القالي ص (٧١٨).

(٣) هكذا في الأصل.

حكى أبو الفرج الأصبهاني: أن حمزة بن بيض كان من خلعاء عبد الملك بن مروان، وكان عبد الملك يعث به عبثاً شديداً، فوجّه ذات ليلة رُسُلَه إلى حمزة، وقال: خذوه على أي حال وجدتموه، فوجدوه يريد أن يدخل الخلاء؛ فقالوا: أجب الأمير، فقال: ويحكم، إني أكلت طعاماً كثيراً، وشربت نبيذاً حلواً، وقد أخذتني بطني، فأخذه فجهد على الخلاص منهم، فلم يقدر؛ فأتوا به إلى عبد الملك؛ فوجدوه جالساً في طارمة، وعنده جارية كان يتحفظاًها، وهو يبخر الند، فجلس عنده يحادثه، وهو يعالج ما هو عليه.

قال حمزة: فعرضت لي ريح؛ فقلت: أسرحها واستريح، فلعل تنتها لا يتبين مع هذا البخور، فأطلقتها، فغلب تنتها والله على الند، فقال: ما هذا يا حمزة؟ فقلت: علي عهد الله وميثاقه، وحلفت له أي ما فعلتها، وما هذا إلا من عمل هذه الفاجرة؛ فغضب، وخجلت الجارية، فما قدرت على الكلام، ثم جاءتني أخرى فسرحتها، فسطع ريحها، فقال: وما هذا ويلك؟! والله أنت الآفة؛ فقال: امرأته طالق إن كان فعلها، فقال: هذه اليمين لازمة لي إن كان فعلتها، وما هو إلا عمل هذه.

فقال: ويلك ما قصتك؟ قومي إلى الخلاء إن كنت تجددين حساً، فازداد خجلها وأطرقت، فسرحت أخرى، فسطع ريحها ما لم يكن في الحساب، فغضب عبد الملك حتى كاد يخرج من جلده، ثم قال: يا حمزة! خذ بيد هذه الزانية، فقد وهبتها لك، فقد نغصت عليّ ليلتي، فأخذت بيدها وخرجت، فلقيني خادم له، فقال: ما تريد تصنع؟ فقلت: أمضي بهذه، فقال: لا تفعل، فوالله ليبغضنك بغضاً لا يتنفع به أبداً، وهذه المائة دينار خذها، ودع الجارية؛ فإنه يتحفظاًها، وستندم على هبتها إياها لك، فقلت: والله لا نفقتها عن خمسمائة دينار، فلم يزل يزدني حتى بلغ بي مائتي دينار، فلم تطب نفسي على أن أضيّعها، فقلت: هاتها، فأعطانيها، وأخذ الجارية.

فلما كان بعد ثلاثة أيام دعاني عبد الملك، فلما قربت من داره لقيني الخادم؛ فقال لي: هل لك في مائة دينار، وتقول ما لا يضرك، ولعله ينفعك؟ فقلت: وما ذاك؟ قال: إذا دخلت عليه ادّعت أن الثلاث فسوات منك، ونسبتها إلى نفسك، وانضح ما قرفت به الجارية، فقلت: أفعل، فدخلت على عبد الملك، فقلت: لي الأمان حتّى أخبرك بما يسرُّك ويضحكك؟

قال: لك الأمان، قلت: رأيت ليلة ما جرى؟ قال: نعم، قلت: عليّ وعليّ، إن كان فسا الثلاث فسوات غيري، فضحك حتّى استلقى على قفاه، ثم قال: ويلك، فلم لم تخبرني؟ قلت: أردت بذلك خصالاً؛ منها أني قمت فقضيت حاجتي، وقد كان رسولك منعني ذلك، ومنها أني أخذت جاريتك، فقال: وأين الجارية؟ فقلت: والله ما برحت من الدار، ولا خرجت، وحدثته حديثي وحديث الخادم؛ فسراً بذلك، وأمر لي بصلة، وجاءني من الجارية مائة دينار؛ فما رأيت أغلّ من تلك الفسوات^(١).

والرابع عشر: التَّحَرُّزُ من مكر الخلفاء من مبايعة، أو معاملة على طريق المزاح؛ فهذه الحيلة أخذت من عبد الله بن جعفر الهاشمي الجارية التي هواها يزيد ابن معاوية، وقد سموه العاشق، فسألته عن حاله؛ فأخبرني أن أميراً شكّا بعد معاملة عامله، ثم والفه وقربّه واستعماله وواكله وشاربه، ثم ذاكره أمر جاريته، وكان عنده جارية تركية فائقة في الجمال.

قال: فسامني بيعها حين علم أن الخمرة قد استولت عليّ، فامتنعت من بيعها لكلفي بها، فأعانه الجماعة الحاضرون عليّ، وقَبَّحوالي مخالفته، وخدعوني حتّى بعته إياه بمائة دينار، فأنفذ من تسلمها في ليلة، وعند الصباح ندمت على ذلك، وبذلت الجهد في

(١) انظر: «الأغاني» (١٦/١٠٥٧٧).

رُدَّها، فلم يكن لي سبيل، واستغثت إلى أتابك ثلاث مرات، وما أفادني، فأنا أعزِّي نفسي وأسليها، وإن كنت لا أسلوها.

وحكى الهيثم بن عدي أن عبد الله بن العجلان كان سيداً في قومه، وكان أبوه أكثر بني نهد مالاً، وكانت هند امرأته التي كانت له من بني نهد، وكانت أحبَّ الناس إليه وأحظاهم، فمكثت عنده سنين سبعا أو ثمانيا لم تلد له؛ فقال له أبوه: إنَّه لا ولد لي غيرك، وهذه المرأة عاقر، فطلَّقها وتزوج غيرها، فأبى ذلك عليه، فألّا ألا يكلمه أبداً حتَّى يطلقها، فأقام على أمره، فعمد إليه يوماً، وقد شرب حتَّى سكر، وهو جالس مع هند؛ فأرسل إليه أن صِرْ إليَّ.

فقال له هند: لا تمض إليه؛ فوالله ما يريدك لخير، وإنما يريدك؛ لأنَّه بلغه أنك سكران، فقد طمع فيك، أن يقسم عليك، فتطلقني، فتم مكانك، ولا تمض إليه، فأبى وعصاها، فتعلقت به، فضربها بمسواك كان بيده، فأرسلته، وكان في يدها زعفران؛ فأثَّرت في ثوبه مكان يدها، ومضى إلى أبيه، فعاوده في أمرها وضعَّفه، وجمع عليه مشيخة قومه وفتيانهم، فتناولوه بألستهم، وعيَّروه لشغفه بها، وضعف حزمه، ولم يزالوا به حتَّى طَلَّقها.

فلما أصبح أخبر بذلك، وقد علمت هند؛ فاحتجبت عنه، وعادت إلى بيت أبيها، فأسِف عليها أسفاً شديداً، فلما رجعت إلى أبيها زوَّجها رجلاً من بني نمير؛ فبنى بها عندهم، وأخرجها إلى بلده، فلم يزل عبد الله بن عجلان دنفاً سقيماً، يقول فيها الشعر، ويبكيها حتَّى مات أسفاً عليها.

وقال في طلاقه إياها:

فارقـت هنـداً طائـعاً ونـدمـت عنـد فراقـها

فالعين تـذري دمـعة كالـدُرِّ منـ آماقـها

ولقد أُلدُّ حديثها وأُسُرُّ عندها عناقها^(١)

وقال عروة بن الورد لما فارق الكنانية على الخمر، وأصبح نادماً لذلك:

سَقَوْنِي الخمرَ ثم تَكْتَفُونِي عُدَاةَ اللَّهِ مَنْ كَذَبَ وَزُورَ

فِي اللَّهِ كَيْفَ غَلَبْتُ أَمْرِي عَلَى شَيْءٍ وَيَكْرَهُهُ ضَمِيرِي^(٢)

والخامس عشر: ترك استباحة الرئيس على السكر، وطلب الحاجة منه عند انتشائه؛ فإن ذلك ترى منه جاريًا مجرى الخديعة، ويدخل في باب الحيلة إلا ملوك زماننا هذا؛ فإن مجالستهم في أكثر الأوقات لا تخلو عن الخمر، وأكثر أوقات أمرهم ونهيهم إنما هي أوقات جلوسهم على الخمر، وإن عدل الحرّيف عن المسألة لنفسه، واستمع لغيره، ودخل ذلك في باب حسن [الضيافة] والحض على الكرم، وخرج من النعيم واللوم، فأما إذا لم يشب المجالسة والمحادثة [.....]،^(٣) ودفعت الصّورة إلى المسألة؛ فالأحسن في ذلك ألا يتبدى بالسؤال محضًا، وأن يتوخّى له من الأحاديث والمعاريف، ما يندرج السؤال في أضعافه على اللطف ما يمكن في ذلك، وأقربه من النادرة.

كما فعل المفضّل الضبي، وقد بات عند المهدي فلم يزل يحادثه ويناشده حتّى ذكر حمّاد الراوية، فقال له المهدي: ما فعل عياله؟ ومن أين يعيشون؟ فقال له: من ليلة مثل هذه كانت له مع الوليد بن يزيد.

والسادس عشر: ألا يمنع ربّ المنزل أحدًا من الانصراف إذا ظهر منه صدق الرغبة في ذلك؛ فربّما منعه ما هو أهم عليه من التبيذ.

(١) الأبيات لعبد الله بن عجلان في «الأغاني» (٢٢/ ١٤٩٧١).

(٢) البيتان من الوافر، وهما لعروة بن الورد في «الأغاني» (٣/ ١٥٤٤)، و«منتهى الطلب من أشعار العرب» لابن المبارك ص (٥٩٣).

(٣) غير واضح بالأصل.

والسابع عشر: ألا يكون قصد المتناول للخمر أن يجعل بطنه دَنًّا للخمر؛ فإن إدمانه والإفراط فيه مفسد للحس، مضعف للأعصاب، والمستهتر بالإكثار منه يعاني من الدَّوار والخمار ما لا خفاية، حتى لقد قال بعض الأدباء: «لو أن المخمور يعلم بقصته لقدم وصيته».

وأكبر عيوبه السُّكْر، والأولى بالعاقل ألا يكون قصده من الخمر إلا نفعها في البدن، وذلك يحصل بالقليل منها والنشوة، وهي ما تحصل بالمقدار المعتدل، فأما إذهابها للعقل، فعلى قدر مزاج الشارب، ومزاج ما شرب من الكمية والكيفية وقد عرقله في جهله وصحوه.

قال الشاعر:

على قدر عقل المرء في حال صحوه تؤثر فيه الخمر في حال سُكره
فتأخذ من عقل كثير أقله وتأتي على العقل القليل بأسره^(١)
وقال آخر:

تزيدُ حُسا الكأس السفية سفاهةً وتركُ أخلاقَ الكريم كما هيا
وإنَّ أقلَّ الناسِ عقلاً إذا انتشى أقلُّهم عقلاً إذا كان صاحياً^(٢)
ولذلك لا يجب أن يشربها الحمقى والسفهاء والجهَّال؛ فتزيد في فجورهم وسفههم، وتكثر حماقاتهم.

(١) البيتان بلا نسبة في «التذكرة الفخرية» ص (٤٥٣)، و«النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» لابن تغري بردي ص (٣٦٣٢).

(٢) البيتان من الطويل، وهما لأبي نواس في «التذكرة الحمدونية» ص (٥٦٤٤)، وبلا نسبة في «ديوان المعاني» ص (٨٠٠)، و«العمدة في محاسن الشعر وآدبه» ص (٣٣٠).

قال أبو نواس:

والخمر قد يشربها معشر ليسوا إذا عدوا بأكفائها^(١)

حكى أن أحد الشعراء شرب عند أحد الملوك بمدينة حمص؛ فجار عليه السّاقى حتّى أخرجه من الأدب، وعمل فيه الطرب حتى قام فرقص في المجلس، فضرب بيده على الملك، فأقامه ليرقص، فغضب الملك، واستخفّ به، وهمّ بتأديبه، ثم أخرجوه الغلمان مطرودًا، فلما أصبح كتب إلى الملك يقول:

لا تلمني ولم مُدامك واصفح يا بريئاً من كل ذنب ونقص
هي رأس البلايا والذنب للخيا ط عند التفصيل لا للمَقْصِّ
وإذا عدت للحقيقة فيها هي خمرٌ ونحن في أرض حمص
وقال أبو العلاء المعري:

البابليةُ بابٌ كُلُّ بِلِيَّةٍ فَتَوَقَّيْنِ هُجُومَ ذَاكَ الْبَابِ
جَرَّتْ مُلَاحَاةَ الصَّدِيقِ وَهَجَرَهُ وَأَذَى النَّدِيمِ وَفُرْقَةَ الْأَحْبَابِ^(٢)
وقال أبو نواس:

وَإِذَا رَامَ نَدِيمٌ عَرَبَ دَهْ فَأَقْرَعَنِ بِالصَّرْفِ مِنْهُ كَيْدَهُ
ثُمَّ وَسَّدَهُ إِذَا مَا غَلَبَتْ سَوْرَةُ الرَّاحِ عَلَيْهِ عَضْدَهُ

(١) البيت من السريع، وهو لأبي نواس في «التذكرة الفخرية» ص (٣٧١).

(٢) البيتان من الكامل، وهما لأبي العلاء المعري في ديوانه من قصيدة البيت الأول مطلعها، وفي

«البدیع فی البدیع فی نقد الشعر» لأسامة بن منقذ ص (٣٧).

خَلَّتْ سَوْءُ تَشِينَانِ الْفَتَى حَيْثُمَا كَانَ الْحَنَّا وَالْعَرَبَدَهُ^(١)

وقال آخر:

لا تقعدن مع خالدٍ في مجلس أبداً ولا تحمل دم الآخرين

ريحانه بدم الشجاج مُلَطَّخٌ وتحيمة الندمان لطم العين^(٢)

وقال آخر:

ومعربٍ أخرجته لما تعرَّضَ للندامى

أغلقت بابي دونه وتركته يرعى الخزامى^(٣)

فأما الرئيس ذو الملك والأمر النافذ فلو كان السُّكر أو مقاربته حلالاً لا اختلاف فيه لكان عليه حراماً؛ لأن بادرت به إلى نفسه وغيره لاستقال، وأمره لا يراجع، ولأنه يقهر ولا يُقهر، ويحجر ولا يُحجر عليه، وقَلَّمَا سمعنا بحادثة عظيمة، وغدرة قبيحة، وسطوة عظيمة، استحاها ملك، وحيأها إلى نفسه أو نديمه أو حشمه وسائر من يخضه إلا على سُكر ثم يقع عليه بعد ذلك الندامة، ويلحقه ما لا يتلقاه من العار والمسبة.

فيمن تهيأ ذلك عليه من ملوك الجاهلية جذيمة بن مالك الأبرش المسمى بـ «الوضاح»؛ فإن أخته عشقت عدياً نديمه، فأرسلت إليه أن إذا استولت الخمر على أخي، فاخطبني منه؛ فإنه يزوِّجك لفرط سكره؛ لأنه شديد اللين إذا سكر، ضعيف الرأي، سهل الانخداع، ففعل ما أمرته؛ فزوَّجه جذيمة لفرط سكره، فلما تفرَّق القوم،

(١) الأبيات من الرمل، وهي لأبي نواس في ديوانه من قصيدة البيت الأول مطلعها.

(٢) البيتان من الكامل، وهما لمحمد بن يسير في «الأغاني» (١٤/٨٩٧١)، و«التذكرة الحمدونية» ص (٥٧٠٢).

(٣) البيتان لأبي نواس في «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء» ص (٢٣٠٩)، وبلا نسبة في «قطب السُرور في أوصاف الخمور» ص (٥١٩).

ونام جذيمة، أرسلت إلى عدي أن صر إليّ، فأتاها، وهي في قبة من آدم، فقالت له: ابن بأهلك؛ فإنك لا تعلم عن ماذا يسفر غد، فبنى بها من وقته، وبات معرّساً إلى الصبح، فلما أفاق من سكره عند الصباح خاف من جذيمة، فخرج من عندها هارباً على وجهه، ولم يقف له على خبر.

فلما أفاق جذيمة، نهض أيضاً ليسلم على أخته، وكان عادته ذلك في كل يوم، فوقع نظره على القبة الأدم، فأنكرها، وسأل عنها، فقليل له: أليس هذه قبة العروس؟ فقال: ويلكم! وأي عروس؟! قالوا: عدي زوّجته الليلة بأختك، ودخل بها، فغضب، وعاد إلى منزله؛ فكتب إلى أخته هذه:

خبريني فأنت لا تكذبيني الحُرُّ زوّجت أم هجين
أم بعبد فأنت أهل العبيد أم بدون فأنت أهل الدُول
فأجابته تقول:

أنت زوجتي وما كنت أدري وأتاني النساء للتزيين
ذاك من شربك للندامة صرفاً وتماديك في الصُّبا والمُجون^(١)

ومن ملوك الإسلام الوليد بن يزيد بن عبد الملك؛ فإنه لم يزل يهمل الأمر، ويواصل السكر منسطقاً ومغتبطاً، حتى انتشر أمره، واضطرب نسله، فقتل وجماعة من أصحابه، وكان هو السَّبَب في هلاكهم، وهلاك من بحضرتهم اختيارهم السكر، ومطالبتهم بدمائهم به.

وقال البارع البغدادي يذم الخمرة:
ألا قاتل الله المدامة إنها تُبدّل منّي حازماً بجهول
ولو لم يكن من عبثها غير أنّها تبوح بسري أو بسرّ خليل

(١) انظر: «خزانة الأدب» ص (٦٨٢٤)، و«البصائر والذخائر» ص (٧٨٠).

الباب الرابع من الجملة التاسعة

في أدب السماع

أما السَّماع المطرب، فلو اقتصر عليه داعيك دون كل مأكول ومشروب لقضى حقك، وأحسن تعويضك، ويشهد بذلك الرَّاعي في السير، سمعها سامع يمضي فيها، وهما:

وكنت إذا ما زرت سُعدى بأرضها أرى الأرض تُطوى ويدنو بعيدها
من الحفرات البيض ودَّ جليسا إذا ما انقضت أحدى لو تعيدها^(١)
فأطربه، وأعجبه حتى مال إليه، واستعادها فأعادها، وقال: والله لو كان
عندي قَرَى ما أعدتها.
وقال الآخر:

لأبي جعفر سَماع عجيب جمع اللهو فيه والإطرابا
فالندامى غَيُون عن أن يبتغي لهم مَطعماً وشرابا

وكتب جحظة البرمكي إلى من كان يزهد في السَماع:

إن كنت تنكر أن في الـ الحان فائدة ونفعاً
فانظر إلى الإبل التي هي ويك أغلظ منك طبعاً
تصغي لأصوات الحداة فتقطع البيداء قطعاً
ومن العجائب أنهم يظمنها خمسا وربعا
فلماذا توردت الحياض وحاولت في الماء كرعاً

(١) البيتان من الطويل، وهما بلا نسبة في «الأغاني» (٧/٤٤٣٢)، و«العقد الفريد» ص (٤٥٨٦).

وتشوفت للصوت من حاد تصيخ إليه سمعاً
ذهلت عن الماء الذي تلتذه بردا ونقعا
شوقاً إلى النغم التي أطربها لحناً وسمعاً^(١)

قال المربي: مررنا مع الشافعي، وإبراهيم بن عليّة على دار قوم، وجارية تغنيهم
هذا البيت:

خليّ مابال المطايا كأثّها تراها على الأعقاب بالقوم تنكص^(٢)
قال الشافعي: «ميلوا بنا نسمع هذه، فلما فرغت»، قال لإبراهيم: أيطربك
هذه؟ قال: لا، قال: مالك حسّ.

وحق لمن أمتعك بسماعه، وشاركك في أخصّ لذاته، وسوّى بينك وبينه في
استماع نغمه، من لعلمه يغار عليه من ظلمه، أن تجعل ثوابه على هذه المكرمة؛ غرض
طرفك عن هذه الجهة التي تلي السّتارة، والناحية التي يأتي منها النّعمة حتى لا يكون
باطن السّتارة بأخفى عليك من ظاهرها.

ولا يخرج بك الطرب عن حدّ الحرية والأدب؛ فيلج في الإقداح، وتحقق
بالعلم والحدق؛ فتسمع فتدمع العبرة، وترصد الهفوة؛ فإن سمعت مجازاً لحتته، وإن مرّ
بك زخارف غيرته وورثته، وقد قيل: «النّصح بين الملأ تقريع بالذنب»^(٣)، و«من قل
علمه كثر رده».

(١) الأبيات من مجزوء الكامل، وهي لـجحظة البرمكي في «الذخائر والبصائر» ص (٤٣٨).

(٢) انظر: «نهاية الأرب في فنون الأدب» ص (٢٦٦٤).

(٣) انظر: «تاج العروس (فرع)».

والعربية أكثر وجوهاً أن يحظى فيها متكلم، وأنفس العيان، ومعهن أنفة
وحمية؛ فمن استعمل هذا معهن؛ فهو أبداً عليهن يعمل، وعندهن مقيت، لا يعدم أن
تراقبه الواحدة منهن، وتكايده، فيتعالل إن حضر، ويعدل عنه بما يستحسن، فتقطع
الصوت عند انتحابه، وتريض بالغناء انصرافه.

ولبعضهم في غَضِّ الطرف عن السَّتارة:

إني على ما في من عهد الشَّيبَةِ والغَضارة
لأغض طرفي حين يَأْ منني النديم على السَّتارة^(١)
وكتب لحظة إلى بعض أصدقائه، وكان له سماع وغيره مفرطة:
إن شئت فاستر على سماعك وإن شئت يوماً فبطل السَّترا
فإنَّ عندي من العفافة ما تحمده منظرًا ومختبراً
أمكَّن أذني من السماع ولا أمكَّن لحاظ عيني النظراً
ومن آداب السماع الكف عن الحديث المتصل وقت غناء الموسيقى.

* * *

(١) انظر: «محاضرات الأدباء» ص (٢٦٦٤).

الباب الخامس من الجملة التاسعة

في أدب المنادمة

قال بعض الفضلاء: إذا وليت عملاً؛ فانظر مَنْ كَاتِبِكَ؛ فإنها يعرف مقدارك من بُعْدِ عَنْكَ بِكَاتِبِكَ، واستعقل حاجبك؛ فإنها يقضي عليك الوفود قبل الوصول إليك بحاجبك، واستطرف نديمك وجليسك؛ فإنها يزتك الداخل عليك بمثقال من يراه معك.

وقيل: إِنَّهُ فَاخِرُ كَاتِبُ نَدِيمًا، فقال الكاتب: أنا معونة، وأنت مئونة، وأنا للحديث وأنت للهلزل، وأنا للشدة وأنت للذة، وأنا للحرب وأنت للسلم.

قال النديم: أنا للنعمة وأنت للخدمة، وأنا بالحظوة وأنت بالمهنة، تقوم وأنا جالس، وتحتشم وأنا مؤانس، تدأب لراحتي، وتسعى لما فيه سعادتِي، فأنا شريك وأنت مُعِين، كما أنك تابع وأنا قرين.

ولبعض الأدباء في النديم، ومدحه:

أرى للكأس حقًا لا أراه لغير الكأس إلا النديم

هو القطب الذي دارت عليه رحا اللذات في الزمن القديم^(١)

وقال أبو نواس، وهو أمير هذا الشأن وفارسه:

نادمتهَا إِذْ لَمْ أَجِدْ مُسْعَدًا أَرْضَاهُ أَنْ يَشْرَكَنِي فِيهَا^(٢)

فهذا إنما يدل على فضل النديم، وأنه لم ينفرد بالنبذ مختارًا، وإنما تفرد بشربه

(١) البيتان في «محاضرات الأدباء» ص (٢٢٨٧)، و«المحب والمحبوب» ص (٨٦٤).

(٢) البيت من السريع، وهو لأبي نواس في «التذكرة الحمدونية» ص (٥٦٤٥)، و«قطب السُرور»

ضرورة؛ لأنه لم يجد نديماً، أو ليس هو القائل:

فَالرَّاحُ طَيِّبٌ وَلَيْسَ تَمَامُهَا إِلَّا بِطَيْبِ خَلَائِقِ الْجُلَاسِ^(١)

وقد ملح عصابة الجرجرائي في قوله:

اقر السلام على الأمير وقل له إن المدام الرضاع الثاني^(٢)

وليس أحد من أصحاب الملوك وخلطائهم هو أولى باجتماع محاسن الأخلاق، وأفاضل الآداب، وظرائف المُلح، وغرائب التنف من النَّدِيم، حتى إنَّه يحتاج إلى أن يكون فيه أشياء متضادة، ويكون فيه مع شرف الملوك تواضع العبيد، ومع عفاف النِّسَّاك مجون الفتَّاك، ومع وقار الشيوخ مزاح الأحداث.

وكل واحد من هذه الأحوال يحتاج إلى أن يجتمع له من قوة الخاطر ما يفهم به ضمير صاحبه الَّذِي ينادمه، على حسب ما يتلوه من خلائقه، ويعلم من معاني لحظه وإشارته ما يغنيه عن تكلف الإفصاح ببغيته؛ فيسبقه إلى إرادته، ويبدِّره إلى شهوته.

كما قال بعض الكتاب:

ونديم حلو الحديث يجاري — ك — بما تشتهي في ميدانك

المعيُّ كأن قلبك في أض — — — — — لاعه أو كلامه في لسانك^(٣)

(١) البيت من الكامل، وهو لأبي نواس في «الشعر والشعراء» ص (٩٣٦)، و«محاضرات الأدباء» ص (٢٢٩٠).

(٢) البيت من الكامل، وهو لعصابة الجرجرائي في «ثمار القلوب في المضاف والمنسوب» لأبي منصور الثعالبي ص (١٣٢٧)، و«زهر الآداب وثمر الألباب» ص (١١٣٧).

(٣) البيت بلانسبة في «قطب السرور» ص (٣٤٠)، و«نهاية الأرب في فنون الأدب» ص (١١٣٧).

ومن صفة النديم أن يجمع إلى الصبر على مغص الجوع؛ احتمال كظّه الازدیاد من الشبع؛ لأنه مدفوع إلى مؤاکلة، إما سخيٍّ شديد المحبة؛ لأن يؤكل طعامه، فيطالبه بالإكثار منه، ومساعدته عليه، ومساواته فيه، فإذا فعل ذلك حطّى عنده، وقرب من قلبه بالمشاكلة، وإن قصّر أنزل ذلك منه على التحيل له، وتعتمد التنقيص عليه، أو لسم طعامه عند سماعه وبصره، فإن أسرع إليه، وتناول أطايبه؛ فكأنما أكل من جوارحه، فهو مضطر لأن يجاهد نفسه، ويغالب طباعه، حتى يألف هاتين الحالتين، فيكون حينئذ أتم في آلات الندام، وأقهر لسلطان الشهوة.

فمن يعتمد على الأكل في منزله، ويتنقل بمثل ما رأينا جماعة من المترسمين بالندام، يستعملون من اتخاذ المخازن المملوءة أدهانًا في خفاف غلمانهم، واللفاف مدرجة في المناديل؛ فإذا مضّهم الجوع، وتحذّهم الشراب؛ تغنموا الغفلة، وانتهزوا الفرصة، وتناولوا ما أعدّوا من ذلك في الخلاء، وما أشبهه من المواضع الخسيسة، وكان ذلك قبيحًا جدًّا إذ لو اطلع عليه بعض حاشية المنادم، فأتهّاه إليه؛ أوعر قلبه، وأحفظه^(١)، ورأى أنه في ذلك الفعل قد كَلِه؛ لأنه ليس لكل ذي خُلُقٍ زي يعرف به نفسه، بل كم من ذوي العيوب، يعمى عليه عيوبه، أو يتعدى الموضع الذي يوجد مثل ذلك؛ فينال جهة من الضّرر بمفارقة العادة ما يؤلمه ويعلله.

فأمّا العبث والمزاح؛ فله موقع لطيف، ومحل خصيص، إذا تبَيَّن النديم نشاطًا لذلك.

وقال قائل للمأمون: أياذن لي أمير المؤمنين في المداعبة؟ فقال: وهل العيش إلا

فيها؟!

(١) أي: أغضب [لسان العرب (حفظ)].

وقدم عليه العتابي، ودخل عليه، وعنده إسحاق بن إبراهيم؛ فسلم فردَّ عليه وجلس، وأقبل يسأله عن حاله، وهو يجيبه بلسان طلق، فاستطرفه، وأخذ في مداعبته؛ فظن الشيخ أنه قد استخفَّ به؛ فقال: يا أمير المؤمنين، الإبناس ثم الإبناس، ثم أخذ في المفاوضة والحديث، فأغرى المأمون به إسحاق، فأقبل يعارضه في كلِّ ما يذكره، ويزيد عليه، فعجب منه العتابي، ثم قال: أتأذن لي يا أمير المؤمنين في مسألة هذا الإنسان عن اسمه ونسبه؟ فقال: افعل، فقال له العتابي: من أنت؟ وما اسمك؟

قال: أنا من النَّاسِ، واسمي «كُلُّ بَصَلٍ»؛ فقال العتابي: أمَّا النسبة فمعروفة، وأمَّا الاسم فمكروه، وما كلُّ بَصَلٍ من الأسماء؛ فقال إسحاق: ما أقلُّ إنصافك! وما كلثوم من الأسماء؟ والبصل أطيب من الثوم؛ فقال العتابي: لله درُّك، فما أحجك! ما رأيت يا أمير المؤمنين كالرَّجُلِ قَطُّ، أتأذن لي يا أمير المؤمنين في أن أصله بها وصلني به أمير المؤمنين؟ فقال المأمون: هو موثَّرٌ عليك، ونأمر له بمثله، ونهض؛ فانصرف العتابي إلى منزله، وناداه بقية يومه^(١).

وينبغي أن ينادمه بكلِّ ما يتنافس به الملوك فيه ويغالون، من الرقيق المثلث، والجوهر النفيس، والآلات المحكَّمة، وأنواع الطيب، والفُرُش، وغير ذلك من الخيل والسلاح، وسائر ما يهدى الملوك في مجالس لذاتهم، ويعرض عليهم في أوقات نشاطهم.

ولذلك قال الواصف نفسه للفضل بن يحيى البرمكي يرغبه في اصطحابه، ويحضه على اختصاصه وندامه في أبيات كثيرة:

لَسْتُ بِالنَّاسِكِ الْمُشْمِرِّ ثَوْبِي — وَلَا الْمَاجِنِ الْحَلِيعِ الْوَقَاحِ

(١) انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان ص (٢٨٤٩).

أَبْصَرَ النَّاسَ بِالْجَوَارِحِ وَالْحَيِّ — لِ وَبِالْخُرْدِ الْحَسَنِ الْمِلَاحِ^(١)

فمن أبرد من النديم مجلسًا، وأكسف منه بالاً، إذا عُرض على الملك شيئاً من هذه الأعلاق، فاعتمد فيها على معرفته، ورجع في انتقادها إلى تقليبه، ونظره فلم يجد عنده شيء منها علماً، ويستظرف منه أن يصف اللون المليح الغريب من الطبيخ، والصوت البديع من الشعر، واللحن الشجي من الغناء.

وقالوا: من لم يدر عشرة أصوات، ويحكم من الطبيخ عشرة ألوان؛ لم يكن ظريفاً حاذقاً، ولا نديماً جامعاً، ولا يستحق هذا الاسم، حتى يكون له جمال ومروءة، أما جماله: فنظافة ثوبه، وطيب رائحته، وفصاحة لسانه، وأما مروءته: فكثرة حياته، وانبساطه، ووقار مجلسه، مع طلاقة وجهه في غير سُخف، ولا يستكمل المروءة حتى يسلو عن اللذة، وقيل: ما المروءة؟ قال: ترك اللذة.

وقال عبد الله بن المعتز:

بَيْنَ أَقْدَاحِهِمْ حَدِيثٌ قَصِيرٌ هُوَ سِحْرٌ وَمَا سِوَاهُ كَلَامٌ^(٢)

وسيله أن يحضر في زي الموكب، والزي الذي يشهد فيه المحافل من غير أن يشتهر، فإن شاء الرئيس أن يغيّر زيّه، فخلع عليه المأمون، والمشتهر من أثواب الندام؛ حَسُنَ أن يلبس ذلك في وقته، حتى ينقضي المجلس، وما يحسن ظهوره فيه في مجلس ثانٍ؛ لأنه شيء كان الرئيس اختاره في ساعة طربه وتبدّله، لا في كل أوقاته.

(١) البيتان من الخفيف، وهما لأبان اللاحق في ديوانه من قصيدة مطلعها:

أَنَا مِنْ بَغْيَةِ الْأَمِيرِ وَكُنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْأَمِيرِ ذُو أَرْبَاحٍ

(٢) البيت من الخفيف، وهو لابن المعتز في «التذكرة الحمدونية» ص (٥٧٣٦)، «التذكرة الفخرية»

فأما العمامة والخف؛ فسيبله ألا يخل بهما، وله أن يلففهما ويخففهما، فإنما كان الغرض ملازمتها ألا يحسر الرأس، ويبدو القدم.

ومما يأخذ به نفسه الإسراع في المشي إذا كان بحيث يراه الملك، حتى لا يرى مشيه اختيالا.

وحُدِّثُ عن الطبقة العالية من ندماء الخلفاء الماضين أنهم كانوا يجتمعون في منزل، فإذا مشى أحدهم في ذلك الموضع، مشى مسرعًا، وسُئِلَ أحدهم عن السَّبَبِ في ذلك؛ فقال: إنَّنا نفعله في كل موضع، وإن كان لا يلزم إلا في مجلس الخليفة؛ حذرًا من أن يخلَّ بالعادة، فيعدل عنها في موضعها؛ فاستحسنَت هذه الرياضة.

ومما يلزمه التحفظ منه أبدًا ألا يصبحه أبدًا، ولا يمسيه، ولا يشتمه، ولا يستخبره، وإنما ترك هذا كله لما فيه من التكليف للجواب، وليس من حق منادم ذي الرياسة والسلطان، إذا تبيَّنَ لنديمه منه لين الخلق، ووطأة الكنف، وخلع ثوب الكبر، أن يستعمل معه من الدالة، ما يجحد به حق الرياسة، ويقدح في سلطانه، ويفسد عليه تدبيره.

ويقال: ينبغي لمن حُصَّ بالسلطان أن يكون آنس ما كان به، أوحش ما يكون منه؛ فإن سلم من ذلك كله، فواجب عليه ألا يخلَّ بتوقِّي الملال، والتحرز من وقوعه.

وبينما المأمون ينادم إبراهيم بن المهدي بعد رضاه عنه، وتعمُّده ما كان منه؛ تبيَّنَ منه دالة أذكرته ما كان من ذنبه، فنهض، وأمر بإقراره ومن كان معه على جملتهم، ثم صار إلى مجلس جدِّه؛ فاستولى على سريره، وتزيًّا بزيِّ الخليفة، وأحضر القاضي، وجمع الجنود بالسَّواد والأسلحة، ومُدَّ السَّهَامَات، وشُهرت السيوف والأغمدة، ثم أحضر إبراهيم بن المهدي معسوفًا؛ فلما مثَّل بين يديه أطرق عنه مليًّا، ثم رفع طرفه، وإبراهيم

يرعد؛ فقال له: ما حملك على ما كان منك؟ كرسيّ خلا من صاحبه يا أمير المؤمنين، فكنت جديرًا بحفظه عليه، حتى أعاده الله عليه، وقد سبق من عفو أمير المؤمنين ما لا خلاف معه؛ فقبل عذره، وأحسن جوابه، وردّه إلى منزله، وعاد المأمون إلى مجلس الندام من ساعته.

وحكى جحظة عن أبيه كما كان ينادم إسحاق بن إبراهيم الطاهري جوهرى، من حلة الثُّجَّار ووجوههم، حتى اختص به، وتبين لطيف موضعه منه، ولم يكن يتقدمه عنده أحد، وكانت فيه آلة، وله أدب يستحق به تلك المنزلة؛ وإنه لمعه ذات يوم، والستارة مضروبة، إذ وصِف للمتوكل فصٌّ كبير جليل المقدار، كان عنده، وقع إلى هذا الجوهرى، فوقع إلى إسحاق بإحضار هذا الرَّجُل، ومطالبتة بالفص ومناظرته عليه وتقدير ثمنه، ووافى التوقيع.

فلما نظر إليه، دعا بالجلادين والسَّيَّاط، وأمر بتجريد الجوهرى؛ فقال: أيها الأمير! ما قصّتي؟ فلم يذكر له شيئاً، حتى نُصِبَ بين العقابين، وكاد السوط أن يأخذه؛ فلما علم أن السَّوط قد رهب، وسكن قلبه من الهيبة، ما أنساه الدالة والمنادمة، قال له: فص ما عندك من حالته وقصته.

قال: أحضره الساعة، فليأمر الأمير بإطلاقي حتى آتية به الساعة، قال: لا سبيل إلى ذلك، فدعا بدواة وقرطاس، وكتب في تلك الحال إلى ثِقَتِهِ في منزله بعلامة كذا، وأكد عليه القول؛ يأمره بإحضاره للفَصِّ؛ فأحضره، وجعله في منديل، وختم عليه ثم قام بنفسه إلى الجوهرى، فتولى حلّ وثاقه بيده واعتنقه، وخلع عليه من فاخر الكسوة، وقال له: لم يكن يجب في حق السلطان إلا ما رأيت، ولو لم أفعل ذلك لما أمنتُ إليك، ولا كنت أراك تخرج مثل هذه العقدة النفيسة بتسْمُح أعطافك، ويلحقني من إنكار أمير المؤمنين ما يفسد حالى وحالك، فسكن الرَّجُل إلى عذره وقبله.

وواجبٌ على النديم أن يتعهد من أحوال ظاهر جسمه وباطنه ما يأمن معه أن يسبق إلى طرف الرئيس أو أنفه من جهته حال يذمها، وليكن على أوكد ثقة، من نقاء فيه من الخلو، وثوبه من الدنس، ومعانيه من الدرن، بتوفيه هذه الأشياء حقها من التنظيف والتطيب.

وليس من حق نفسه عليه إذا كان على الطبقة أن يخسها حقها، ولا يحطها عن درجتها توهمًا أن يعاينه الرئيس لمنزلته أكثر عنده، وأعطف لقلبه عليه. كما أنه ليس من حق الرئيس المصطفى له أن يتصوره بصورة من يغالطه، ويسخر منه؛ بإعطائه ما ليس له، وعلى أن عقول الرؤساء أقوى، وفطنتهم أدق من أن يجوز عليهم مثل هذا.



الباب السادس من الجملة التاسعة

في آداب المضاجعة

وهي أربعة عشر أدبًا:

الأول: تنظيف الفم بالمضمضة والسواك البالغ، واستعمال ما يزيل رائحة ما عساه، غلب على طعامه كالثوم وأشباهه، ومضغ شيء من حوار سن العود أو العود نفسه.

والثاني: استنشاق الماء مرّات كثيرة؛ ليذهب عن الأنف ما يعتريه من الروائح؛ فإن الرائحة تحصل في شعر الأنف، ولا ينقلع إلا بالاستنشاق عدّة دفعات.

والثالث: تعهد إبطه بالغسل البالغ.

والرابع: أن يحذر العشاء؛ فإن العشاء مولّد للقراقر والرياح، وثقل النوم، وعسر الانتباه، ويولّد الغطيظ، وكثرة السعال والمخاط.

والخامس: أن يسبق ضجيعه في الشتاء إلى الفراش، ويتأخر عنه في الانتباه، وأمّا في الصيف؛ فيتأخر عنه في إيواء المضجع بمقدار ما يستقر به.

والسادس: ألا يبطئ على ضجيعه، بحيث يطول عليه ارتقابه؛ فمن الناس من يغشاه النوم عند أول استقراره في المضجع، وأقل حركة تنبهه، فلا يثقل في النوم بعد ذلك.

السابع: ألا ينام على ظهره أصلاً، إن كان مِمَّنْ يَشْخُرُ، وأنّه متى أحس من نفسه في أثناء الليل بالشخير يحطّ من أنفه ما يقدر عن حطّه بالقوة.

والثامن: أنّه إذا أحس بسعال قد همّه؛ لا يتكاسل عن أن يجلس.

والتاسع: ألا يجعل رجله أو ساقه أو فخذه فوق ضجيعه إلا إن استدعى ذلك

والعاشر: إن كان من يقوم بالليل للبول؛ فليشرب قبل النوم نصف درهم لبان، ويشرب بكرة ربع درهم لبان، ويلزم كل ثلاثة أيام يومًا.

ومن يبول في فراشه يحذر العشاء، ويمتنع من شرب الماء وقت المساء، ويهجر البطيخ والقثاء والخيار والقرع واللبن، ويأكل المقبضات كالبلوط المشوي والشاهلوط والخرنوب الشامي.

والحادي عشر: ألا يوقظه من نومه بكثرة تقلب أو ضحك أو نحنحة أو سُعال، وما أشبه ذلك.

والثاني عشر: الإجابة إذا دعاه، وأن يبادر بالتلبية من أول دعوة.

والثالث عشر: ألا يتخلف عنه عند الجلوس؛ فأما التقدم فلا بأس به.

والرابع عشر: ألا يفتح فاه عند النوم بل يطبقه، ويكلف نفسه اعتياد ذلك.

الباب السابع من الجملة التاسعة

في أدب المجامعة

خير أنواع المجامعة مجامعة من تقدم في النفس ميل إليه، فمن عزم على مجامعة شخص؛ فليحرص على أن يقدم قبل استمالته من غير أن يشعره أنه يريد استمالته، وأول طرق الاستمالة الغاية في النظافة والتجمل والمبالغة فيهما، والإكثار من الطيب الحارّ ولا سيما البخور بالعود، وإدامة البشاشة، وطلاقة الوجه، ومجانبة العبوس، وتحريّ حسن النطق، والتؤدة في الكلام، والمعاملة بحسن الخلق والكرم والإيثار، وإذا حصل الميل، وزال ما عساه يكون صَلف أو غيره.

فمن النَّاس من لا تشعر به المرأة حتى يرفع رجليها، فيحشمها ويطأها، إذ رُبَّما لم تكن في تلك الحال منبعثة الشهوة، ورُبَّما كانت غير مستعدة له، فتكره اطلاعه منها على ما لا يؤثر أشدَّ كراهية، ولا يصادف منها مستمتعًا طائلاً، فيخطئ طريق إدراك اللذة.

فأول الآداب: المبالغة في الاحتراز من عيوب الناظرين؛ فإن ذلك أوكد الأسباب في انبساط المنكوح، واسترساله، ومؤاتاته إليه كلما برد منه.

وَألا يغفل قبل ذلك بتعهد إبطه بغسل بالغ، ومسحه بخرقه نديّة، ثم تشديد مسامّه بالمرْتَك^(١)، وغسل وجهه، والمضمضة والسواك والاستنشاق.

وَألا يعبث بما دون السّراويل قبل التّقبيل والدّغدغة^(٢)؛ فإن التّقبيل يهيج نار الغلّة، ويحرك الشبق، ويقال: «التّقبيل وحصاده الجماع».

(١) المرْتَك: فارسيّ مُعَرَّبٌ، وهو المرْدَاسَنُج [تاج العروس (مرتك)].

(٢) الدّغدغة: هي شبيهة بالقرص بأطراف الأصابع [جمهرة اللغة (دغدغ)].

وأن يتعمّد أن يكون خلوته بمن يريده على خِفٍّ من المعدة؛ فكم من قد قطعه الامتلاء عن الخلوة.

وأن يياشر إحليله بالماء البارد والهواء البارد قبل حاجته إلى قوته بساعة؛ فإن ذلك من أسباب الإنعاظ.

وأن يتجنب قبل ذلك الرُّمان والخلّ وأشباههما ممّا يقطع عن الباءة، والبخور بالعود محرّك للغلّة منشط للباءة.

وإذا يقوم بمباشرة اللواط؛ فإنهن لا يردنه، ولو أظهرن الميل، ولا يتنفس نفساً عاليّاً عند التّقبيل.

وإذا يضع لسانه في فم من لم يعتد ذلك، بل إذا أراد ذلك، استدرجه إليه في مهل.

وإذا بهمل بأنّه يسهّل الولوج من ريق أو إحدى اللّعبات أو دهن طيّب حارّ، والريق أفضل؛ لأنّ الدّهْن يرخي الذّكر ويلينّه، فيمتنع عن المعادة إلا إن كان دهناً حارّاً، وينطل عَقِب الجماع بالماء البارد على العضو؛ ليقاوم فعل الدهن.

وكثير ممّن تلصق الرّجل بأشفارهن، تراهن إذا أوين المضاجع قد جعلن عند رءوسهن مخازن دهن بنفسج، ودّهْن الورد، ولعاب حبّ السّفرجل محلّولاً في ماء الورد، وهذا أقل ما يحتمل من حملهن من دفع إلى رعناء كهولة؛ فسييله ألا يسخطها بالمخالفة، بل يستدرجها إلى ما تريده بالملاطفة، ويعلمها أن دهن البنفسج يرخي، ودّهْن الورد يقبض، وأن تلك الحال يستدعي استعماله ما يبسط الروح، وينشر القوى لا ما يقبض، وأنّ اللّعبات باردة؛ فهي تكسب النّشاط لذلك.

وأتمّها إذا أرادت أمثال ذلك؛ فسييلها إعدادهن البان، ودّهْن الخيري، ودّهْن

القُسطُ المعتبرُ الحلو، ودُهْنُ الزَّئْبُقِ محلولاً فيه اليسيرُ من السُّكَبِينِجِ والجاوشير، وقليل من المسك.

ومنهنَّ من يمنع من ترطيب الآلة عند الجماع بشيء ما، وتستدخله جافاً، لعلمها بأن رحمها كثير الرطوبة أو ليعسر ولوج الإحليل؛ فينسب ذلك إلى الضيق، فلا ينسأغ احتمال ذلك منها إلا إن كانت قريبة العهد بأخذ الشعر، والأدب في هذا أن توافق المرأة على غرضها في هذا، لكن لا يتكلف الدَّفْعَ مرَّةً واحدة مع الجفاف؛ فإن في ذلك ألماً ومانعاً عن اللذة، بل على طريق العبث والتدريج.

وأن يدخل من الذكر مقداراً يسيراً ثم يخرج ثم يدخل أكثر من الأوّل حتى يستوعب إدخال الجميع في عدّة مرات برفق، وإن كان هناك من الجفاف أو الضيق أو غلظ الإحليل ما يمنع من دخوله؛ فالوجه استعمال المزلق، ولقد زعمت أن الوحي قد نزل عليها بتحريمه.

ومنهنَّ من إذا راودها الرَّجُلُ واستجابت، لم تمكِّنه من نفسها، حتى تمضي إلى بيت الطهارة، وتستعمل الماء البارد؛ لأنه بالغ في التضييق، وذلك منهنَّ ممَّا يكره؛ إذ هيجان الشهوة لا يحتمل المطل والانتظار، وشدة الإنعاض لا تبقى على حالها، والماء البارد يكسب العضو برودة يكرهها أكثر الرجال، إلا مَنْ كان منهم قد غلب على أعضائه الحرارة.

لكن سبيلها إذا شعرت من نفسها بحاجة إلى التنظيف والتضييق عند المراودة لها؛ ألا تحيب إجابة مستسلمة، بل يُغالط بممازحة أو بوعده، وتمضي لسانها فتستعمل ما أرادت، وتعود كالمفاتحة في الحديث الَّذي غالطت عنه؛ فإن استحييت من المفاتحة أن ترنو إلى الرَّجُل بعيني شبيهة، وتبتسم في وجهه، وتقول: «إيش قلت»، وتقبيل فم المليحة عند جماعها ممَّا لا يجوز الإخلال به.

والبطيئة الإنزال لا تجامع إلا بعد إطالة مداعبتها، وكثرة دغدغتها، وتضحيكها إلى أن يحمرَّ وجهها؛ لأن ذلك يهيج الدم ويسخنه، ومحاككتها بغير إيلاج إلى أن يظهر عليها أمارات الشبق، وأمّا السريعة الإنزال؛ فلا يطال مداعبتها. فإن جامع رجل امرأة، وهي نائمة، وشعرت به بعد إيلاجه؛ فالأدب في ذلك ألا تتكلم، وألا تشعره، وأن تستديم حالتها من النوم، وترخي ساقها وفخذها، حتى لا يجد منها مدافعة عن أي جهة أراد تحريكها إليه، وأن تخفف عنه بعض ثقل ساقها، ولا سيما إن علمت من نفسها أنّها سريعة الإنزال؛ فإنها إذا اقتربت، واقتصرت على حركة الرَّجُل؛ قضى وطره، وإن اختارت معاونته؛ فلتساعده ببعض الحركة لكن على تدرّج.

أعني: أنّها أول ما تتحرك حركة ضعيفة جداً، ثم تزيد فيها قليلاً قليلاً بطول تؤدة، لتمكّن حركة موافقة لحركته، يستقبل بها قربه منها بقربها منه، ثم تفتح من عينيها اليسير، ثم لا تزداد في فتحها، وتحرك أشفار عينيها، وتقوي حركتها تحته بالتدرّج، وتعلي نفسها حتى إذا قبلها قبلته قبله ضعيفة، وامتصت شفته، وتأوّهت التأوه الرخيم، وجانبت العبوس، ولتكنّ حاجباها أو عيناها كالمبتسمة، ولا بأس حينئذ أن تتكلم بما يبسطه ممّا يوافقه.

قال الشاعر:

وَيُعْجِبُنِي مِنْكَ عِنْدَ الْجَمَاعِ حَيَاةُ الْكَلَامِ وَمَوْتُ النَّظَرِ

ومما يستطاب ذلك الوقت، ويقوى به متاع الرَّجُل، ويزيد شبقه أن أول حركة

(١) البيت لأبي شبل البغدادي في «الكشكول» لبهاء الدين العاملي ص (١٩٨٨)، وبلا نسبة في

«العقد الفريد» ص (٤٧٩٧).

يستدل بها الرَّجُل على أن المرأة قد استيقظت؛ تكون فخذيها ورجليها تضمها على ظهره، كأنها تكرُّه بها إلى نفسها، أو حركة يديها تعانقه بها، وتلصقه بها، ثم تقبَّله، وتنفس نفساً عاليًا، ثم تعسه برهز وحركة إلى آخر الأمر؛ فإن هذا يلزم معاودتها، ويولد عنده كلفاً بها.

ومن آداب الجماع الواجبة على المرأة: ألا تزايل جبيها أو يدها منديل لطيف ناعم جداً تمسح به إحليل الرجل عند انفصاله عنها، ولا يحتمل هذا أيضاً في عمله، بل ينبغي أن يكون معداً حيث يمكنها أن تحفظه بسرعة، وتبادر به حين يُخرج نصف الإحليل منها، وتستقصي مسحه من غير تطويل.

وتحذر في هذه الحال أن تقع يدها على بيضة الرجل؛ فإن المرأة لا تكون أمانة عليها أبداً، ولا يظن ظاناً أن هذا الفعل من المرأة خدمة للرجل فقط، وإنما هو ستر لبعض عوراتها عنه، وإماطة أذاها عن جسمه، وما يكره وصول ريحه إليه، من فضلات الرَّحِم التي هي في الأكثر رديئة الرائحة، موقرة النُّفُور عن النساء، متى صعد إلى دماغه ننتها، ولذلك تصلح أن تكون هذه المنديل مطيَّبة مبخَّرة بالطيب الموافق لمزاج إحليل الرَّجُل.

وليست تقع في هذه الخدمة إلا امرأة تكون مثل عريب المأمونية؛ فإن الأصفهاني صاحب كتاب «اللباب» حكى أنَّها كانت تتطيَّب بسبعين مثقالاً من المسك، فكانت إذا مشطت رأسها؛ جلست جاريتها تحفه وبدعة، واقتسما الماء الذي غسلت به رأسها في القوارير.

ومن الآداب المفروضة على المرأة: ألا تزال يداها ناعمتين خاليتين من الخشونة، وأن تكون أظفارها مقلمة مبرودة ناعمة؛ لئلا تؤذي إحليل الرَّجُل أو تحدشه.

ومن الآداب المهمة: أن تحتز المرأة أن يبعد عنها المنديل، فلا تدري في أي موضع تركتها من الفراش؛ فترى إحداهن وأحد ساقها تحت الرجل، وقد مالت بساقها الواحد في طلب المنديل والتفتيش عنه، وهو مُشْطِرْها، ومتاعه فيها.

ومن الآداب: غسل الفرج بالماء البارد عقب الجماع، يجب فعله على الرجل وعلى المرأة؛ فإن الماء البارد يقوي الإحليل، ويضيق الرِّجَم، ويحذر الماء الحار؛ لأنه يرخي الإحليل، ويضعفه، ويمنعه من القدرة على المعادة، وأمّا المرأة فيوسعها، ويجلب إلى رحمها الرطوبات؛ فيعاف كل واحدٍ منهما المعادة، ولا يجوز لأحدهما أن يمنع صاحبه عن الاغتسال.

ومن الآداب: ألا تتحرك المرأة أكثر من حركة الرجل؛ فكثير منهم يتوهمن أن إفراطهن في الحركة تحظيهن، والأمر بخلاف ذلك، ولا يجوز أن تتحرك المرأة زيادة على حركة الرجل، وأمّا الأقل فجائز، وأفضل من سائر الحركات الحركة التي تخفى عن الحِسِّ وتشبه بالسُّكون، وهو أن تسكن المرأة على شريطة أن يكون كل عضو منها إذا استدعاه الرجل بأدنى إيهاء، أسرع إليه إجابةً، وانفعل له، كالريشة في سرعة ملح البصر، حتى أنه لو حرَّك أثقل أعضائها؛ لتحرك كالريشة خفةً.

ومن الآداب: ألا يُمنع الرجل من لمس الرِّجَم والعبث به، ولا تعترض عليه في ذلك، ولهذا يجب عليها أن تكون على دائم الوقت من النظافة، والاستعداد للامس، على غاية لا تخشى معها حدوث السَّلَوة.

وقد قال الشاعر:

أَلَمْ تَرَيَانِي كُلَّمَا جِئْتُ طَارِقًا وَجَدْتُ بِهَا طَيِّبًا وَإِنْ لَمْ تُطَيِّبْ^(١)

وقال كثير عزة:

(١) البيت من الطويل، لامرئ القيس في «الأغاني» (٨/ ٥٢١٤)، و«الكامل» ص (١٣٣٤).

بِأَطْيَبِ مِنْ أَرْدَانِ عَزَّةَ مَوْهِنًا وَقَدْ أَوْقَدَتْ بِالْمَنْدَلِ الرَّطْبِ نَارُهَا^(١)

ومن الآداب: ألا تقول المرأة على سبيل المزاح والمداعبة كلامًا معناه الاستزادة من الجماع؛ فإن ذلك غير محتمل من المرأة، ولم يُحَقِّقِ الرَّجُلُ أَنَّهَا مازحة، بل الأولى إن توهمت أن الرَّجُلَ قادر على المعاودة، وأعجبها ذلك، أن تتقرب إليه، وتتجنب له، وتحادثه أحسن الحديث وأمتعته وأجلبه لقيام الذَّكْر، وفي أثناء ذلك تقرب منه، وتُبْدِي له ما تعلم أَنَّهُ يعجبه منها، وفي خلال ذلك تُكَبِّسُ يده، وتلف ساقها على ساقه، ولا بأس في خلال ذلك بأن تقبله قليلاً؛ فإن الرَّجُلَ لا يلبث أن ينشط لمعاودتها، ولو كان عنيئاً.

ومن آداب الجماع: ألا تمتنع المرأة عن الجماع إذا أُلْحَ في المراودة؛ فإنه إِنَّمَا يُلْحُ لشدة إنعاضه، ولصدق شهوة يجدها، وإصرارها على الامتناع؛ يكسر شهوته، ويفسد رأيه فيها، لا سيما إن كان عزيز النَّفْس، عالي الهمة، فأَمَّا اللواتي يمتنعن ليحلوا موقعهن عند الرَّجُل؛ فقد أخطأت الطريق، وضيَّعْنَ مقصودهنَّ.

فإن المرأة عورة، والجماع حال يقتضيه الشهوة، ولا يقتضيه العقل في أكثر الأوقات، وأكثر النَّاس عالم بما في الجماع من الضَّرر، وما في غشيان المرأة من النَّقص، ولكنَّه [سهرج]^(٢) على نفسه حالها لهائج شهوته، فإذا وقعت الممانعة؛ رتب ما يُسْكَن هائج الشهوة قَبَّحَ العقل ذلك، ولوى وجه الرَّجُل، وذكر سوء خُلُقِ المرأة، وتخلفها عن موافقته، فينقص موضعها عنده.

ويحذر كل الحذر من أن يجامعها، ويقطع عليه عمله، والامتناع عليه، إذا

(١) البيت من الطويل، لكثير عزة في «الصناعتين» ص (١٨٦)، و«الشعر والشعراء» ص (٥٨٠).

(٢) هكذا بالأصل.

صدقت شهوته؛ فإن المنيَّ ينزعج ويُدغَدَغ حيثُذٍ للخروج، ولا يمكن السكون إلا بعد خروجه.

ومن الآداب: ألا يجامع الرَّجل إلا منعظاً قوي الإنعاض، ولا يتكلف لها بها لا يسمح به طبعه، فيجامعها بمتاع رخو، فإن كانت زوجة؛ أضمرت تعجيزه، وإن كانت خليلية؛ توسَّمت في معاشرته قِلَّة المتعة، لا يعتمد على قيام الذكر من غير وجود شهوة صادقة؛ فإن ذلك القيام لا يدوم إلا بمقدار ما يتوسَّط الفرج، فيرخيه بحرارته، ويبقى على أشبه الأحوال بالمساحقة.

وما أحسن قول ابن المقفع: ولا تُطلِ الخلوة فتملَّهن ويملَّكنك، واستبقِ من نفسك بقية؛ فإن إمساكك عنهن، وهن يرذُنك باقتدار؛ خير من أن تهجم منك على ضعيفٍ وانكسار.

ومن الآداب المأخوذة على المرأة: ألا تمتنع عن امثال سائر ما يأمرها به، من كلام يعجبه منها، وانعطاف، وجلوس، وارتفاع، واضطجاع على جنب، وغير ذلك. والمرأة تستلذ بفحاش الجماع، وألذُّ أبوابه عندهن الأصمول، وهو أن تضع تحت إلتها مخدَّة ثم تمدُّ رجليها ما استطعت، وتجعل رأس ركبته على ثديها، ثم تدخل يدك من تحت ركبتيها، فتجعلها على رأس الكتفين، وتجذبها إليك، وتنحطُّ عليها، ولا تنم على بطنها، وكن مستوفراً قاعدًا على أطراف أصابعك، وتعمد سقف الحر؛ فإن لذَّة المرأة في سقفه إذا كانت قِعْرَة، فإن كانت شفرة؛ فما من شيء ألذَّ عندها من ذلك الأمر بين شفرها، ورُبِّما غُشيَّ عليها عند ذلك، والتي تكون هكذا لا تكون حبولاً، وإن علقت لم تلد إلا البنات.

قال بعض الكتَّاب: لا يغُرَّكُم قول الواحدة: قتلتنى وأوجعتني والموت؛ فإن قلقها واضطرابها لشدَّة الشهوة، وكلما فعلت ذلك، فازدد في الرَّهز وجود؛ فإن ماتت قدمها في عنقي.

الجملة العاشرة: في بيع وشراء الرقيق

وهي خمسة أبواب:

الباب الأول من الجملة العاشرة

في ذكر وصايا ينتفع بها في البيع والشراء

وهي ثلاث عشرة وصية:

الوصية الأولى: سبيل المستعرض للجواز ألا يقطع بأول نظرة؛ فإن الجائع يستجيد كل طعام يشبعه، والعريان يستوفى كل طمرٍ يستره ويدفئه، ولهذا قال: لا يستعرض جارية شبق، فليس لنعيط رأي؛ لأنه يقطع بأول نظرة ينظر، وللجديدة لذة، وللغريب روعة؛ فإذا صادف منه حاجة داعية، قطع ما يكذب حواسه عند الاستغناء عنه، ولهذا قال: تكرار اللحظ مخلف كل جدة، ولمعاودة التقلب يظهر التصنع ويهرج المدلس.

الوصية الثانية: أن يحذر شراء الرقيق في المواسم؛ ففي مثلها يتم للنخاسين الحيل، فكم سمراء كمدة بيعت بصفراء مذهبة، وأبخر الفم بطيب النكهة، وكم قد جعلوا العين الزرقاء كحلاء، وحمروا الخدود المصفرة، وسمروا الوجوه المقعقة، وأعدمو الخدود شعور اللحى، وأكسبوا الشقراء حالك السواد، وجعدوا الشعور السبطة، ويبيضوا الوجوه المسمرة.

وكم من مريض بيع بالصحيح، هذا زائد على ما يوصون به الجوارى من دُلٍّ ومجانة على مسافرين، فدخل لهم لحم الميتة، وسوى ما يفعلنه من تزئنهن بالخضاب والحناء والملابس الناعمة المصبغة.

قال بعض النخاسين: درهم حناء يزيد في ثمن الجارية مائة درهم فضة، ولهذا قال: اتهم نظرك فيما تستحسنه، حتى يكون الاستحسان دائماً على صورة لا يُنقصها تكرار النظر، ولهذا لا يتم إلا في دفعات.

الوصية الثالثة: ألا يقطع بأول كلام يسمع أو غلام أو جارية فربما جاء اتفاقاً أو عن تلقين فوافق من سامعه قبولاً، ولا يكون وراء ذلك الكلام أمثاله، ولكن خذ بسوء الظنّ تسلم.

الوصية الرابعة: ليحذر الرؤساء ممن كان له سمعاً، ويخشى عليه منه، أو يخاف أن يطلع له على سرّ شراء خادم أو جارية خاصة إن كانت كاتبة، وخرجت من دار سلطان إلا بعد خبرة بها، وشراء جارية مولدة بأجر جلاب؛ فإن هذه حيلة قد هلك بها جماعة من الملوك.

الوصية الخامسة: التّحرّز من شراء مملوك كان يكثر ضربه أو جارية قد تمرنت على العقوبة؛ فإن من هذه صفته، قد انفسد، وامتنع عنه وجه الصلاح والتأديب.

الوصية السادسة: ألا يشتري مملوكاً ذا جرأة على ذم مولاه وتنقيصه.

الوصية السابعة: أن يغفل المسألة عن سبب بيعه وشرائه؛ لأن بيعه مولاه ولأن يشتريه؛ ففي هذا الفحص فوائد كثيرة في استنباط ما يدل على الصلاح في ارتباطه وتسريحه وتركه.

الوصية الثامنة: ما وُصي به قبل استخدامه، قالوا: المملوك على أول ما يراه منك، أول دخوله دارك؛ فإن أطمعته طمع، وإن هذبه انقمع، وإن خالطه مفسد من الغلمان فسد.

الوصية التاسعة: في التّحرّز في استبراء الأمان من الحبل قبل الهلك، واحذر بالسّداد، والدواعي الكاذبة؛ فإن كثير ما تجعل في خرقهن دم غيرهن.

وليكن ممن يشتري لك منها امرأة تكره أن يلصق بك ولد غيرك، ومرها بتفقد نديها، وحسن حشاها، وتأمل شحوب لونها، وشهوتها للطعام المالح الدال على

التَّوْحُم، وأن تسقى عند النوم من العسل أوقيتان ممزوجة بمثله ماء المطر، وينظر هل يغص أم لا؟

والعلة فيه احتباس النُّفخ بمشاركة المعاء، وهو صحيح مجرب، وأيضًا تكلف الصوم يومًا، وعند المساء ترمل في ثياب، وتدخن عن أحانة أو قمع بخور، فإن خرج الدخان ورائحته من الأنف والفم؛ فليس بها حبل.

الوصية العاشرة: بعد الشراء، وهو تحرز المشتري من أن تحبل الجارية بغير إرادته، وذلك أنه إذا اشترى غير بالغة؛ فربما بلغت في منكحه، وهو لا يعلم، وكنتم عنه ذلك رغبةً في الولد، ويحذر حبل الجواري اللاتي توهمن أنهن عقيم، وهن كارهات للحبل، فربما خدعن الملك بذلك.

الوصية الحادية عشرة: ألا تخرج جارية من منكحه إلا في دم؛ فربما حبلت في حجرة النحاس، وأدعت أنه من بائعها على أن ذلك من الجواري نادر.

الوصية الثانية عشرة: أن تجتهد في البراءة من كل عيب يخرج في الجارية، وألا يغفل عن البراءة من كي يكون في ثديها.

فكثير من طوائف الترك يكوي الجارية على ثديها حتى لا تسترخي، ويسقط ثدياها كثيرًا، ومنهن من يكوون الجارية في وسط رأسها، ومنهن من يكوون الجارية على فرجها، ولترك في هذا خرافات إلا أنهم يفعلون ذلك بيناتهم، والشرع يوجب للمشتري ردّها، ولو بعد الوطء إذا لم تكن بكرًا، ولم يعلم بالكي وما شابهه.

حدّثني بعض التجّار أنه اشترى جارية تركية؛ فلما ملّها عزم على ردّها، قال: وكان على فرجها كي صغير على مقدار التُّرْمُسة؛ فرددتها على صاحبها بمحضر من القاضي.

وحدّثني صديق لي أنّه اشترى جارية تركية حسناء، ووطئها عدّة أيام، فناما ليلة حتى طلعت الشمس ثم جلسا، فحانت منه نظرة إلى عينيها، فرأى شعرة في جُفن عيناها مقلوبة، وقد دمعت عيناها؛ فردّ الجارية على صاحبها بهذا العيب.

ولا أعلم أحدًا قد أمّن من هذا إلا أهل؛ فإن أحدهم إذا باع جارية، كتب بينه وبين المشتري شرطًا مجتمعًا على تعديد سائر العيوب والأمراض واحدًا واحدًا، ويبيعه على البراءة من جميعها؛ فإن رضي وإلا لم يبيعه.

الوصية الثالثة عشرة: للمسافر بالعبيد والجواري أن يُشهد بعض عدول المدينة عند أول وصوله إليها على إقرار المملوك والجارية بالعبودية له، والاختيار بشهادة قوم عليه بأنّه في منزله وخدمته؛ فهذا القدر كاف في الاحتراز من نشوز الغلام أو الجارية وهربه وادعائه الحرية.

الباب الثاني من الجملة العاشرة

في أجساد الرقيق بحسب كل واحد منهم على مذهب الأطباء

وهو ثلاثة وثلاثون أصلاً:

الأول: تفقد اللون ألا يكون إلى الصفرة؛ فإنه يدل على ضعف الكبد، وغلبة الصفراء، ولا إلى السّوداء والكمودة؛ فإنه على السّوداء وضعف الطّحال، والأبيض ناشقاً؛ فإنه يدل على أمراض في الرّحم أو الأحشاء أو المقعدة، لكن إن كان أبيض؛ فليكن مشرباً بالحمرة، وإن كان أسمر؛ فلتكن سمرة صافية.

الثاني: من البشرة أن تكون نقية خالية من البهّو أو البرص أو الوشم أو القوباء أو الكي أو الصبغ أو الثآليل أو عرق مدني أو أثر قرصة لا سيما إن كان من عضة كلب.

الثالث: تناسب الأعضاء في الطول والقصر لا سيما الرقبة؛ فإن قصرها قبيح مكروه، وقصر إحدى اليدين عن الأخرى أو قصرهما جميعاً؛ فإن ذلك رديء في الأعمال.

الرابع: تفقد الشعر والرأس لثلا يكون به داء الثعلب والحية والسّعفة والحزاز.

الخامس: ألا يكون كثير الفضلات كالבصاق والمخاط، ويكره كثرة النوم وكدر العين؛ فإن ذلك من مخايل الصّرع.

السادس: تفقد العينين لثلا يكونا مطربتين؛ فإنه من علامات الوسواس لا سيما إذا لم يكن الكلام منتظماً، ويعتبر لونهما؛ فإن كان بهما زرق في السواد فإنها من علامات الماء، ولا يكون بياضها كدرًا أو اصفرارًا عروق؛ فإنه من مقدمات السّل، وألا يكون شكلهما مستديرًا؛ فإنه من علامات الجذام، أو تفقد المآق لثلا يكون به ظفرة، ولا لحم زائد ولا ناصول، وعلامته أنك إذا عصرت المآق خرج منه مدّة، وتفقد الأجفان لثلا يكون شفرهما منتشرًا ولا منقلبًا، ولا يكون في الأجفان غلط.

السابع: تفقد الأذن والأنف لثلا يكون في داخل أحدهما لحم زائد، ويمتحن بالروائح، والكلام.

الثامن: أن يستنطق لثلا يكون به لثغة إما لقبض اللسان أو لغلظه أو لسقوط جزء منه أو لآفة من عضلة أو بسقوط بعض الأسنان أو لالتصاقه من الحيلة أو لأثر قرحة، ورُبَّما كان قد عَضَّ لسانه لصَرَخ به.

التاسع: تفقد الأسنان لثلا يكون قد عَضَّ لسانه لصَرَخ ناقصة بعد الثغر؛ فإنها لا تعود، وتفقد ألوانها وصلابتها، وامتحان ذلك بأن يؤمر بكسر اللوز والجوز والبطر والفسق، وسلامتها من الحفور، وبعدها من الضرس بصبرها على الحامض، واجتماعها أجود من تفرُّقها، وإن كان السَّبَب محبوبًا عند العرب.

العاشر: اللثة ألا يكون فيها قروح، واستنكهه لثلا يكون فيها بخر من عفونة أو تآكل ضرس أو بلغم عفن في المعدة.

الحادي عشر: تفقد اللهاة لثلا تكون مسترخية؛ فإن ذلك سبب اتصال السُّعال، والنزلة إلى أسفل؛ فإنه يتبع ذلك الخناف.

الثاني عشر: تفقد النغانغ لثلا يكون بها سَلَع أو أثر خنازير.

الثالث عشر: تفقد الصدر لثلا يكون ضَيِّقًا أو مَعَوِّجًا أو قليل اللحم، فإن ذلك سبب الذُّبول والسعال والنزلات والسل، ولا سيما إن كانت الأكتاف متجنحة.

الرابع عشر: تفقد الساعد والمرفق لثلا يكون منه رشح من خَرَّاج أو جرح أو عرق مَدَنِي، واستبينه بأن يُفيض على يدك بقوة.

الخامس عشر: أن يأمره بأن يستلقي على ظهره، ويحسُّ حشاه من فم المعدة إلى العانة، فإن رأيت الماء أو خلطًا؛ علمت به لا سيما إن وافق ذلك فساد لون، وتقييح في المحاجر، وكان يقطع نفيه عند الإحضار.

السادس عشر: أن تأمر امرأة ترفع رجلي الجارية، وهي على ظهرها مستلقية حتى تصل ركبتيها إلى ثديها، وحتى يصير كعبها عند أذنها؛ فينظر هل تتأوه أو تتألم أو تجمع بطنها؟

فإن فيهن من يكون في أحشائها أوجاع، ومثانتها قروح، ولا يمكنها رفع الرجل كثيرًا إلا بالألم، فتراها إذا جومعت لا يمكنها إمالة رجلها كثيرًا. والسابع عشر: أن ينظر كيف أكل الجارية، وعملها للأشغال؛ فربما كانت تأكل بيدها اليسرى، وتعمل بها أكثر أعمالها؛ فذلك من العيوب.

الثامن عشر: أن ينام الغلام أو الجارية في بيتك ليلتين أو ثلاثة، وتمنعه أن يلقي من فيه شيئًا عَقِيب تنخُّع أو سعال إلا في طاس، مشتمل على ماء قد أعدته لذلك، وتراقبه أيضًا بعد هبوبه من المضجع، فلا يمكن من إلقاء شيء من فيه إلا في الطاس، ثم يتأمل ما في الطاس، ويحرك في الماء بقصبة؛ لتفرق أجزاءه، بحيث يخلص من الرطوبات ما عساه يتشبث بها من المدة، فإن رسب شيء؛ فهو عن قرحة في الصدر أو في المريء أو المراق أو الرئة، وأرداها ما كان لونه بعيدًا عن البياض.

فكم من مصدور بيع بالصحيح، ويبقى المشتري سنة لا يعلم بحاله، ولا يظهر على المريض علامات ذلك؛ لأنه لم يتفقد منه ما ذكرنا؛ فإن قرحة الصدر خاصة إذا حدثت عن أخلاط رديئة كان خروج الفُتَح منها ونفثه بغير سُعال، ولا سيما إذا اعتقت؛ لأنَّ الأعضاء التي تمر بها الفتح بالنخع بلا سُعال.

التاسع عشر: تفقد المعدة ألا يكون الطَّعام فيها يستحيل إلى الحموضة أو الدُّخانية أو التُّخمة، وألا يكون ساقط الشهوة قليل الأكل جدًّا أو لا يكون بها خلط داع إلى أكل الفحم والطين.

العشرون: أَنْ يُطَعَّمَ اللحم مشويًا أو مقلّيًا، وتتأمل أطرافه بالليل، ومنهم من يكون بها سداء دِقٌّ، وتصلح في الشتاء، وترجع في الصيف إلى أشدَّ ما كان؛ فإذا أكل اللحم أسرع الحرارة إلى أطرافه خاصَّةً يديه ورجليه؛ فيسخنان بالليل سخونة رديئة.

الحادي والعشرون: أَنْ يؤمر بأن يتبول في طاس عقب النوم الأطول، ويتفقد هل يتبين فيه رمل أو مدَّة، فيدل على قرحة أو حرارة في الكلى أم لا؟

الثاني والعشرون: يتأمل الغلمان خاصَّةً عند البول، فإن كان يفرك الإحليل طويلاً قبل خروج البول؛ فذلك دليل عسر البول أو قرحة في القضيب.

الثالث والعشرون: يمنع من التبرز في جُبِّ يختفي فيه البراز، بل يُلجىء إلى أَنْ يتبرز على بسيط الأرض، ويتوكَّل به من يفتقد برازه، هل فيه دم أو قيح؟

وقد يخرج البراز غليظًا، ولا يُرى معه قيح، لكن إذا تفقدت جوانبه؛ وجدت في أحد الجوانب من البراز رطوبة خضراء، وقيح يسير، ودال على شجج في المعاء، ويُعده من المعاء يعلم بعد موضع القيح من أول البراز إذا مدَّ كل الحبل.

الرابع والعشرون: أَنْ يؤمر من يشرف عليه من ورائه إذا تبرز، وهو لا يشعر حذرًا من أَنْ يكون مِمَّنْ تخرج مقعدته إذا تبرز.

الخامس والعشرون: الأثنيان لا يكون بهما دوالي أو بأحدهما عطبًا أو إحداهما صغيرة والأخرى كبيرة أو يكون ذا بيضة واحدة.

السادس والعشرون: يختص بالرَّحِمِ بآلا يكون ما بين السرة إلى العانة عند الحس غليظًا أو صلبًا؛ فإن ذلك دليل سرطان.

السابع والعشرون: يحترز بآلا يعرض للجارية الغشي الشبيه بالسكتة في أول الحيض؛ فإن ذلك دليل اختناق الرَّحِمِ يتبعه الموت فجأة.

الثامن والعشرون: ألا يكون في الرَّجل عوج أو تشنج أو عرق نسا أو خلع ورك، وهذا يتبين إذا أمرته بالعدو.

التاسع والعشرين: تفقد الركبة لثلا يكون بها ورم صلب أو خلع الأصل.
 الثلاثون: الساقان لا يكون بها تقويس أو حنف أو فحح، ولا في باطنهما دوالي.
 الحادي والثلاثون: أن يؤمر بالعشاء، ويطعم الخيار؛ فإن كان له عادة يبول في الفراش جرى على عادته.

الثالث والثلاثون: تفقده في حال النوم ألا يكون يصرُّ بأسنانه، ولا يهذي في نومه، وبألا ينام على وجهه، وبألا يكون مَمَّنْ يمشي، وهو نائم.

* * *

الباب الثالث من الجملة العاشرة

في تعريف الأخلاق لقياس الفراسة على منهل الفلاسفة

مقدمات الفراسة مأخوذة بتشابهات موجودة في أشخاص من النَّاس أو من الحيوان، ولا يحكم على دليل واحد، ومتى اجتمعت دلائل متضادة حُكِمَ بأقواها، ورُجِّحَ أظهرها، ودلائل الوجه والعينين خاصّة بأقواها وأوضحها مثال.

من دلائل الشجاعة: تراه مأخوذاً من صفات الأسد أن يكون قويّ الشعر خشنه، شديد العظام والأطراف والأصابع، عظيم الصدر والأكتاف والرّقة، عريض الصدر، ضامر الورك، معرّق الجبهة، قويّ المفاصل، منتصب القامة، ممشوخ الإليتين، بعيد ما بين المنكبين، ممدود الحاجبين، أرب الصدر والكشف، والجبان بالضد.

دلائل اللون: الأشقر والأحمر يدلان على كثرة الدم والضحك، اللّذي بين البياض والحمرة دليل على اعتدال، اللون الناري دليل رأي، الأحمر دليل حياء، الأخضر دليل سوء الخلق.

دلائل العينين: عظمها دليل كسل، غورها دليل دهاء وحسد، جحوظها دليل هذر وقحة، زرته إحداها تدل على البلادة، سوادها دليل جبن، شبهها بعيون الأعنز دليل جهل، سرعة حركتهما وحدة بصرهما دليل مكر وحيلة، بطء حركتهما وإبعادهما دليل كسل وشبق، حمرةهما دليل شر وإقدام، سودهما دليل كسل وبلادة؛ فإن مالتا إلى الصُّفرة كان صاحبها سفاكاً للدماء، الزرقة مع الأصفر دليل رداءة الخلق جدّاً، النُّقْط والشُّعَب حوالى السواد يدل على هذر وحمق وحسد وشر، وإذا برز السواد على البياض دل على الحمق، صغرهما وجحوظهما دليل ميل إلى الشهوات.

دلائل الحاجب: كثرة الشعر فيه من دلائل الهَمِّ، طوله نحو الصُّدغ دليل التيه والصلف، طوله نحو الأنف دليل البله.

دلائل الأنف: دقة طرفه دليل محبة الخصومة؛ فإن كان ذلك مع طول دل على حق، غلظه دليل قِلَّة الفهم، الفطسة دليل شَبَق، غلظ أرنبيته دليل غضب.

دلائل الجبهة: المستطيلة التي لا غصون فيها دليل شغب وخصومة، الكثيرة الغصون دليل صلف، صغرها دليل الجهل.

دلائل الفم: سعة الفم دليل شجاعة، طول الأنياب دليل شره وشر.

دلائل الوجه: من كان حاله كأنه سكران أو غضبان فحاله كذلك، قِلَّة لحم الوجه دليل كسل وغلظ طبع، وضده بالضد، الوجه المستدير دليل جهل، العظيم دليل كسل، الصَّغير دليل خفة، السَّمح الوجه رديء الخلق، طوله دليل قحة، الأوداج البارزة دليل غضب.

دلائل الأذن: عظمها دليل جهل ودُهاء وطول عمر وبالضد.

دلائل الصوت والنفَس: العظيم الصوت دليل شجاعة، سرعة الكلام دليل عجلة وبله، وحسن الصوت دليل رعونة، النفَس الطويل دليل رداءة الهِمَّة.

دلائل اللحم: اللحم الكثير الصُّلب دليل غلظ حس وفهم واللين بالضد.

دلائل الضحك: كثرته دليل دماثة الخلق وقِلَّة اهتمام بالأمور وبالضد، علوه دليل قحة من عرض له عنها لضحك سعال؛ فهو مستحي.

دلائل الحركات: الحركة السريعة دليل طيش، البطيئة دليل بلادة.

دلائل البطن: كبرها دليل البلادة، وصغرها بالضد.

دلائل العنق: قصرها دليل مكر، طولها دليل جبن، عظمها دليل شجاعة.

دلائل الظهر: عرضه يدل على القوة والغضب، استواؤه يدل على العقل، انحناؤه دليل رداءة الخلق.

دلائل الكتفين: العريض جودة العقل، الدقيق ضده، شخوص رأس الكتفين

دليل حق.

دلائل الذراع: إذا بلغ منتهى الكف رأس الركبة دلّ على نبل النفس وحبّ

الرئاسة، وقصره بالضد.

دلائل الكفّ: اللينة اللطيفة دليل سرعة التعلم والفهم وبالضد، الطويلة

الدقيقة تدل على زعارة الخلق.

دلائل الحقو والساق والقدم: القدم اللحيم الصلب دليل بلادة، والصغير

الحسن دليل فجور ومرح، غلظ العقب دليل شدّة وبالضد، غلظ العاقين والعراقيب

دليل بله وقحة، دقّة الحقو دليل حب النساء.

دلائل الخطى: الخطى الواسعة البطيئة دليل تأن وتؤدة، والخطى القصيرة

المسرعة بالضدّ.

* * *

الباب الرابع من الجملة العاشرة

في معرفة أجناس الرقيق وما يصلحون له من الأعمال

الجارية الخماسية هي التي يكون طولها خمسة أشبار، والشهوانية ليس اسمها مشتقاً من جنس من الأجناس لكنها مشتقة من الشهوة الكاملة، والمنصورية من المنصورة التي هي وراء النهر، وهي غير منصورة العرب، والفارسية مولدة فارس، مولد الزنجية إذا تكرر مع النسل في البيض ثلاث دفعات؛ صار أبيض، وبعد الفطس أقنا، ولأنت أطرافه وتطبعت أخلاقه، ومثل ذلك في كل الأجناس.

فأما أهل البلاد الشرقية: فألوانهم بيض مشربة بحمرة، وأبدانهم مخصبة، وأصواتهم صافية، وأمراضهم قليلة، وصورهم جميلة، وأخلاقهم كريمة، وأعشابهم كثيرة، وأشجارهم عظيمة، وما لهم غضب ولا حدة لاعتدال كفياتهم لكنهم أهل سكون ودعة.

وأما أهل البلاد الغربية: فأحوالهم تكاد تضاد جميع ما ذكرناه في البلاد الشرقية. وأما البلاد الشمالية: التي هي بنات نعش والجدي كبلاد الصقالبة؛ فأهلها عراض الصدور، شجعان، وحشوا الأخلاق لكمون الحرارة، دقاق السوق طويلون الأعمار لجودة هضمهم، نساؤهم عواقر لا يبقين من دم الحيض.

وأما البلاد الجنوبية: وهي التي أهلها سكان تحت القطب الجنوبي كالحبشة؛ فأحوالهم ضد أحوال البلاد الشمالية، ومياهم كدرة مالحة، ومعدهم باردة، وهضمهم رديئة، وأخلاقهم هادئة، وأعمارهم قصيرة، وبطونهم ليئة لسوء الهضم.

وأما الهنديات: مسكنهن أول الجنوب على سمت المشرق، ولهن حسن القوام، وسمرة الألوان، وحظ وافر من الجمال مع صفرة وشفاء بشره، وطيب نكهة، وحسن نعمة، ولكن الشيخوخة تسرع إليهن وفيهن.

أعني: وفاء عهد ومودة، وكثرة محافظة، وبعد غور وسلطنة، ونفوس عزيزة، لا يعبدون على الذل، ولا يتألمون للقتل، ركبّون العظائم متى أحوجوا وأغضبوا، وهن يصلحن للولد، ورجالهم لحفظ النفوس والأموال والصنائع الدقيقة غير أن النزلات تسرع، وقد يوجد فيهم الجوار البيض الحسان على ما حدثنا التُّجَّار.

روى الأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ عن أشياخه بإسناده إلى أحمد بن أبي خالد وزير المأمون، قال: كتب ملك الهند إلى المأمون مع هدية أهداها له ما هذه حكايته: من دُهمي ملك الهند، وعظيم أركان المشرق، وصاحب بيت الذهب، وإيوان الياقوت، وفرش الدر، الَّذِي قصره من العود الَّذِي يختم عليه فيقبل الصورة قبول الشمع، وتوجد رائحة قصره من عشرة فراسخ، وَالَّذِي يسجد له إمام البُدِّ الَّذِي وزنه أَلْف ألف مثقال من الذهب، وعليه مائة ألف حجر من الياقوت الأحمر والدر الأبيض، وَالَّذِي ركب بالسعادة في ألف مركب وألف راية مكللة بالدر والجوهر، وتحت كل راية أَلْف فارس معلمين بالحرير والذهب، وَالَّذِي في مربطه أَلْف فيل خراطيمها أَعَنَّة الذهب، وَالَّذِي يأكل في صحاف الجوهر على موائد الدُّر، وَالَّذِي في خزانته أَلْف تاج وألف حلة جوهر لأَلْف ملك من آبائه، وَالَّذِي يستحيي من الله أن يراه خائباً في رعيته إذ اختصه بالأمانة عليهم والرئاسة فيهم، إلى عبد الله ذي الشرف والرئاسة على أهل مملكته، أما بعد؛ ما تقدم به ذكرنا أيها الأخ من الملك والشرف والثروة ممّا خطر ما ترتحل به الأوقات، وتجري الساعات ذهاباً وزوالاً عند الخطر الَّذِي يجب على المستودعين من الله سبحانه فضيلة العقل الاعتداد به والمكاثرة فيه، ولكننا جرينا على ما جرت به سَنَّة الملوك، ولم يجهل أن الله له الشرف الَّذِي يفوت الألسن ذكره فإن الابتداء بتمجيده من أفضل الاعتداد، ولكننا أجللناه عن الافتتاح بذكره إلا في مواطن المناجاة

له عابدين، وأخبارك ترد علينا بفضيلة لك في العلم لم نجدها غيرك، ونحن شركاؤك في المحبة والرغبة، وإن لك في أفئدتنا من ذلك ما لم نزل به بالله بالفضل ذاكرين، وقد استفتحنا استهلال بأن وجهنا لك كتاب ترجمته بسمته، وبعثنا إليك لطفًا بقدر ما وقع منا موقع الاستحسان له، وإن كان دون قدرك.

ونحن نسألك أيها الأمير! أن تُنعم في ذلك بالقبول، وتوسع عذرًا في التقصير، وكانت الهدية جام ياقوت أبيض فتحه شبر في غلظ الأصبع مملوءًا درًا، وزن كل درّة مثقال، والعدد مائة درة، وفراشًا من جلد حية تكون بواد الدهراج تبتلع الفيل، ووشي جلدھا دايرات سود كالدرهم، في أوساطها نقط بيض لا يتخوف من جلس عليها السُّل، وإن كان به سل، وجلس عليها سبعة أيام برئ، ومصلیات ممتلئة وسائدها من جلد طائر، يقال له: السَّمندل، إذا طرحت ريشه في النار لم يحترق فراوزها درّ، ومائة مثقال عود هندي يختم عليه؛ فيقبل الصُّورة، وثلاثة آلاف مثقال كافور محبب مثل اللوزة، وجارية طولها سبعة أذرع تسحب شعرها، لها أربع صفائر، وكل شفر من أشفار عينيها أصبع، إذا أطرفت بلغ نصف خدها، ناهدًا لها ثمان عكن، وهي في نهاية الحسن والجمال ونقاء البياض.

وكان الكتاب مكتوبًا في لحاء شجرة تنبت بالذهب، يقال لها: «الكادي»، لونه إلى الصفرة، والخط باللازورد، مُفَتَّح بذهب.

فأجابه المأمون يقول: من عبد الله الإمام المأمون بالله أمير المؤمنين الذي وهب الله له ولاية الشرف بابن عمه النبي المرسل ﷺ، والتصديق بالكتاب المنزل، إلى ملك الهند، وعظيم من تحت يده من أركان المشرق سلام عليك، فإني أحمد الله إليك الذي لا اله إلا هو، وأسأله أن يصلي على نبيه، وصل كتابك؛ فسررت لك بالنعمة التي ذكرت،

ووقع مداحك إيانا الموقع الَّذِي أملت من قبول ذلك، ولولا أن السُّنَّة جارية بترك تقديم من لم يكن لنا على الشريعة مواليا ما تركنا ما يحسن من مبرِّتك بالتقديم، والاعتذار بهذا أحد المتقدمين، وأنت له منا أهل، وقد أهدينا لك كتابًا ترجمته ديوان الأدب، وبستان نوادر العقول، ومطالعتك مودعة يحقق عندك فضيلته، وجعلنا لذلك عنوانًا من الهدية، وهو لُطف استقللنا قدرها لك، ولو كانت الملوك تهداها على أقدارها؛ لما اتسعت لذلك خزائنها، وإنما تجري في ذلك على قدر ما يدلُّ على النية بالتوطين إن شاء الله تعالى.

وكانت الهدية فرسًا بفارسه، وجميع آلاته من عقيق، ومائدة جزع فيها خطوط سود، وحرر على أرض بيضاء، وفتحتها ثلاثة أشبار، وغلظها أصبعان قوائمها من ذهب، وخمسة أصناف كسوة ثياب مصر، وخز السوس، ووشى اليمن، وملجم خراسان، والديباج الخسرواني، وفُرْش قُرْمُز، وفُرْش حمر، ومائة طنفسة إبريسم بوسائدها كل ذلك خز، وفُرْش خز نوسي مائة قطعة من كل صنف، وجام زجاج فرعوني فتحه شبر، في وسطه صورة أسد، وأمامه رجل قد برك على ركبتيه، وفوق السهم في القوس نحو الأسد؛ وكانت المائدة والجام مِمَّا أُخِذَ من خزائن بني أمية، وكان الكتاب في طومار ذي وجهين.

وغلظ الخط أصبغ ذكرنا هذه الحكاية لما وصفنا من صفة الجارية الهندية والسندية تزيين المشرق والجنوب، وهن قريبات الشبه بالهنديات لمتاخمة بلادهم غير أن السِّنديات يتفرَّدون بدقَّة الخصور وطول الشعور.

عن جعفر بن زياد قال: عشق إبراهيم بن سيابة مولى بني هاشم جارية سوداء؛

فلاموه على ذلك، فقال:

يكون الخال في وجه قبيح فيكسوه الملاحاة والجمالاً

فكيف ألام في حبّي فتاة أراها كلها في العين خالاً^(١)

قال أبو شبل: كانت لي جارية سنديّة اسمها سكر، فدخلت يوماً إلى منزلي، ولبست ثيابي، لأمضي إلى دعوة دُعيت إليها؛ فقالت لي سكر: إلى أين تمضي؟ فقلت: إلى دعوة؛ فقالت: أقم في دعوتي؛ فأقمت عندها، وقلت فيها:

أنا في دعوة سكر والهوى ليس بمسكر

كيف صبري عن غزال وجهه دلو مقير^(٢)

فلما سمعت البيت الأوّل، فرحت وسُرّت به، فلمّا أنشدتها البيت الثاني قامت إليّ تضربني، وتقول: هذا الآخر الَّذي فيه دلو مقيرٌ لملك لولا الفضول، وما زالت، والله تضربني حتى غشي عليّ.

والمدنيّات: سمر الألوان قوامهن معتدل قد اجتمع لهنّ حلاوة القول، ونعومة الجسم، وملاحة، ودلٌّ، وحسن، وشكل، وبشرة، لا غيرة فيهن على الرجال، فنوعات بالقليل، لا يغضبن، ولا يصخبن، ويوجد فيهن الخفيفات الرّوح، ويصلحن للقيان.

والطائفيات: سمر مذهبات مجدولات، أخف خلق الله أرواحاً، وأحسنهم فكاهةً ومزاجاً، أمهات أولاد، ويكسلن في الحبل لفساد الهضوم، ويهلكن عند الولادة، وهن أشدّ الناس تحبباً، وأذوقهن عشرة، وأحسنهم غناء.

والبيانيات: في حسن المصريات، وخلق البربريات، وشكل المدنيّات، وهن

(١) البيت من الوافر، وهو لبشار بن برد في «التشبيهات» لابن أبي عون ص (٣٨٤)، و«نهاية الأرب في فنون الأدب» ص (٥٨٠)، ولإبراهيم بن سيابة في «الوافي بالوفيات» ص (٤٠٥٥).

(٢) البيت لأبي شبل عاصم بن وهب في «الأغاني» (٩٢١٣/١٤).

أمهات أولاد، حسان الوجوه، أشبه شيء بالأعراب، ومعظم جوار الخلفاء اللواتي ضربت الأمثال ببراعتهن، وبلغن عندهم المبلغ العظيم، يمانيات، وطائفيات، ومدنيات، مولدات العرب.

والجليات: هنّ المولدات بالجلّة بأرض العراق، وهن مولدات العرب، أطيب النساء متعة، وأعجبهن خلوة، وإذا سُبِق إلى البكر منهنّ؛ قبل بألف العهد، وتعتاد الفحش؛ فهي الغاية في هذا الباب.

والبربريات: من جزيرة بربرة، وهي بين الغرب والجنوب ألوانهم على الأكثر سود، ويوجد فيهن الصفراء، وإذا وجدت فيهن الكتامة الصباحية الأب المصمودية المنشأ؛ فإنها تصادفها مطبوعة على المواتاة في كل أمر، وهن نشيطات للخدمة، يصلحن للولد واللذة؛ لأنهن أحذر شيء على ولد.

وقال بعض سماسرة هذا الشأن: إذا اجتمع للبربرية مع جودة الجنس أن تُجلب، وهي بنت تسع حجج ثم كانت بالمدينة ثلاث حجج، وتكبر ثلاث حجج ثم جاءت إلى العراق بنت خمسة عشرة سنة؛ فكانت في العراق في الأدب عشرة سنين، ثم ملكت ابنة خمسة وعشرون سنة التي جمعت إلى جودة الجنس شكل المدنيات، وخُبث المكّيات، وأدب العراقيات، استحققت أن تُحَبّى في الجفون، وتوضع في العيون.

والزربحيات: من بلدة يقال لها: «زربح»، بينها وبين مدينة المليان مسيرة شهرين والمليان وسط الهند، وخاصّة هذا الجنس، إنّهن إذا بوشرن فَعَزَقن بدمائهن عرق كالمسك، لكن لا يصلحن للولد.

الزنجيات: مساوئهن كثيرة، وكلما زاد سوادهن، وقبحت صورتهم، وتحدت أسنانهم؛ قل الانتفاع بهنّ، وخيفت المضرة منهنّ، والغالب عليهن سوء الأخلاق، وكثرة الغمّ والهَمّ، وليس في طبعهن سوى الإيقاع والرّفُض، ويقال: لو وقع الزنجي من السماء إلى الأرض ما وقع إلا بإيقاع.

وهنَّ أنقى النَّاسِ ثغورًا لكثرة الرِّيق، وكثرة الرِّيق لفساد الهضوم، وفيهنَّ جلد على الكدِّ، والزنجي إذا شَبِعَ، فُصِبَّ عليه العذاب صَبًّا؛ فإنه لا يتألم، وليس فيهنَّ متعة لِصُنَانِهِنَّ، وخشونة أجسامهنَّ.

والحبشيَّات: الغالب عليهنَّ نعومة الأجسام ولينها وضعفها، يتعاهدنَّ السِّلَّ والدَّقَّ، ولا يصلحنَّ للغناء، ولا يوافقهنَّ غير البلاد التي نشأت فيها، وفيهنَّ مباشرة وخيرية وسلامة انقياد، يصلحنَّ للائتمان على النفوس، تُخَصُّهِنَّ قوة نفس، وَضَعْفُ أجسام كما يُخَصُّ النوبة قوة الأجسام على دَقَّتْهَا، وضعف النفوس، قصار الأعمار لسوء الهضم.

والمكيَّات: حسان مواتيَّات، ألوانهنَّ إلى البياض المشرب بسمرة، وشعورهنَّ جعدة، وعيونهنَّ مراض فاترة.

والزغاويَّات: رديئات الأخلاق، وذوات دمدمة؛ لحملهنَّ غلظ الأكباد، وشره الطباع على عظم الأفعال، وهنَّ شر من الزنج، ومن جميع أجناس السُّودان لا يصلحنَّ للمتعة، ورجالهنَّ لا يصلحنَّ للخدمة.

والنحاويَّات: هنَّ فيما بين الجنوب والغرب في الأرض التي بين الحبشة والنوبة، مذہبات الألوان، حسان الوجوه، ملس الأجسام، ناعمات البشرة، جوارى متعة، إن جلبت إحداهنَّ صغيرة، وقد سلمت من أن ينكل بها؛ فإنهنَّ يقررن، ويمسح بالمواشي ما على فروجهنَّ، حتى يبدو العظم، فيصرنَّ فظيعات المنظر، ويقطعون أئداء الرجال.

وقيل: الرَّصفة من الركبة، يعني: الناعي منهم زعموا، والسرقه فيهم طبع؛ فلهذا لا يجوز أن يؤمنوا على مال، ولا تصلح الجوارى مِنْهُنَّ أن يكنَّ خازنات.

وأما الحبشة؛ فكثير منهم يعلقون أنفسهم، ويعلقون أولادهم، وذلك أنهم يُرْكَبون للخيل عارية لا يضعون عليها سرجًا، ولهم من الخيل ما يفوق خيل العرب في المرح، والقوة والثوب، فيخاف أحدهم حين يشب إلى ظهر الفرس أو يشب به الفرس أن يحصل إحليله تحته، فكثير منهم قد كان هلاكهم شبه ذلك، وذلك أن إحليل الأسود وساقه طويلتين.

والنوبيات: من جملة السودان ذوات ترف ولطف، وأبدانهن يابسة مع لين البشرة، وقوة مع دِقَّة وصلابة، وهواء مصر يوافقهن؛ لأنَّ ماء النيل شُرْبُهُن في بلادهن، وإذا انتقلن عن مصر، تسلطت عليهن العلل الدموية، ويسير الأذى يقدر في أجسامهن، وإلا فأخلاقهن ظاهرة، وأجسامهن لينة، وصورهن مقبولة، وفيهن دين وحرية وعفة وتَصَوُّن، وإذعان للموالي، كأَنَّهن فُطرن على العبودية. والقندهاريات: في معنى الهذيات، ولهن فضيلة على كل النساء؛ فإن الثيب منهنَّ تعود كالبكر.

والديلميات: حسان المنظر، جميلات المخبر، غير أَنَّهن أسوأ النساء أخلاقًا، وأغلظهن أكبادًا، وفيهن صبر على الشدة كالطَّبريات في كل حال.

واللابيات: ألوانهن مشربة بحمرة، وأفرجهن يغلب عليهن البرد، وهن للخدمة أصلح منهنَّ للمتعة؛ لأنَّ فيهن خيرية طبع وثقة، وحرص على المحافظة والموافقة، وهن قليلات الشبق.

والتركيات: قد جمعن الحسن والبياض والمتعة، وجوههن ماثلة إلى الجهامة، وعيونهن وصغرها ماثلة إلى الخلاوة، وقد يوجد فيهن السمرء الأسيلة الخدين، وقدودهن ماثلة في الرفع والقصر والطول فيهن قليل، ملتحن غاية، وقمحتن آية، وهن كنوز الأولاد، ومعادن النسل، قلما يتَّفَق في أولادهن وحش، ولا رديء التركيب

ولا جبان، وفيهن نظافة ولباقة وقوة شبق، معدهن جيدة الهضم لا يكاد يوجد فيهن نكهة متغيرة، ولا من له عجيذة عظيمة، ولهن أخلاق سمحة، وقلة وفاء، والحسنة منهن إذا جلبت صغيرة ورُبيت؛ فهي أبعد عن الشر، فأما التي تجلب كبيرة، وتكون مع جمالها قوية؛ فالخلوة بها من أعظم الخطر لمن كان شيخاً ضعيفاً أو قليل البطش.

حدثني جارية لي أن الذي جلبها نزل بها في خان في بعض مراحلها في مدينة من مدن خراسان، وكان في بعض حجر الخان شيخ تاجر كثير المال والتجمل معه زوجته، وله عدة جوار تركيات منهن واحدة فائقة الجمال، وكان التاجر في كل ليلة يشرب مع صاحب المدينة، وينصرف وقت النوم، وبين يديه قوم يشيعونه إلى منزله، فراوده الأمير في بعض الليالي في بيع الجارية الحسنة على الخمر فامتنع، وجعل كلما أسنى له العطية، وبالغ في التوسل لا يجيبه إلى بيعها ثم انصرف إلى منزله الذي بالخان وقت منامه، ونام تلك الليلة مع الجارية في حجرة غامضة داخل الحجرة التي تسكن فيها زوجته وجواريه.

وكانت تلك الجارية قد سمعت برغبة الأمير فيها، وأن مولاها غير مسامح في بيعها، فأغلقت الباب عليها وعليه، وقد وقع من النوم والسكر، وطمعت فيه، فأقبلت عليه، فأوثقته كتاباً سجل قد أعدته، ففطنت بها جارية من جواريه؛ لأنها ارتابت منها لما أغلقت الباب عليها وعلى مولاها، وقفلته فما زالت قائمة تنظر من شق الباب حتى رأتها قد فعلت ذلك ثم أنها استخرجت سكيناً من كمرانه، وأقبلت عليه ضرباً في عنقه، وقطعاً في أوداجه؛ فأسرعت الجارية إلى ابنة عم مولاها صارخة فقامت والجواري، وصحن في الجارية وهددنها، وهي لا تكف عنه حتى قتلتها، وكان الباب وثيقاً لا ينكسر سريعاً، فما قدروا على كسره إلا بعد هلاكه بساعة، فلم تحفل بهم حين دخلوا عليها لقوة قلبها بأنها بغية صاحب المدينة، فأكبت عليها ابنة عمه ضرباً، وساعدها الجواري، فأوثقوها كتاباً.

ووافي أصحاب الأمير ورسله يشفعون إليها في الجارية، ويطلبونها منها بحكمها، وكانت ابنة عم التاجر امرأة ذلقة اللسان، فما استطاعوا خلاص الجارية من

يدها، وهددتهم بأنواع الشناعات والتشويهات بنفسها إن أخذوها منها، فمكنها السلطان منها، فقطعت أطرافها، وقلعت عينيها وفرجها، في مجمع من الناس، وتركتها حية، فعاشت سبعة أيام تسأل الناس الطّعام حتى ماتت.

ذكرت هذا الخبر لما فيه من الوعظ لمن اعتاد أن يثق بالتركيّات على نفسه. فأما غدرهن وميلهن إلى الفساد والتعشق للأتراك والمرد؛ فأعرفُ منه حكايات وقصصًا جرت لجوار جماعة من الوزراء والأمثال أكره ذكرهم؛ فإنهن لو شاهدن كلبًا أو خنزيرًا على رأسه طربوش كان أثر عندهن من بدر الدجى في عمامة، فسبيل من عاشرهن ألا يلقاهن في عمامة مهما استطاع.

والرُّوميات: بيض شقر، سباط الشعور، زرق العيون، ذوات طاعة وولاء وموافقة وخدمة ومناصحة ووفاء ومحافضة وأمانة، يصلحن للخزن لضبطهن، وقلة سماحتهم، لا يخلو أن يكون بأكفهن صناعة دقيقة.

والأرمنيات: لهنّ الملاحه لولا ما خصوا به من وحشة الأرجل، وبهن شدة أسر وقوة، والعفة فيهن قليلة أو مفقودة، والسرقة فيهن قاسية، وقلما تجد فيهن بخل، وفيهن غلظ طبع، وليست اللطافة في لغتهن، وهن عبيد كد وخدمة، متى نُهيه العبد منهن ساعة بغير شغل؛ لم يدعه خاطره إلى خير، لا يصلحون إلا على العصا والمخافة، ليس لهنّ فضيلة غير تحمل العناء والأعمال الثقيلة.

والواحد منهم إذا رأيته كسلان؛ فذلك لعنة فيه ليس عن عجز قوة فدونك والعصا، وكن مع ضربه وانقياده لما تُريدُ على حذر؛ فإن هذا الجنس غير مأمون عند الرضا فضلاً عن الغضب، ولتوسط بلادهم في بلد الإسلام؛ فهم أطمع الرقيق في الحرب، والعودة إلى الوطن، وجملة الأمر أن الأرمن شرُّ البيض كما أن الزنج شرُّ السود، وما أشبه بعضهم ببعض في قوة الأجساد، وغلظ الأكباد، وكثرة الفساد.

الباب الخامس من الجملة العاشرة

في التحرز من تلبيسات النّخاسين

التي يُدّلس بها في مواسم الرقيق على المشتري

أَمَّا الَّذِي يَفْعَلُونَهُ فِي تَغْيِيرِ الْبَشَرَةِ؛ فَإِنَّهُمْ يَصَيِّرُونَ الصَّفْرَاءَ ذَهَبِيَّةً بِوَضْعِهَا فِي أَبْزَنِ مَاءِ الْكُرُوبَا أَرْبَعَ سَاعَاتٍ مِنَ النَّهَارِ.

وَأَمَّا الدَّرِّيَّةُ اللَّوْنُ فَيَصَيِّرُونَهَا بَيَاضاً إِذَا غُمَزَ وَجْهَهَا بِبَاقِلَاءٍ قَدْ نُقِعَ فِي بَطِيخٍ سَبْعَةَ أَيَّامٍ، وَنُقِلَ إِلَى لَبَنٍ حَلِيبٍ أَيَّامٍ، وَغُيِّرَ اللَّبَنُ عَلَيْهِ كُلَّ يَوْمٍ.

وَأَمَّا مَا يُحْمَرُّ الْخُدُودَ الْمَصْفَرَّةَ؛ فَهُوَ غَسُولُ هَذِهِ صَفْتُهُ: دَقِيقُ الْبَاقِلَاءِ وَالْكَرْسَاءِ فِيهِ أَجْزَاءُ عُرُوقِ الزَّعْفَرَانِ وَبُورُقٍ وَحَنَاءٍ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ رُبْعَ جُزْءٍ.

وَأَمَّا السُّودَانُ فَيُدْهَنُ أَطْرَافُهُنَّ وَوُجُوهُهُنَّ بِدُهْنِ الْبَنْفَسِجِ.

سَمِعْنَا رَبَّاتِ الْقُصُورِ تَقُولُ: الَّذِي يَكْسِبُ الشُّعُورَ الشُّقْرَ السَّوَادَ الْخَالِكُ؛ فَدُهْنُ الْآسِ، وَدُهْنُ قُشُورِ الْجُوزِ، وَغَسْلُهُ بِالْأَمْلِجِ، وَدُهْنُهُ بِدُهْنِ الشَّقَاتِقِ، وَيَجْعَدُ الشُّعُورَ السَّبِطَةَ عَلَقَهَا بِالسَّدْرِ وَالزَّادِرَخْتِ.

وَمِنْ عَادَةِ النَّخَاسِينَ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَطُولُوا الشُّعُورَ أَنْ يُوَصِّلُوهُ بِضْفِيرَةٍ مِنْ جَنْسِهِ، وَإِذَا أَرَادُوا الْوَضْعَ مِنَ الْإِمَاءِ أَلْصَقُوا فِي الْأَصْدَاغِ شَعْرًا أَبْيَضَ لِيَحُثَّ الْبَائِعُ عَلَى قَبْضِ الثَّمَنِ، وَيَزِيلُونَ الشَّعْرَ عَنِ الْوَجْهِ وَالْأَطْرَافِ بِالْمَنْقَاشِ أَوْ بِالنُّورَةِ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَطْلُونَهُ بِبَيْضِ النَّمْلِ أَوْ بِدُهْنٍ قَدْ طُبِّخَ فِيهِ ضَفَادِعُ خَضْرَاءٍ أَوْ عَضَايَةِ أَوْ دَمِ الْأَرَانِبِ دَفْعَاتٍ كَثِيرَةً، وَيَغْلَى بِالشَّبْتِ وَالْبُورَقِ الْأَخْضَرِ.

وَعَادَتُهُمْ أَنْ يَسْمُنُوا الْوُجُوهَ الْهَزِيلَةَ، وَالرَّوَادِفَ الْمَسْوُوحَةَ، وَالسِّيْقَانَ الْمَعْرِقَةَ، بِالذَّلَكِ بِالْمَنَادِيلِ الْخَشْنَةِ، وَالْأَدُهَانَ الْحَارَةَ، وَالطَّلَاءَ بِالْعَاقِرِ قَرَحًا وَالْخِرَاطِيمَ الْمَعْرِقَةَ. وَيَنْعَمُونَ الْأَطْرَافَ الْخَشْنَةَ بِالذُّهْنِ وَالشَّمْعِ وَاللُّوزِ الْمَرِّ، وَلِخَلْجَةٍ مَعْمُولَةٍ بِهَاءٍ

الورد ودُهْن البنفسج، وترك مباشرة الأجسام الخشنة كالخشب والحجارة وهجر المآكل المولدة للمرّة.

ويدهنُون آثار الجدري والنَّمش والوشم بغسول معمول من عروق القصب واللوز المرّ والكرسنة والباقلاء وحب البطيخ معجون بغسل ما يَحْضِب البرص القلفديس والعفص والزنجار من كل واحد جزء ويعجن بهاء ولبن التبن ويغَرَز بإبرة، ويطلّى أربعة أيام في الشمس حتى يبقى أربعين يومًا، ويطلّى بمري وخل ما يغسل به الخضاب من البرص خل واتنان مغلي وماء القلا والبورق أو ناطف وماءٍ حارٍ.

وما يقل القمل والصبيان من الشعر والبدن يُغسل بالبورق، وماء السَّلَق أو درديّ الخل والشراب والصابون ما يزيل الكلف من البشرة الشويز، وأصل قثاء الجمان وورق الخبازي، وبزر الجرجير وأصل الكرم يعجن بغسل ويُطلّى به.

ما يُزيل الشعر الَّذِي يكون في أصل الأظفار غسلها بالعسل والخل والمرتك أو دُهْن الورد واللوز، ويعالج البرص فيها بالزرنينخ والكبريت.

ما يطيبّ الفم والنَّكهة مضغ العود الرُّطب والكسفرة والفوفل وقشور الأترنج، والمضمضة بالخمر وماء الورد والعود المنقوع في الشُّراب، وأكل اللبن بعد الطَّعام والصحناء أيضًا.

ما يزيل روائح الأنف السُّعوط بدُهْن المزننجوش والبنفسج واللينوفر والنرجس والياسمين.

ما يجلو الأسنان السواك بالأشنان والسُّكَّر وسحيق الدار صيني أو الفحم والملح المدقوق.

ما يُطَيَّب الجسد الصندل والورد والمرتك المربّي بهاء الورد والبخور

والرياحين، وبخلط الثياب المعبقات المعمولة من الرياحين على التفاح والفواكه مَبْخَرَةً بالكافور.

ما يُضَيِّعُ البياض العارض في سواد العين يقطر لبن أتان حار في العين، ما يستعمل في الثيب لتصير كالسكر، فلولق الرُّمَّان الحامض وعفص أخضر يعجن بمرارة البقر وتحمل به.

ما يغيِّر به زرقه العين لتصير كحلاء يُقَطَّرُ فيها ماء قشر الرمان.

ما يُخْفِي الحمل وصايا النخاسين للجارية أن تعتمد الشَّداد، وتُظْهِر الدم الكاذب المصنوع من ماء الصَّمغ ودم الأخوين، هذا إن لم يكن يمكنها إعداد دم حيوان، ما يُتَعَرَّف به الحمل هل ذكر هو أم أنثى؟

وهذا يتبين بأن يُقَدَّر بخيط في وسط المرأة إلى وسط الفقارة المحاذية لها، ويعلم المكان بمداد، وتديره من الجانب، فإن نقص الخيط عن العلامة من الجانب الأيمن؛ فهي بذكر، وإن طال فبأنثى.



ما يوصي به النخاسون الجارية

أن يصرفوا العناية كلها إلى النظافة والطيب والتبرج للمشتري تارة والاختفاء تارة؛ فإن هذا باب من التحبب مالك للقلوب.

ومن وصاياهم لهنَّ أن يظهرنَّ أجمل ما فيهنَّ ويخفينَّ أقبح ما فيهنَّ.

ومن وصاياهم لهنَّ أن يدارين المشايخ والنَّافري الطباع، ويستميلوهم ويتحبين الشباب ويمتنعن عليهم ليتمكننَّ من قلوبهم.

ومن ذلك ما يعتمدون في ملابسهم؛ فإنهم يلبسون الأبدان الخضبة البيض الغلائل الشفافة الخفيفة الكحلية والموردة والسَّوداء الغلائل والحر والصفرة، ويجرون الصناعة مجرى الطبيعة في كشف العقل بالمتضادات من ألوان الزهر.

وما يلزموهن به من تحمير خدودهن بالمساح، وخضاب حواجبهن بالرامك وأطرافهن؛ فإن كانت الجارية بيضاء بالخضاب الأخضر، وإن كانت سوداء بالذهبي والأحمر، وإن كانت صفراء بالأسود.

ومن ذلك إلصاقهم الشعر المنقلب في العين بالمصطكي والصَّمغ العربيَّ أو أخذ الشعر بالمنقاش.

ومن ذلك ما يوصون به الجارية الناقصة اللون من إدامة ذلك وجهها بيدها كل ساعة عند مغافلتها للجلساء؛ لينجذب الدم إلى وجهها فيحمر، ويأمرونها بتقريض شفتيها وامتصاصها كل ساعة حتى تحمر، واللواقي بهنَّ مبدأ الدَّق يوصونهن بغسل أطرافهن بالماء البارد في النهار مرات كثيرة، وأن يظهرن أن ذلك منهنَّ إنما هو من لمبالغتهن في النظافة.

الجملة الحادية عشرة في التزويج

وهي أربعة أبواب:

الباب الأول من الجملة الحادية عشرة

في الصفات المحمودة من النساء^(١)

الرجلة الضخمة على اعتدال، والسبحلة الضخمة التي لم يشتها اللحم،
والخميلة الوصية التي بها مسحة من جمال الحسانة المليحة التي تشبه بعضها بعض،
والغانية التي استغنت بجمالها عن الزينة، والمغطال التي لا يبالي من حسناتها تجلت،
وتلبّست أم لا، والوسيمة التي حسناتها ثابت كأنه قد وسم، والقسيمة التي قسم لها حظ
وافر من الجمال، والرائعة التي تروع المنظر إليها، والحدود الشابة الحسنة الخلق،
والممكورة الدفقة المحاسن المثلثة الجسم، والخزعة الحسنة القدّ اللينة العصب،
والهيفاء، والقباء، والحمصانة اللطيفة البطن المشوقة الخصر الممتدة القامة الوركانة
العظيمة الوركين، والرداح العظيمة العجيزة، والحدلجة المثلثة الساقين والذراعين.

والمزهة التي ترعد من الغضاضة والنضارة، والرقاقة التي كأن الماء يجري
في وجهها من حسناتها، والنضة الناعمة الرقيقة البشرة بيضاء كانت أو سمراء، والفيق
التي تعرف في وجهها نضارة النعيم والأنارة الوهانة التي كان فيها فتور عند القيام
لسمنها، والهنانة الطيبة الروائح، العبهرة العظيمة الخلق مع الجمال، والرودة السريعة
الشباب، والغيلم الحسناء المرودة، العيطموس^(٢) الحسنة الطويلة.

والعبرة الجميلة الناعمة، الغيداء، والغادة المنشية من اللين والنعمة الرشوف،

(١) انظر في هذا الباب «المخصص» لابن سيده (١/٣٠٠).

(٢) العيطموس: التامة الجمال.

والطيبة الفم، اللعوب الضحك، الفرعاء التامة الشعر، الدرماء التي لا تُرى كُعوها
لكثرة اللحم، والأملود الناعمة، والخريع اللينة مأخوذة من نبت الخروع، وهو كل نبت
لين، والشُر عوفة الطويلة الناعمة، وكل ناعم سرعوف، والمزمورة والمرارة التي ترتج.
والعطولة الطويلة العنق، وكذلك العطبول، والعنطاء، والعنقاء الحمرة
[والجهدة] ^(١) المرأة الخفية، الرخيمة المنخفضة الصوت، العروب، المحبة لزوجها،
المتحبة إليه، النوار النفور لريبه، القَدور التي تتجنب الأقدار من الأفعال الحسان، المرأة
العفيفة الصانع، المعاملة الكفين، النثور الكثيرة الولد، البروك التي تتزوج وابنها رجل،
المُثيلة التي تقوم على ولدها بعد موت زوجها ولا تتزوج.

ومن محاسن الحاجب الزجاج، وهو دقة الحاجبين، وامتدادهما كأنهما خطاً بقلم،
والملاح وهو أن يكون بينهما فرجة، والعرب تستحب ذلك، ويكره القرن، وهو اتصاهما،
والدَّعج شدة سواد العين مع سعة المقلة، البرح شدة سوادها وشدة بياضها، النحل
شدة سعتها، الحور اتساع العين، الوطف طول أشفار العين، برد الأسنان واستوائهما
وحسنهما، المزيل حسن تصيدها واتساقها، والظلم المائية التي تجري على الأسنان من
البريق لا من الريق، الجيد طول العنق، الصباحة في الوجه، والوضاءة في البشرة،
والجمال في الأنف، والحلاوة في العينين، والملاحاة في الفم، والظرف في اللسان،
والرشاقة في القد، واللباقة في الشمائل، وكمال الحسن في الشعر، الشمم ارتفاع قصبة
الأنف مع استواء أعلاها، والقنا طول الأنف ودقة أرنبتها، والدلف شخص طرفه مع
صغر أرنبته، النهادي مشية المرأة السمينية والشيخ الضعيف والصبي الصغير،
والاختيال والتبختر مشية المرأة المعجبة والرجل المتكبر.

وأحسن ما قيل في الحياء قول عبد الله بن الدُّمينة حيث يقول:

بِنَفْسِي وَأَهْلِي مَنْ إِذَا عَرَضُوا لَهُ بِبَعْضِ الْأَذَى لَمْ يَدْرِ كَيْفَ يُجِيبُ
وَلَمْ يَعْتَذِرْ عُذْرَ الْبَرَى وَلَمْ يَزَلْ بِهِ صَعَقَةٌ حَتَّى يُقَالَ مُرِيبٌ^(١)

وقال الشنفرى:

كَأَنَّ لَهَا فِي الْأَرْضِ نِسِيًّا تَقْصُهُ إِذَا مَا مَشَتْ وَإِنْ تَكَلَّمْتَ تَبْلُتُ^(٢)

يقول: كأن لها في الأرض شيئاً قد نسيت؛ فهي تقص أثره تطلبه لا ترفع رأسها
ولا تتلفت، وإن كلمتها حارت، فلم تدر ما تقول لك.

وقال جرير بن عطية:

مَا اسْتَوْصَفَ النَّاسُ عَنْ شَيْءٍ يَرَوْفُهُمْ إِلَّا أَرَى أُمَّ عَمْرٍو فَوْقَ مَا وَصَفُوا^(٣)

وقال عبد الله بن المعتز:

كَمَّلَ الْحُسْنَ وَالْمَلَاَحَةَ فِيهَا خَالِقُ هَزْ غُصْنَهَا تَحْتَ بَذْرِ^(٤)

وقال آخر:

مَا الْحَلِي إِلَّا زِينَةٌ لِنَقِيصَةٍ يَتِمُّ مِنْ حَسَنِ إِذَا الْحَسَنِ قَصَّرَا

(١) البيت من الطويل، وهو لابن الدمينية في «الشعر والشعراء» ص (٨٣٠)، و«الأشياء والنظائر» ص (٤٣٠).

(٢) البيت من الطويل، وهو للشنفرى في «لباب الآداب» لأسامة بن منقذ ص (٥٦٠)، و«محاضرات الأدباء» ص (٣١٦٠).

(٣) البيت من البسيط، وهو لجرير في «التذكرة الحمدونية» ص (٣٢٩١)، و«الزهرة» ص (١٦١).

(٤) البيت لابن المعتز في «أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم» للصولي ص (٣٩٩).

وأما إذا كان الجمال موفراً كحسنك لم يحتج إلى أن يزوروا^(١)

وقال المتنبي:

نَشَرْتُ ثَلَاثَ ذَوَائِبٍ مِنْ شَعْرِهَا فِي لَيْلَةٍ فَأَرَّتْ لِيَالِي أَرْبَعًا

وَاسْتَقْبَلَتْ قَمَرَ السَّمَاءِ بِوَجْهِهَا فَأَرَّتَنِي الْقَمَرَيْنِ فِي وَقْتٍ مَعًا^(٢)

وقال علي بن محمد التهامي:

لَوْ لَمْ يَكُنْ أَفْحُوَانًا نَغُرُّ مَبْسِمِهَا مَا كَانَ يَزْدَادُ طَيِّبًا سَاعَةَ السَّحَرِ

يَحْكِي جَنَا الْأَفْحُوَانَ الْغَضَّ مَبْسِمُهَا فِي اللَّوْنِ وَالرَّيْحِ وَالتَّفْلِيحِ وَالْأَشْرِ^(٣)

وقد أحسن أبو تمام في قوله:

هِيَ الشَّمْسُ يُغْنِيهَا تَوَدُّدُ وَجْهِهَا إِلَى كُلِّ مَنْ لَاقَتْ وَإِنْ لَمْ تَوَدِّ^(٤)

(١) البيت لابن الجوزي في «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» للمقري التلمساني ص (٥٢٦٣).

(٢) البيت من الكامل، وهو للمتنبي في «الوساطة بين المتنبي وخصومه» لأبي الحسن الجرجاني ص (٢٣٣)، و«ديوان الحماسة» لابن أبي حجلة ص (٤٩٦).

(٣) البيت من البسيط، وهو للتهامي في «التذكرة الفخرية» ص (٦٣)، و«سر الفصاحة» ص (٤٦٩).

(٤) البيت من الطويل، وهو لأبي تمام في «أخبار أبي تمام» للصولي ص (٢).

الباب الثاني من الجملة الحادية عشرة

في الصفات المذمومة من النساء

[المفاسة]^(١) التي زاد لحمها في حدٍّ ما يكره، والعفصاج التي أفرط سمنها في استرخاء البطن، العَرَكَرَكَة كثيرة اللحم المضطربة الخلق، الرَّسحاء، والزَّلاء التي ليس لها عجيذة، وكذلك الرَّصعاء، والمرلاج المطرطة الطويلة الثديين في استرخاء، الجداء القصيرة الثديين جدًّا، القبيضة، والحنكلة والبهصلة القصيرة الذميمة، العقلق والرطوم الرديئة الخلق، اللَّخْءاء المنتنة الريح، ويقال لحر السعاء إذا تغير ريحه.

الضَّهْيَاء التي لا تحيض، وقيل: الضَّهْيَاء التي لا ثدي لها، و[الصعدة] التي تنبت، والدببية التي يسيل أنفها، والحقور التي تنعس، والقوم يتحدثون، واللَّفوت التي لها أولاد من أزواج شتى، والصيود التي إذا وضعت يدك عليها وجدت عظامًا، والزلقاء التي لا يستطيع بضاعها، والسليطة الحديدية اللسان؛ فإذا زادت سلاطتها صارت سلقانة.

والسلعفة البذيئة الفاحشة، والفارك والناشر المرأة تبغض زوجها، والفقرة القليلة اللحم، والعنصص البذيئة القليلة الحياء، والمجعة التي تتكلم بالفحش، والرصوف الصَّغيرة القدح، والمبداص الخفيفة الطيَّاشة، والكرواء الدقيقة الساقين، والسَّكعة الحمراء اللون، والصهصلق الشديدة الصوت المهرق الكثيرة الضحك، الزعر قليلة الشعر، والزيب كثيرة الحاجبين والقرن اتصالهما وهو مكروه، المرط والمِعْط تساقط الشعر من بعض أجزائها.

الخور غور العينين مع ضيقهما، الستر انقلاب الجفن، الحرر أن ينظر بمؤخر

(١) هكذا بالأصل.

عينيه، والعضران يكسر عينيه حتى بعض جفونه، القيل يكون كأنه ينظر إلى أنفه، وهو أهون من الحول، والحول أن تراه كأنه ينظر إليك، وهو ينظر إلى غيرك، والحفش صغر العينين وضعف البصر، والجهران لا يبصر بالنهار الروف طول الأسنان، الكشش صفرهما، الثعل تراكبهما وزيادة شرفيها، واللصص شدة تقاربها، والشفاء اختلاف منابتها.

والْيَلَلُ^(١) إقبالها على باطن الفم، الفقم تقدم السفلى على العليا، والفليج صفرتها، والطراسة خضرتها، القعم اعوجاج الأنف، العوكل والحومل والدوسر، والحد على كل ذلك المرأة الحمقاء، والمرأة المراسل التي قد مات عنها بعلها أو طلقها، واللَّفُوت التي لها زوج، ولها ولد من غيره؛ فهي تلتفت إلى ولدها، العانس تعجز ولا تتزوج، والطلقة التي لا تحظى من الأزواج.

الباب الثالث من الجملة الحادية عشرة

فيما يوصي الرجل المزمع على التزويج

اعلم أنه لم يفتتن النَّاسُ بشيءٍ افتتانهم بالنساء فكم من ملك منيع السلطان جعله الهوى ذليلاً خاضعاً، وكم من أبيٍّ كميٍّ أصاره العشق والطمع في الجماع إلى الهوان، وكم من زاهدٍ أفسدن عليه وقته، وعالمٍ مكينٍ جللته العار، وذو شرفٍ هدمن شرفه، ولذلك خص باستحقاق اسم الزُّهد من زهد فيهن كأئمة النصارى والمترهبة وبراهمة الهند.

والتزويج مكروه إلا لمن له امرأة ناصحة من أهله لحفظ الزوجة وتراقبها؛ فأماً أم الزوجة، فليست بأمانة على حفظ بنتها، وطالما تطلع البنت على عَهَرٍ من أمها، فتضطر أمها إلى مهادنة البنت بتمكينها ممَّا تؤثر، ورُبَّما فتحت لها باباً، وألزمتهما بالفجور، وأكرهتها عليه فكيف لها بصيانتها إذا حملتها الحمام، وأوقفت لها طريقها من يعاشرها، وينفذ لها اللؤلؤ والذهب والطَّيب والأطعمة عند خروجها إلى الفرج والزيارات.

وبالجملة فالنساء بين مفسدة بالقوة ومفسدة بالفعل؛ فالمفسدة بالفعل هي التي تمرنت على القبيح، والتي بالقوة مستورة، ولكن هي مستعدة؛ لأنَّ تلوي وجهها عن الصيانة، ولا تظن أن هذه صفة لأدوان النساء وبنات الفقراء بل ذوات النِّعم الجمَّة البَطِّرات، وأسر التَّنعْم والخفض والدَّعة هنَّ المستعدَّات، ولو سلَّمت الواحدة من رِبَّات التَّنعْم من آفات خاطرها وكفيت نفسها؛ لكانت دارها لا تخلو من أرمنية شبيقة، وحبشية قوَّادة، ومولدة عربية تسلس لها قياد الصَّعب الجموح بكلامها الَّذي تلقيه بين يديها حتى تتمشعر بحضرتها، وتمد صوتها بأصوات غناء من أشعار العشاق، وتتواجد عند ذكر الفراق، وتصرخ وتدَّعي العشق بين يدي مولاتها إذا أنست منها دماءة خُلِّق

هذا غير من يغشى الدَّار من الفقيرات الخادِمات والعجائز الَّتِي زَيَّنَّها، وأقبلن أمها حين ولدتها، ومن يزورها من الفقيرات والعالمات الَّتِي تقياد بهنَّ في القيادة، ويُطعن على النِّساء ليعلمهن السحق والنشوز، هذا غير من ترى من ممالكها وغللمان أبيها الَّذين ربَّوها، وطالما أَمَنُوا عليها وخلوها بها.

وأما مقرئ الدار؛ فلا سبيل إلى إنكار حضوره، هذا إذا سلمت من جار مراقب أو أمرد قد أعجبها من أقاربها؛ فإذا وصلت المرأة سليمة من هذه الآفات؛ فهي بمعرض أن تميل بها عنه امرأة تخلوها أو نظرة تحير منها، وقد صارت إلى بعضه.

فلا ينبغي لعاقل التزويج إلا أن يعدَّ لنفسه مخرجًا من الأمر الَّذي دخل فيه، وذلك ألا يكتب عليه صداقًا إلا وقد أعدَّه؛ فإن اتفقت الأخلاق ورضيها، وإلا يشتري نفسه من العذاب بالمهر، وقيل: الوصية وكل الوصية المهمة ألا يتزوج بمن لم يرها عدة مرات، ويسمع كلامها، ويرأها من قريب، ويجرب سترها متوليًا ذلك بنفسه، ويكره الرسول في هذه الأحوال، ولا يؤمن إلى رجل في الابتعاث عن المرأة في خير ولا في شرٍّ، ولا يعتمد العاقل على رسول غير نفسه في هذه الأحوال، ولا بأس بالرجل الشيخ المختبر الطريقة.

أنفذ بعض أمراء العرب رجلاً من بني عمه ليخطب امرأة له، فرأها الرسول، فهواها فعاد إليه، وقال: لا تريدها أيها الأمير، قال: ولم؟ قال: لأنني رأيت رجلاً يقبلها فأضرب عنها، فمضى ذلك الرسول؛ فتزوجها، فلما بلغ صاحبه استدعاه، وقال له: ويلك ألم تقل أنك رأيت رجلاً يقبلها؟ قال: بلى، أصلح الله الأمير، رأيت أباه يقبلها؛ فضحك، وعجب من حيلته.

وأما من يعجز حاله عن الصداق؛ فسييله أن يقتدي بالمغاربة؛ فإن أحدهم إذا

كتب على نفسه خمسون دينارًا صدقًا كتبها مؤجلة في كل سنة دينارًا، وما سبيل أحد من الفقراء يعدل عن مذهب المغاربة في هذا.

واعلم أن من يتزوج امرأة ذات أبوين باقين وإخوة؛ فقد اتخذ لنفسه منهم أعداء وخصومًا بالقوة، وذلك أنهم بصدد الاستعداد لذلك متى أغضبها، ولا بدَّ من إثارة أهلها عليه لتقديم تمكن إلها لهم وحقهم عليها، والمغرور المخدوع يصدقها إذا حلفت له أنه أحب إليها من أمها وأبيها وإخوتها، وإن تصورت هي أيضًا أن زوجها آثر عندها، فذلك لما قد غلب عليها في عاجل الحال من الانتفاع به، ومتى تشاققا واختلغا في أمر زالت الشبهة وظهر الميل إلى الأهل.

فأما نقلها عن أهلها ففي النادر أن يتهيا له بغير خصومات وعداوات وخسارات، وأكثر المقيمين في بيت حميهم لا ينفكون عن الغيظ والقوارض، وإن نقلها وقع في مشقة الاحتياط عليها وبعدها من السلامة، وكيف يمكن حفظها من الخدامة.

وأما اليتيمة الخالية عن الأهل؛ فقلما توجد سليمة من الفساد إن كانت صغيرة، والمتزوج بها يحتاج أن يجعل نفسه معلمًا لها، وسبيل العاقل ألا ينكح الصغيرة، وهي التي لها دون أربعة عشر سنة؛ لأنها بمعرض أن تعرض ألمًا لاقتضاض في قلبها بغضة؛ لأنَّ الصغيرة لا يتكامل أخذ عذرتها في مرة واحدة إلا بامساك شديد أو بأن توثق كتافًا، وذلك ممَّا يبقى له في النفوس الأثر الخبيث، وإذا استراح الثاني بها من ألم اقتضاضها، واندملت الجراحة؛ فجامعها ضارٌّ؛ لأنَّ المكان الذي يلج فيه الإحليل منها يكون صغير، لا يستوعب الإحليل جميعه إلا بشدة الدفع، فيكون فم الإحليل عند تزريق المنى مماسًا لصدر الرِّجَم، فلا يكون للمني فضاءً يخرج إليه؛ فهو إذا يخرج قليلًا قليلًا، فينعكس بعضه راجعًا في مخارير؛ لأنَّ الدفع القوي يوجب نكص المدفوع إذا لم

يصادف مذهباً يندفع إليه، فيضر ذلك بآلات المنيّ، وإن كان المنيّ حادّاً، فربّما سحح المجرى وأعقب ضرراً؛ فذلك لا يصلح جماع من لا يكون رحمها إذا استوعبت الإحليل بأسره، لم يصل قعر يضغط المنيّ عن سرعة الخروج.

وكثير ما تعجز نفس القادر على الباءة عند افتضاض الصّغيرة؛ إما لصلابة عذرتها، وقوة شفرتها، أو لأنه إنّما يتمكن أن يجلس منها جلوس المفض بمزاولة عناء وغيظ لا يلبث أن يرخي الحاسّة.

وأكثر الناس تسترخي آلتهم عند مباشرة عناء أو غيظ، وينقطعون بذلك عن الباءة، فلا يستطيعون وطء الثيب فضلاً عن البكر، فيظن بالرجل عند ذلك أنّه عنين، ورُبّما ساء ظنه بنفسه، فتراه في شغل من الفكر فيما دهاه من أمرها، فيضطر إلى إلزامها بطلي شفرها، ممّا يرخي العذرة ككدر الزيت العتيق، وهو في حاله مرحوم.

ومن الناس من يتزوج الصّغيرة عازماً على ألا يطأها إلى مدة، ورُبّما التزم لأهلها ذلك واشترطوه، فيقع المسكين عند مداعتها في الإنعاط الَّذي كلما جاء يقوى ويشتد ويلج المنيّ في أنثيه، ويضرب عليه قوياً شديداً، فلا يقدر على راحة، إن لم يمكنه وطء غيرها إلا أن يقرع إلى جلد عميرة.

ومن الناس من يتهود في تزويجه؛ فيخطب المرأة الممّولة ذات النعمة واليسار والثروة، ولا طاقة له بمهر مثلها فيادر، ويحصل عليه بالعهد صداقاً، لا ينهض به معتقداً لفرط عجبه بشبابه أن المرأة لا محالة أنّها تعشقه، وتنفق عليه شطر مالها، وتبرئه من صداقها لا سيما إن وعده أهلها أو وعده بذلك، وأرسلت إليه توهمه أنّها إنّما تُريدُ إكثار كمية الصداق التجميل على أترابها وأقاربها؛ فهذا المنخدع المغرور هو الَّذي لا يسقط عنه من الصداق درهم واحد.

ومن النَّاس من يبلغ الحمق إلى إقراض مبلغ من الدِّين يصدق المرأة بعضه وينفق بعضه على عرسها، وأعرف جماعة خسروا لطمعهم مالا على عجائز ممولات، ولم يحصلوا من أموالهن على غير الطمع الفارغ، ولا أفاده ذلك سوى العناء.

ومن آداب المفتض للبكر: إعداد الماء والجُلَّاب أو شراب التفاح الحلو أو شراب الأترنج حتى إذا بنى بها قوي قلبها عَقِيب ذلك بشربه، ولا ينبغي للرجل أن يثير عجبه ما تظهره المرأة؛ فإنهن أشدُّ خلق الله قدرة على إخفاء البغضة عن الرجال السنين الطويلة، وتعاشرهن معاشرة الكَلَفَات المشغوفات بهم، وينطوين من بغضهم على ما لا يمكن شرحه.

ذكر أبو عمر الشيباني أن عروة بن الورد أصاب امرأة من كنانة بكراً، يقال لها: سلمى، وتكنى: أم وهب فاعتقها، واتخذها لنفسه، فمكثت عنده سبع عشرة سنة، وولدت له أولاداً، وهو لا يشك أنَّها أرغب النَّاس فيه، وهي تقول له: لو تحججت لي، فأمرُّ على أهلي، وأراهم، فحج بها، وأتى مكة ثم أتى المدينة.

وكان عروة يخالط من أهل يثرب بني النَّضير، فيقرضونه إذا احتاج، ويباعهم إذا غنم، وكان قومها يخالطون بني النضير، فأتوهم وهو عندهم، فقالت لهم سلمى: إنَّه خارج قبل أن يخرج الشهر الحرام، فتعالوا إليه، فأخبروه أنكم تستحيون أن تكون امرأة منكم معروفة النَّسب صحيحته سبيَّة، وافتدوني منه بدلاً؛ فإنه لا يرى أني أفارقه، ولا أرى أختار عليه أحداً؛ فأتوه فسقوه الشُّراب.

فلما ثمل قالوا له: فادنا بصاحبتنا؛ فإنها وسيطة النَّسب فينا معروفة، وإن علينا سُبَّة بأن تكون سبيَّة؛ فإذا صارت إلينا وأردت معاودتها، فاخطبها إلينا؛ فإننا ننكحك، فقال لهم: ذاك لكم، قال: دعوني ألهو بها الليلة وأفادها غداً.

فلما كان من الغد جاءوه، فامتنع عن فدائها؛ فقالوا له: قد فاديتها منذ البارحة، وشهد عليه جماعة يَمُنُّ حضر، فلم يقدر على الامتناع، وقادوها فلما فادوها خيروها فاخترت أهلها ثم أقبلت عليه، وقالت: يا عروة، إني أقول قبل فارقتك الحق، والله ما أعلم امرأة من العرب أَلقت سترها على بعل خير منك أغض طرفاً، وأقل فحشاً وأجود يداً، وأحمى لحقيقة، وما مرَّ عليَّ يومٌ منذ كنت عندك، إلا والموت أحب إليَّ من الحياة بين قومك؛ لأنني لم أكن أشاء أن أسمع امرأة من قومك، تقول: قالت أمة عروة كذا وكذا إلا سمعته، والله لا أنظر في وجه غطفانية أبداً؛ فارجع راشداً إلى ولدك، وأحسن إليهم.

فقال عروة في ذلك:

أَرِقْتُ وَصُحْبَتِي بِمَضِيقٍ عُمِيقٍ لِـبَرِّقٍ فِي تِهَامَةٍ مُسْتَطِيرِ
سَقَى سَلْمَى وَأَيْنَ دِيَارٍ سَلْمَى إِذَا حَلَّتْ مُجَاوِرَةَ السَّرِيرِ
إِذَا حَلَّتْ بِأَرْضِ بَنِي عَلِيٍّ وَأَهْلِي بَيْنَ زَايِرَةِ وَكَيرِ
ذَكَرْتُ مَنَازِلًا مِنْ أُمِّ وَهَبٍ مَحَلَّ الْحَيِّ أَسْفَلَ ذِي النَّقِيرِ
وَأَحَدْتُ مَعْهَدٍ مِنْ أُمِّ وَهَبٍ مَعْرَسُنَا بِدَارِ بَنِي النَّصِيرِ
وَقَالُوا مَا تَشَاءُ فَقُلْتُ أَلْهُو إِلَى الْإِصْبَاحِ أَثَرُ ذِي أَثِيرِ
بِإِنْسَةِ الْحَدِيثِ رُضَابُ فِيهَا بُعِيدَ النَّوْمِ كَالْعَيْنِ الْعَصِيرِ
سَقَوْنِي النِّسَاءُ ثُمَّ تَكَنَّفُونِي عُدَاةُ اللَّهِ مِنْ كَذِبٍ وَزَوْرِ

فَيَا لَهِ كَيْفَ غَلَبَتْ نَفْسِي عَلَى شَيْءٍ وَيَكْرَهُهُ ضَمِيرِي^(١)

قال: وكان أيمن بن فاتك الأسدي شيخاً أعوراً برص، وكان له امرأة من بني كلب ذات دين وحسب؛ فبينما هو نائم معها نصف النهار في يوم حار إذ استيقظ، والعرق يجري بينهما، فقال في نفسه: ما في الأرض أشدَّ حباً لزوج من هذه، فقال لها: أتحييني؟ قالت: أنكرت شيئاً؟ قال: لا، ولكن أحببت أن أكون على يقين، قالت: نعم، إني لأحبك، قال: الله؟ قالت: سألتني بعظيم، وأكره أن أصدقك فتغضب، قال: لا، إني لا أغضب، قالت: لو كنت برصاء شمطاء عوراء كنت تحبني؟ وكان أيمن كذلك؛ فقال لها: الحقني أهلك، فقالت: أنت الذي جنيت هذا.

وقيل: ثلاثة من الفواق^(٢): زوجة إن دخلت لم تسرك، وإن خرجت لم تحفظ عليك، وجار إن أحسنت ستر، وإن أسأت أذاع، ورئيس إن نصحت لم يشكر، وإن أسأت لم يصفح^(٣).

وقال المغيرة لأعرابي: أخبرني عن النساء، فقال: النساء أربع: ربع مُرَبَّع، وجمع تجمع، وشيطان سمعمع، وغلٌّ لا تُخلَع، فقال: فَسَّر.

فقال: أمّا الربع المربع: فالتّي إن نظرت إليها سرتك، وإن أقسمت عليها أبرتك، وأمّا التي هي جمع تجمع: فالمرأة التي تتزوجها ولها نسب؛ فتجمع نسبك إلى نسبها، وأمّا الشيطان السمعمع: فالكالحة في وجهك إذا دخلت، والمخالفة إذا

(١) الأبيات من الوافر، وهي لعروة بن الورد في «الأغاني» (٣/١٦١٨)، و«متهى الطلب من أشعار العرب» لابن المبارك ص (٥٩٣).

(٢) الفواق: الدواهي.

(٣) انظر: «بهجة المجالس» لابن عبد البر ص (١٧٥٥).

خرجت، وأما الغل التي لا تخلع: بنت عمك السوداء القصيرة، قد نشرت لك بطنها، إن طلقته ضاع ولدك، وإن أمسكتها؛ فعلى جذع أنفك.

وقال رجل لابنه - وقد أراد الزواج: إياك والرقوب، الغضوب، القطوب، العلياء، الرقباء، اللفوت، الشوساء، الأناة، الحنانة.

واعلم أن من النساء: جماعاً تجمع، وربع ربع، وخروج مطلع توهم الخرق ولا ترقع، الرقوب: هي التي تراقبه حتى يموت فترثه، والعلياء الرقباء: الغليظة الرقبة، اللفوت: التي لا تثبت عينها في موضع واحد، وإنما همها أن تغفل عنها، فتغمر غيرك، الشوساء: الهشاشة النظر من التيه، الأناة: التي تأن على زوج كان لها قبلك؛ فهي تذكره بالتحزن، والحنانة: التي لها أولاد من غيرك؛ فهي تحنو عليهم، وتحن إليهم، والمنانة: التي جاءت بك بهاها؛ فهي تمن به عليك.

ومما ينبغي للرجل تصوره واعتقاده أن المرأة لا تصفو له، ولا تحبه إذا تزوج بغيرها، ولا سيما إذا انحرف بوجهه عنها، وأيست من انصلاحه معها، ولا بحالها ترضى بذلك إذا أوهمته أنها ترضى بذلك، ولا تغار منه، وفيهن من تسعى لتزويج زوجها، وتشير عليه بشراء من يستعرض من الجوار، ثم تغلب عليها الغيرة الكامنة؛ فتظهر.

قال ابن المقفع: اكفف عليهن أبصارهن، فإن استطعت ألا يبصرن غيرك فافعل؛ فإن شدة الحجاب أيسر عليك من الأتياب.

ومن آداب التزويج: ألا يكثر من الجماع في أول الأمر ثم ينقطع بل يبتدئ بما يمكنه الدوام عليه، وإياك والتغاير في غير موضع الغيرة؛ فإن ذلك يدعو الصحيحة

مُنْهَنَ إِلَى السَّقَمِ، وَإِذَا تَبَيَّنَ الرَّجُلُ مِنَ الْمَرَأَةِ فُسَادَ طَبِيعٍ، وَمِيلًا إِلَى تَمَنِّي غَيْرِهِ؛ فَلَا دَوَاءَ لَذَلِكَ غَيْرَ الْبَعْدِ عَنْهَا.

قال الأضبط بن قريع في زوجته، وطلَّقَهَا:

لَوْ أَنَّ ضَيْفًا جَاءَ يَوْمًا مُسَلِّمًا عَلَيْهَا لَرَأَمْتُ وَصَلَهُ وَهُوَ وَاقِفٌ^(١)

وقال أبو العتاهية:

يَا عَتَبُ لِمَ أَهَجَرَكُمُ لِمَالَةٍ عَرَضْتُ وَلَا لِمَقَالٍ وَاشٍ حَاسِدٍ

لَكُنِّي جَرَّبْتُكُمْ فَوَجَدْتُكُمْ لَا تَصْبِرُونَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ^(٢)

وقال آخر:

أَرَاكَ طَمُوحَ الْعَيْنِ مِالَةَ الْهَوَىٰ هَذَا وَهَذَا مِنْكَ وَدِ مَلَا طِفٍ

فَإِنْ تَحْمِلِي رَدْفَيْنِ لَا أَكُ مِنْهُمَا فَحُبِّي فَرَدَلَسْتُ مِمَّنْ يُرَادِفُ^(٣)

وقال إبراهيم بن المهدي في دقاق جارية يحيى بن الرِّبِيع:

عَدَمْتُكَ يَا صَدِيقَةَ كُلِّ خُلُقٍ أَكُلَّ النَّاسِ وَيَحْكُ تَعَشُّقِينَا

فَكَيْفَ إِذْ خَلَطْتَ الْغَثَّ مِنْهُمْ بِلَحْمِ سَمِينِهِمْ لَا تَبْشُمِينَا^(٤)

وقال جميل بن معمر، وبلغه أن بثينة تميل إلى حجة الهلالي:

(١) البيت من الطويل، وهو للأضبط بن قريع الأسدي في «الأغاني» (١٨/١١٨٩٣).

(٢) البيتان للعباس بن الأحنف في «الزهرة» لابن داود الأصفهاني ص (٣٣٣)، و«الأغاني» (١٨/١١٨٩٣).

(٣) البيتان من الطويل، وهما لنصيب بن رباح «الزهرة» ص (٣٣٢)، و«الأغاني» (١/٥٨٣).

(٤) البيتان من الخفيف، وهما لإبراهيم بن المهدي في «نهاية الأرب في فنون الأدب» ص (٣٠٨٦)، و«الأغاني» (١٢/٨١٤٧).

وَلَا تَجْعَلْنِي أَسْوَةَ الْعَبْدِ وَاجْعَلِي مَعَ الْعَبْدِ عَبْدًا مِثْلَهُ وَذَرْنِي^(١)
رَأَيْتَ بَعِينَ الْيَقِينِ فَمَا الَّذِي يُغْمِي عَلَى عَيْنِي بَعْدَ يَقِينِي
وقال أيضًا:

لَحَا اللَّهُ مَنْ لَا يَنْفَعُ الْوَعْدُ عِنْدَهُ وَمَنْ حَبَلَهُ إِنْ مُدَّ غَيْرُ مَتْنِ
وَمَنْ هُوَ ذُو وَجْهَيْنِ لَيْسَ بِدَائِمٍ عَلَى الْعَهْدِ خِلَافُ بِكُلِّ يَمِينٍ^(٢)
وقال أيضًا:

بُثْنَةً قَالَتْ يَا جَمِيلُ أَرَبْتَنِي فَقُلْتُ كِلَانَا يَا بُثْنُ مُرِيبُ
وَأَرَيْنَا مَنْ لَا يُؤَدِّي أَمَانَةً وَلَا يَحْفَظُ الْأَسْرَارَ حِينَ يَغِيبُ^(٣)
وقال أيضًا:

وَإِنِّي لِأَسْتَحْيِي مِنَ النَّاسِ أَنْ أُرَى رَدِيقًا لِيُوصِلَ أَوْ عَلَيَّ رَدِيفُ
وَأَشْرَبَ رَنْقًا مِنْكَ بَعْدَ مَوَدَّةٍ وَأَرْضَى بِوَصْلِ مِنْكَ وَهُوَ ضَعِيفُ
وَإِنِّي لِلْمَخَالِطِ لِلْقَذَى إِذَا كَثُرَتْ وَرَادُهُ لَعِوْفُ^(٤)

وكتب بعضهم لما استشار في التزويج: البكر لك، والثيب عليك، وذات الولد

فلا تقر بها.

(١) البيت من الطويل، وهو لجميل بن معمر في «خزانة الأدب» ص (٥٠٦٠).

(٢) البيتان من الطويل، وهما لجميل بن معمر في «ديوان المعاني» ص (٣٦٨)، و«بهجة المجالس»

لابن عبد البر القرطبي ص (٨٠٣).

(٣) البيتان من الطويل، وهما لجميل بن معمر في «الحماسة المغربية» ص (٥٠٩).

(٤) الأبيات من الطويل، وهي لجميل بن معمر في «وفيات الأعيان» لابن خلكان ص (٦٧٠).

وقال آخر:

تقول لما استصغفته البأسا ليت على سرجي سواك فأرسا
وكتب بعض أصدقاء أبي العتاهية يشكو امرأته إليه؛ فكتب أبو العتاهية يقول:
رَأَيْتَ أَثَاثَهَا فَرَغِبْتَ فِيهِ وَكَمْ نَصَبْتَ لَغَيْرِكَ مِنْ أَثَاثِ
إِلَى دَارِ الْمُنُونِ فَجَهَّزْتَهُمْ تَحْتَهُمْ بِأَرْبَعَةِ حِثَاثِ
فَصَيَّرَ أَمْرَهَا بِيَدِي أَبِيهَا وَسَرَّجَ مِنْ حَبَالِكَ بِالْثَلَاثِ
وإلا فالسلام عليك مني سأبدأ من غد لك بالمرآثي^(١)
وأشدُّ ما ينبغي للرجل حفظ النساء منه الحاشية، والخدم، والغلمان، وألا يكون
احترازه من ذوي الوجوه الصبيحة، والقُدود الرشيقة، وألا يعتمد بزميم يظهر من
النساء استقذاره، ولا بأسود يشتد من استماجه، وَيَدْعِيَنَّ الْفَرْعَ من سواده، ولا بغلام
يكثرن سبه، ويغلظن له، ويظاهرن بغضه، فكثير منهن يجعلن هذا طريقاً إلى نفي الظن
عنها.

فالغلمان الصغار المراهقون طالما أدخلوهم النساء عليهن بمحضر من
أزواجهن، يظهرن أنهم ليسوا بمن يُغَبَّأُ بهم لصغر سنهم، ولا سيما إذا كان الغلام قد
تربى في دار المرأة مُدَّ كان طفلاً، فإنه لا ينكر دخوله عليها إذا كبر، وبلغ أشده، وكذلك
الغلام الذي قد ربي مع الصبية مُدَّ كانت صغيرة؛ فإنهما ربما كانا إذا خليا كما قال
الشاعر:

(١) الأبيات من الوافر، وهي لأبي عيينة المهلب في «التذكرة الحمدونية» ص (٣١٧٥)، و«بهجة
المجالس» ص (١١٦٥).

وَحَلَّتْ بِالْغَلَامِ تَأْكُلُهُ لَثْمًا وَضُمًّا فَفَضَّ رِيْقَ بَرِيْقٍ
 مِنْ بَعِيدِ الْغُرُوبِ أَمْسَتْ وَأَمْسَى فِي إِعْلَامِ الْمَضِلِّ الشَّرُوقِ
 وَذَلِكَ أَنْ أَلَدَّ مَا كَانَ الْفَحْلُ مَتَعَةً عِنْدَ طَرَاقِ مَاشِيَتِهِ، وَقَرَّبَ عَهْدَهُ بِالْبُلُوغِ،
 وَحِينَئِذٍ يَكُونُ أَشَدَّ مَلَائِمَةً لِلْمَرْأَةِ؛ لَطِيبَ نَكْهَتِهِ، وَطِيبَ عَنَاقِهِ، وَتَقْبِيلِهِ، وَشَدَّةَ شَبَقِهِ،
 وَعَظِيمَ غُلَمَتِهِ، وَكَثِيرَ مِنَ الْغُلَمَانِ تَرَى أَحَدَهُمْ مُتَغَيِّرَ الْمَنْظَرِ، وَيَخَالُ مِنْ أَبْنَاءِ إِحْدَى
 عَشْرَةٍ أَوْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً، وَيَكْثُرُ ظَنِّي عَلَيْهِ سِتُّ عَشْرَةَ سَنَةً أَوْ سَبْعَ عَشْرَةَ.
 وَرُبَّمَا كَانَ صَغِيرَ الْقَدِّ، ذَمِيمَ الشَّكْلِ، وَلَهُ إِحْلِيلٌ دَائِمُ الصَّلَابَةِ، وَافِرُ الْمَعْدَاتِ،
 فَأَمَّا إِذَا لَبَسَ الْغَلَامُ الْأَمْرَدُ الْمَرَاهِقَ زَى الْجَوَارِي وَاخْتَلَطَ بِجَمْلَتِهِنَّ؛ فَإِنْ تَمَيَّزَهُ بِمِمَّا
 يَعْسُرُ، وَكَمْ قَدْ قَضَيْنَ الْمُنْعِمَاتِ أَوْ طَارَهْنَ بِهَذَا الطَّرِيقِ.

قال أبو العلاء أحمد بن سليمان المعري:

إِذَا بَلَغَ الْوَلِيدُ لَدَيْكَ عَشْرًا فَلَا يَدْخُلْ عَلَى الْحَرَمِ الْوَلِيدُ
 فَإِنْ خَالَفْتَنِي وَأَضَعْتَ نُصْحِي فَأَنْتَ وَإِنْ رُزِقْتَ حِجَابَ بَلِيدُ
 أَلَا إِنَّ النِّسَاءَ حِبَالٌ غَيٌّ بَيْنَ يُضَيِّعُ الشَّرْفُ التَّلِيدُ
 وَأَهْمُ مَا يَوْصَى بِهِ الرَّجُلُ، حِفْظُ سِرِّهِ وَطَيْئِهِ عَنِ الْمَرْأَةِ؛ فَكَمْ قَدْ هَلَكَ بِهَذَا فِي
 قَدِيمِ الزَّمَانِ وَحَدِيثِهِ.

استعمل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ابن مطيع على الكوفة، ودفع إليه عهده، وقال
 له: لا تخبرنَّ أحدًا، فذهب إلى امرأته، فقال لها: إن أمير المؤمنين قد استعملني على
 الكوفة، فاستعدّي لي بأداة الراكب فبعثت إلى أختها، وهي تحت المغيرة بن شعبة،

(١) الأبيات من الوافر، وهي لأبي العلاء المعري في ديوانه من قصيدة البيت الأول مطلعها.

فقالت لها: إن زوجي قد استُعْمِلَ على الكوفة؛ فابعثي لي أداة الراكب، فلما جاء المغيرة أخبرته الخبر، وأتى عمر نصف النهار، وقد تهيأ للمقبل؛ فقال للبواب: استأذن لي على أمير المؤمنين، فأبى، فقال: استأذن لي، ولك أربعمئة درهم، فاستأذن له، وكانت أول رشوة في الإسلام؛ فأذن له ودخل عليه، فقال: وفقك الله يا أمير المؤمنين، لقد استعملت قوياً أميناً، قال: ومن هو؟ قال: ابن مطيع استعملته على الكوفة، قال: ويحك من أخبرك؟ قال: السَّقَّايَاتُ تحدَّثن في الطريق؛ فقال عمر للمغيرة: فهل عندك خير؟ قال: نعم، قال: فاذهب، وخذ العهد منه، ثم اذهب إلى الكوفة.

وسبيل العاقل ألا يغترَّ بمن تظهر له قلة الرغبة في الباءة، وتوهمه أن المرأة لا تجد شهوة لقرب الرجال؛ فكثير ممن هذه صفتهم، لا تخلو بنفسها، إلا وتتمنى العهر وما دونه.

عن عبد الله بن أبي بكر قال: سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليلاً امرأة تنشد هذه الأبيات:

تطاول هذا الليل واسودَّ جانبه وأزَّقني أن لا خلیل ألاعبه
فوالله لولا الله لا شيء غيره حرك من هذا السرير جوانبه
مخافة ربي والحياء يكفني وإكرم بعلي أن تُنال مراكبه^(١)

فسأل عمر: كم تصبر المرأة عن زوجها؟ فقليل له: تصبر ستة أشهر، فقال: «إن ذاك من الحصان لصبرٌ جميل».

(١) الأبيات من الطويل في «الأمل» لليزيدي ص (١٤٥)، و«الأوائل» لأبي هلال العسكري ص (٦٤٥).

وسبيل العاقل إذا ظنَّ بامرأة توافقه وترضيه، ألا يسمح لها طاعة لوالد أو غيره متوهمًا ألا يقدر على غيرها مثلها؛ فإن هذه الغلطة قد فسد بها عيش خلق كثير، ولا ينبغي أن تولِّي امرأة نفسها، ولا أن يولِّي غيرك أمرها.

خطب السلطان طغرليک ابنة أمير المؤمنين القائم بالله، والرسول في ذلك وزيره الكندري، وحضر ديوان الخلافة لأخذ البنت كرهًا، وتراجعوا في الحديث، وكتب بذلك رقعة إلى القاهر بأمر الله؛ فوقع على ظهرها هذه الأبيات:

مع الدين أنتم يا بني عمَّ أحمدٍ فليس لكم حتى يزول زوال
فإن تك دارت للعدو عليكم رَحًا أنتم قُطِبَ لها وثقال
فكم من جبالٍ قد علا شُعفاتها رجالٌ فزالوا واجبالٌ جبالٌ^(١)

فلما قرأ الكندري ما كتب به، بكى ووجم لذلك وانصرف، وكتب إلى السلطان طغرليک بما جرى، فلم يعاود في ذلك.

وخطب خالد بن صفوان امرأة من بني سعد؛ فقال: أنا خالد بن صفوان، والحسب كما علمت، والمال كما بلغك، وفي خصالٍ أخبرك بها لتقدمي على معرفة، إنه لا سبيل إلى دينارٍ ودرهمي، وأنا ملول، فربَّما أتت عليَّ ساعة لو أن رأسي في يدي لطرحتَه؛ فقالت: قد فهمتُ ما ذكرت، وهذه الخلال ما كانت لترضاها بعض بنات إبليس، فكيف بنات آدم؛ فارجع موفورًا.

وتزوج معاوية بن مروان بن الحكم امرأة من كلب، وهي بنت خال مصعب

(١) الأبيات من الطويل، وهي لابن نباتة السعدي في ديوانه من قصيدة مضمونها:

بأيِّ مهوولٍ في الزَّمانِ أهْلٌ وبي من أمير المؤمنين مآل

ابن الزبير، فبنا بأهله ثم جاء أبوها فيما بعد يسلم على ابنته؛ فقال له معاوية بن مروان وعنده جماعة من الناس: يا فلان ما لقينا من ابنتك؟ قال: وما ذاك؟ قال: ملأتنا دمًا، قال: يا أحمق! إنها من نسوة يدّخرن ذلك لأزواجهن، ولكن على من غرّني منك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين؛ فقال عبد الملك: أنا والله غرّرتك منه، وبالله المستعان^(١).

كان لرجل يقال له: همام بن مُرّة ثلاث بنات فكبرن، وهو لا يزوجهن لفرط غيرته عليهن، ولأنه لم ير له كفؤًا، فدخلن عليه يومًا، وأنشدنه هذه الأبيات.

فقلت الكبرى:

أهمّام بن مرة إن همّي إلى حمراء مشرفة القذال
فقال لها: لعلك تريدين أيرًا أحمر.

فقلت الوسطى:

أهمّام بن مرة إن همّي إلى اللاتي يكن مع الرجال
فقال لها همام: ويلك أتريدن شبّاقًا؟
فقلت الصغرى:

أهمّام بن مرة إن همّي إلى أير أسدّ به مبالى^(٢)
فقال: اغربن لعنكن الله، ثم لم يلبث أن زوجهن.

وخرج مالك بن الرّيب، ومعه أم ولد له، يقال لها: طيبة، وعبد يقال له: درهم، في سفر فذهب لقضاء حاجة، فوجد درهما على بطن طيبة، فقتلها جميعًا، وقال:

(١) انظر: الأغاني (٤/٢٦٣).

(٢) انظر: «أشعار النساء» للمرزباني ص (١٢٣)، و«المحاضرات في الأدب واللغة» لليوسي ص (٦٧٣).

فلا تأمنَ حرمة بعد طيبة ولا تأمنَ تابع بعد درهم

كانت عائشة بنت طلحة بن عبيد الله تحت مصعب بن كلثوم، وأمها أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق -رضي الله تعالى عنه- وكانت من أجل النساء، وكان مصعب معجباً بها، شديد المحبة لها، فغضبت عليه يوماً، فشكى ذلك إلى أشعب؛ فقال له أشعب: مالي إذا رضيت؟ قال: حكمك، قال: عشرة آلاف درهم، قال: هي لك، قال: فانطلق حتى أتى عائشة؛ فقال لها: جعلت فداك قد علمت حبي لك ودعائي قديماً لك من غير منالة ولا فائدة، وهذه حاجة قد عرضت تقضين بها حقي، وترتهنين بها شكري، قالت: وما عندك؟ قال: قد جعل لي الأمير عشرة آلاف درهم إن رضيت عنه، قالت: ويحك، لا يكفي ذلك، قال: بأبي وأمي فارضي عنه حتى يعطيني ثم عودي إلى ما عودك الله من سوء الخلق، فضحكت ورضيت عن مصعب.

وروى المدائني أن هذه القصة كانت لها مع عبيد الله بن معمر، وأنه الرسول إليها، والمخاطب لها بهذه المخاطبة ابن أبي عتيق، وكانت عائشة صعبة الأخلاق على زوجها، وكان مصعب لا يقدر عليها إلا بتلاح يجري بينهما ويضر بها، فشكى ذلك إلى ابن أبي فروة كاتبه؛ فقال له: فما أنا أكفيك هذا إن أذنت لي؟ قال: نعم، افعل ما شئت؛ فإنها أفضل شيء فعلته في الدنيا، فأتاها ليلاً ومعه أسودان فاستأذن عليها، فقالت له: تأتي مثل هذه الساعة؟ قال: نعم، فأدخلته؛ فقال للأسودين: احفرا هاهنا بئراً، فقالت له جارية: ما تصنع بالبئر؟ فقال: مولاي أمرني أن أدفن مولاتك حيّة لشؤم خلقها، وهو أسفك خلق الله لدم حرام، فقالت عائشة: انظر، أذهب إليه.

قال: هيهات لا سبيل إلى ذلك، وقال للأسودين: احفرا فلما رأت الجدّة منه بكت، وقالت: يا ابن أبي فروة! أتقتلني، ولا بد؟ قال: نعم، وإني لأعلم أن الله سيجزيه بعدك خيراً، ولكنه قد غضب وهو كافر الغضب، قالت: ومن أي شيء غضبه؟ قال:

من امتناعك عليه، وقد ظنَّ أنَّكَ تبغضيه وتتطَلَّعين إلى غيره وقد جُنَّ.

قالت: أنشدك الله إلا عاودته، قال: أخاف أن يقتلني فبكت وبكت جواريتها؛ فقال لها: قد رقت لك، وحلف أنه يفد بنفسه، وقال لها: فما أقول له؟ قالت: تضمن عني أي لا أعود أبداً، قال: فما لي عندك؟ قالت: قيام يخصُّك ما عشت، قال: فأعطيني الموائيق فأعطته؛ فقال للأسودين: دكَّا الحفرة فدكَّاهَا، وانصرف فأتى مصعباً وأخبره الخبر، فقال له: استوثق منها بالأيمان، قال: قد فعلت، وصلحت بعد ذلك لمصعب.

وكان عبد الملك بن مروان أشدَّ النَّاسِ محبةً لعاتكة بنت يزيد بن معاوية، وهي امرأته أم يزيد، فغضبت على عبد الملك مرة، وكان بينهما باب فحجبت وأغلقت ذلك الباب، فشق ذلك على عبد الملك، وشكا ذلك إلى خاصَّته؛ فقال له: عمر بن بلال، فقال له: ما لي عندك إذا رَضِيتُ؟ قال: حُكِّمك فأتى عمر بابها، وجعل يتباكى، فأرسلت إليه السَّلمَ، وخرج إليه خاصَّتها وجواريتها، وقلن ما لك قد قرعت إلى عاتكة ورجوتها، قال: قد علمت مكاني من أمير المؤمنين معاوية، ومن أمها بعده قلن له، وما لك؟ قال: ابناي لم يكن لي غيرهما فقتل أحدهما الآخر.

فقال أمير المؤمنين عبد الملك: أنا قاتل الآخر به؛ فقلت: أنا وليُّ الدم وقد عفوت عنه، قال: لا أعود النَّاسَ هذه العادة، فرجوت أن ينجي الله ابني هذا على يدها، فدخلن عليها، وذكرن لها ذلك، فقالت: كيف أصنع مع غضبي عليه؟ قلن لها: إذن والله يقتل، فلم يبرحن من عندها حتى دعت بشياها ولبستها وخرجت، فأقبل الحاجب على عبد الملك؛ فقال: هذه عاتكة قد أقبلت، قال: يا ويلك ما تقول؟

قال: والله قد طلعت، فأقبلت وسلَّمت فلم ترد سلامها، فقالت: والله لولا عمر ما جئت، يغدو أحد لبنيه على الآخر فيقتله، فأردت قتل الآخر، وهو وليُّه وقد عفا عنه، قال: أكره أن أعود النَّاسَ هذه العادة، قالت: أنشدك الله يا أمير المؤمنين! قد

عرفت مكانه من معاوية، ومن أبي وهو يبّابي، ولم تزل حتى أخذت رجله فقبلتها؛ فقال: هو لك، ولم يبرحاً حتى اصطلحاً، وراح ابن بلال إلى عبد الملك فقال: كيف رأيت يا أمير المؤمنين؟ قال: رأينا أثرك فهات حاجتك، قال: مزرعة وما فيها، وألف دينار، وفرائض لولدي وأهل بيتي وعيالي، قال: ذلك لك.

ثم تمثل عبد الملك يقول:

وَإِنِّي لَأَرْعى قَوْمَهَا مِنْ جَلَالِهَا وَإِنْ أَظْهَرُوا غِشًّا نَصَحْتُ هُمْ جَهْدِي
وَلَوْ حَارَبُوا قَوْمِي لَكُنْتُ لِقَوْمِهَا صَدِيقًا وَلَمْ أَحِملْ عَلَى قَوْمِهَا حِقْدِي^(١)

وروي أن القائم بأمر الله لما تزوّج ابنة السلطان ملكشاة، أقامت معه سنتين، لم ينم معها؛ فشكت ذلك إلى خاصّتها من النساء، ونما الحديث إلى السلطان أبيها، فكتبه يعتب عليه، ويقول: كأنك تأنف أن يكون أحوال أولادك منّا، ولا تأنف أن يكونوا من الرُّوم والأرمن؛ فكتب إلى القائم في ظهر الكتاب يقول:

ذَهَبْتَ شَرِّتي وَوَلَّى الغَرَام وَارْتَجَاعَ الشَّبَابِ مَا لَا يَرَام
أَوْهَنْتَ مِنِّي اللَّيَالِي جَلِيدًا وَاللَّيَالِي يَضْعَفْنَ وَالْأَيَّام
فَعَلَى مَا عَهَدْتَهُ مِنْ شَبَابِي وَعَلَى الْغَانِيَاتِ مِنِّي السَّلَام^(٢)

فلم يعاوده بعد ذلك.

ومما يحتاج إلى علمه حيل النساء إذا أوهمته أنّهن يبرينه من الصداق، ورُبّما كُنَّ قبل ذلك بسنين قد أقررن بالصداق لبعض أقاربهن، فيصير ذلك دينا على الرجل ثابتاً في الشرع، يلزمه متى طالبه المُقِرُّ له به، وهو غافل عن ذلك لا يعلم، وأكثر النساء قد

(١) البيت من الطويل، وهو لكثير عزة في «الأغاني» (٢/١٣٩٠)، و«التذكرة الحمدونية» ص (٥٣٦١).

(٢) الأبيات من الخفيف في «البصائر والذخائر» ص (٢٧٩٧)، و«الوافي بالوفيات» ص (١٠٦٢٠).

صرن في زماننا هذا يفعلن ذلك، مكرهات يجبرهن عليه أهلهن خوفاً من استمالة الرجل الزوجة، بحيث تهب له الصداق ثم يملؤها.

وقد أفرط بقوم الخبث والدَّهَاء؛ فصاروا إذا زوّجوا بناتهم كتبوا عليهن كتب دين، وثبّتوه عند الحاكم خوفاً من أن يلزم الرجل المرأة السفر معه، ويلزمها الحاكم بذلك، إذا دفع الصداق إليها، فإن أكرهها الحاكم بالسفر؛ طالبوها بالدين الذي كُتِبَ عليها، وحبسوها في سجن القاضي، إعاقةً للرجل عن السفر، إما ليضجر أو ليتركها عندهم، أو ليفوته أو أن سفره، ودُّوا هذا عدى إن كان ذا ثروة أن يزن عنها ما يشتونه عليها مما أقرت به لهم قبل موافقتها له، إن أُمِنَ الإقرار بشيء آخر.

والأ يوكّل عليها من يسافر بها متى أخرجوها من السجن بعد سفره، فبهذا ينتصف من بعد طلبهن، على أن حكم القضاة بهذه الأمور يختلف بحسب اختلاف مذاهب القضاة .

وقد اختص زيجان بحيلة أخرى، وهي: أن أحدهم أراد أن يزوج ابنته؛ فسأل القاضي أن يحجر عليها، وأخذ خطه بالحكم عليها كما يحجر على من لا يهتدي رشده، ثم زوجها، فلا ينتفع بإقرارها له بالمهر ولا بغيره.

وأما التزويج بامرأة غير معروفة الحسب؛ لا يؤمن معه المكر، وأنواع الحيل، فكم زُوِّجَت البنت بالكبير، وزوجة رجل غائب لم يطلقها بوثيقة مزورة، وكم قد تزوجت امرأة بزوجين، وهما جميعاً في بلد واحد مقيمان، لا يشعر أحد منهما بصاحبه.

قال القاضي شريح:

رأيت رجالاً يضربون نساءهم فشلتُ يميني يوم أضرب زينبا

أأضربها في غير جرم أنت به إلي فما عذري إذا كنت مذنباً

فتاة تزين الحلي إن هي حليت كأن بفيتها المسك خالط محلباً^(١)

الباب الرابع من الجملة الحادية عشرة

في آداب العُرس

اعلم أن أسباب حظوة المرأة عند الرجل، وقد يخرج عنها لمن يخطبها: ولدها، أو مالها، أو نسبها، وقد تستحق الحظوة بفضائل لها كالجمال، والعفة، والأدب، وحسن المصاحبة.

وإن أعجبت المرأة الرجل عند مغازلته إياها، وإلا فربما أحبها إذا نظرت إليه، فإن لم يحبها أحبها، إذا تكلمت وتبسمت، فإن لم تعجبه، فربما أحبها إذا أعجبت خلوته، ووجدتها موالية طائعة له، أديبة الخلق، مع خفر في سكينته، غير مبالغة في تمنيع، ولجاج في ارتداء إزار أو ثوب؛ فالحاجة في مثل هذا عند الخيانة؛ لأنها سوء أدب وشؤم.

وأما رعونتها وعلقها؛ فيظهر من صبرها وقت إلبابها؛ فإن الحمقاء الجاهلة تخرج عن الحد في التعلق، والتخوق حتى المجانين، ولا تمكن دون أن توثق كِتافًا، وتكاد تزهّد الرجل الشريف النفيس، ولا تباشر الأبكار، ويرتسم في نفسه منها ما يفزعها به كل وقت، واللبية الأديبة منهن تنحل وتطيع.

وفيهن من تعاون الرجل، وترشده الطريق إذا أخطأه، وذلك أدل دليل على محبتها للرجل، ومثل ذلك يحصل الخلوة عنده.

ولما زفت فاطمة بنت القراضة بن الأخوص الكلبي إلى عثمان بن عفان - رضي الله تعالى عنه - وأدخلت عليه، جلس على سريرته، وجلست هي على سرير؛ فرفع قلنسوته عن رأسه؛ فبدت صلعته، فقال: «لا تنكرين ما ترين من صلعي، فإن وراءه ما تحبين»، فقالت: إني لمن نساء أحب بعولتهن إليهن الشيخ السيد، فقال: «إما تقومين إليّ، وإما أن أقوم إليك» فقامت، فجلست إلى جانبه، فمسح رأسها، ودعا لها، ثم قال: «اطرحي مغلقتك»، فطرحتها، فقال: «اطرحي خمارك» فطرحته، فقال: «اطرحي

إزارك»، والعرب تسمي السروال: إزار، قالت: أنت وذاك، فلم تزل عنده حتى كان من أمره ما كان، فبعث معاوية فخطبها، فقلعت ثنيتها، ونفذتها إليه، وقالت: قد ذكرت، ولا أصلح لزوج، فكف عنها.

ومن آداب المفتضة: أن تمكن الرجل من مسّ الفرج، وتأمله إن شاء قبل الجماع، وإن شاء بعده، فبذلك يدفع عنها التُّهم والشُّبه التي تقع للرجل بينه وبين نفسه، وتسقط عنها تهم عساها رميت بها.

وإذا خرج الذكر داميًا، وأحس لدمها حرارة عليه؛ فهي بكر، وأما المنديل الذي تعدّه المرأة، فيجب تسليمها إلى الرجل، ليراها خالية من الدم قبل استعمالها، ثم يتول التمسح بها، ويدفعها إليها.

ومن آداب النساء: وخصوصًا نساء الملوك، والأكابر، والرؤساء، والعلماء، وأرباب الهمم العلية والنفوس الملوكية: أن يعتزلن الغيرة، ولا يحدثن أنفسهن بها، وألا يمنعهن إكرام الرجل إياهن عن أن يكن كبعض الإماء في النشاط، والخدمة، والخوف من مخالفته.

ولما زفت بوران بنت الحسن بن سهل إلى المأمون؛ كتبت إليه عُرب حظيته هذه الأبيات تقول:

أنعم تخطتك عيون الردى بزف بوران مع الدهر
بيضة خدر لم يزل نجمها بنجم مأمون الورى يجري
حتى استقر الملك في حجرها بورك في ذلك من حجر

يا سيدي لا تنس عهدي وما أطلب شيئاً غير ما تدري^(١)

فقلت بوران: يا سيدي! قد عرفت ما تريد، فأذن لها، فضحك المأمون، وسرَّ بلطافة خلقها وفكرها.

ولا تولى امرأة نفسها من لا ترضاه لها بعلًا إلا أن تستنيه في الولاية، فتقول: أوليك على أن تزوجني من تختاره لي غير نفسك.

رُوي أن النوار بنت أعين بن صعصعة المجاشعي، وهي ابنة عم الفرزدق همام بن غالب خطبها رجل من بني عبد الله بن دارم فرضيته، وكان الفرزدق وليها، فأرسلت إليه أن تزوجني من هذا الرجل، فقال: لا، أو تشهد لي أنك قد رضيت بمن زوجتك، ففعلت، فلما توثق منها.

قال: أرسلني إلى القوم فليأتونا، فجاء بنو عبد الله بن دارم، فشحنوا مسجد بني مجاشع، وجاء الفرزدق، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما علمتم أن النوار ولتني أمرها، أشهدكم أني قد زوجتها من نفسي على مائة ناقة، حمر الوثب، سود الحدق، فنفرت النوار من ذلك، وأرادت الشخوص إلى عبد الله بن الزبير حين أعيها أهل البصرة أن يطلقوها من الفرزدق، بحيث يشهدوا لها الشهود، وأعيها الشهود أن يشهدوا لها.

وكان ابن الزبير أمير العراق والحجاز، يدعى له بالخلافة فيها، فلم تجد من يحملها إليه، فأتت فتية من بني عدي بن عبد مناة، يقال لهم: بنو أم القشير، فسألتهن برحم يجمعهم وإياها - وكانت بينها وبينهم قرابة - فحملوها، فبلغ ذلك الفرزدق،

(١) الأبيات في «المستجد من فعلات الأجواد» للقاضي التنوخي ص (٢٦١).

فاستنهض عدة من أهل البصرة؛ فأنهضوه، وأوقروا له عدة من الإبل، وأعين بنفقة، فتبع النوار، وقال:

أطاعت بني أم القشير فأصبحت على شارف ورقاء صعب ذلولها

وإن الذي أمسى يخبب زوجتي كماش إلى أسد الشرى يستبيلها

فأدركها وقد قدمت مكة، فاستجارت بخولة بنت منظور بن زيان امرأة عبد الله بن الزبير، فلما قدم الفرزدق مكة اشرب إليه الناس، ونزل على بني عبد الله بن الزبير، فاستنشد أولاد عبد الله، واستحدثوه ثم شفّعوا له إلى أبيهم، فجعل يشفعهم في الظاهر، حتى إذا صار إلى خولة قلبته عن رأيه، فمال إلى معاونة النوار.

فقال الفرزدق هذه الأبيات:

أما بنوه فلم تقبل شفاعتهم وشفعت بنت منظور بن زيانا

ليس الشفيع الذي يأتيك مؤتررا مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا

فبلغ ابن الزبير شعره، ولقيه على باب المسجد، وهو خارج منه، فضغط على حلقه، حتى كاد يخنقه، ثم قال:

لقد أصبحت عرس الفرزدق ناشزا ولو رضيت رمح استه لاستقرت

ثم دخل على النوار، فقال لها: إن شئت أمضيت نكاحه، فهو ابن عمك، وأقرب الناس إليك، وإن شئت فرقت بينكما، ثم ضربت عنقه، فلا يتحمل أبداً، وكانت النوار امرأة صالحة، فقالت: أو غيرهما؟ فقال: لا، قالت: فما أحب أن يقتل، لكنني أمضي امرأته، فلعل الله أن يجعله في كرمي، فدفعها ابن الزبير إليه^(١).

(١) انظر: «الأغاني» (٢١/١٤٣٥٦).

ومن أعظم حظوة المرأة عند الرجل أن أول كلام تسمعه منها ضامناً معنى التودد والتحبب، وأن يكون ذلك في أول مجلس يجتمع بها.

خطب يحيى بن أكثم إلى عقيل بن عامة ابنته، فزوَّجه ثم خرج فحملها إليه، فلما قدمت عليه، بعث إليها يحيى مولاه فجاءها، فجعلت تغمز عضدها، فرفعت يدها، فدقت أنفها، فرجعت إلى يحيى، فقالت: بعثني إلى أعرابية مجنونة صنعت بي ما ترى، فنهض يحيى إليها، فقال: ما لك؟ فقال: ما أردت أن يصل إليك نظر إليّ إلا أن يكون نظرك إليّ قبل كل ناظر، فإن رأيت حسناً؛ كنت أحق إلى بيحه، وإن رأيت قبيحاً؛ كنت أحق من ستره، فسرَّ يحيى بقولها، وحظيت عنده.

ومن آداب المرأة: ألا تنبه الرجل على شيء تستمجه من صورته، ولا تشعره بأنها شعرت به منه؛ فإنها بذلك تعيره، وعليها مقتته.

نظرت امرأة عمران بن حطان يوماً في وجهه، وكانت من أجمل النساء فأعجبها، ونظرت إليه فوجدته قبيحاً، فقالت له: هلم، فانظر في المرأة، فجاء فنظر إلى نفسه، وهو إلى جانبها كأنه قنفذ، ورأى وجهه قبيحاً، فقال: هذا أردت، فقالت: إني لأرجو أن أكون أنا وأنت في الجنة، قال: ثم قالت: لأنك رُزِقتَ مثلي فشكرتَ، ورُزِقتَ مثلكَ فصبرتَ، والشَّاكرُ والصَّابِرُ في الجنة^(١).

* * *

(١) انظر: «الأذكياء» لابن الجوزي ص (٤٣١).

الجملة الثانية عشرة

في اتخاذ الربيطات والحينات الطريفات المساعدات

لسنا في ذكر ما قصدنا به إتمام وجوه الأحماض في مجلس الندام إلى ما فيه خلاف المسنون، ولا راضين به لكثرة ما سمعناه مِنَّ له في الصناعة الحثيثة مدخل، وما قرأنا في الكتب المصنَّفة من فنون ما يصلح للأحماض، قد تصوَّرنَا في أحوال النَّاس في تصاريههم، ما لا يقتصر في تحقيق علمه إلى مباشرته بحواسنا، ومشاركتهم في علمه، ولا عار علينا في إيصال اللذة إلى متصفح كتابنا بحكاية مده، فما اتصل بنا من أخبار من افتتن، وأجاب دواعي اللذة والصَّبوة، وانخرط في سِلْك التَّسْمُح، بارتكاب ما لا يلهه الناموس استيلاء ما إلى الهوى، وتمكينًا للنفس من شهواتها.

ولا محالة أن للصيد لذة، ولذلك شُغِفَ به الملوك، واحتملوا مؤنة الفهَّادين، وأرزاق [الباربارش]^(١)، وشدة التعب، وكَدَّ الطلب، وصرفوا إلى ذلك همَّتهم، وشغلوا به أنفسهم، وأطالوا فيه كدَّهم، وجعلوا يتعشَّقون فيه جواز ظهور القرى هبوطًا مرة، وصعودًا أخرى، تَغْنَمُ لِلذَّاتِ قلوبهم، واتباع سرورهم، على أن صيد الوحش قليل الفائدة لا يقوم خيره بشره، ولا نفعه بضره.

والذَّكِيُّ اللبيب يتصور أن اقتناص الوحش، وإن كان طيبًا؛ فإن اقتناص الأنس أطيب كما حَدَّثَ عن محمد بن عبد الله بن طاهر؛ فإنه خرج إلى الصيد، فغاب ثلاثًا ثم رجع بصيد كثير، ودعا أخاه عبد العزَّى إليه، وأحضرت المائدة، وعلى رأس محمد غلامٌ لم يُرَى في زمانه مثله في جماله وكماله، فلما قدَّمت إليه صحيفة، قال لأخيه: هذا لحم طير، هذا لحم حمار وحش، هذا لحم أرنب، هذا لحم كذا، وجعل يُعَدُّ عليه

(١) هكذا بالأصل.

أنواع الصيد؛ فنظر عبد العزيز إلى الغلام الذي على رأس أخيه قال:

إن لحوم الأطباء تعجبنني والحي منها إليّ أعجبها
فإن تطب هذه لوحشتها فأنسات الأطباء أطيبها
فوهب له محمد الغلام.

وحكي أن زُبيدة بعد قتل ولدها الأمين، وتألّفها قلب المأمون، أرسلت إلى المأمون أن كنْ في دعوتي يا أمير المؤمنين! أطعمك طعامًا ما أكلت أطيب منه قط، وأسقيك شرابًا ما شربت أطيب منه قط، وأصيدك ما صدت مثله قط، فأجاب المأمون، ووعد بالحضور، ثم قال ليحيى بن أكتم، وهو يومئذ قاضي القضاة: تأهب للحضور معنا غدًا في دعوة أم جعفر؛ فقال: سمعًا وطاعة يا أمير المؤمنين! ثم حضر من آثر من ندمائه ويحيى بن أكتم، فقدّمت إليهم الأطعمة الفائقة الصّنعَة ممّا أعجب المأمون واستطابه، ومن الشّراب العتيق المُرَوّق بالعود الهندي ما استلذّه.

وقال: لعمرى هذا الطّعام والشراب ما رأينا أطيب منهما قط، فليت شعري ماذا يكون الصّيد؟ فأمرّت برفع ستر في المجلس، وفتح له باب إلى بستان؛ فقال له يحيى بن أكتم: يا أمير المؤمنين ألا أكون أنا كلب الصيد؟

فقال: بلى فدونك، وادخل إلى البستان بين يديّ، فدخل إلى أنزه بستان وأنضره وأحسنه وأبهاه، فلما توسّطاه لاح لهما أربعون جارية أبكارًا نُهدًا رائعات، حول بركة عليهن أنواع الملابس المختلفة الألوان، فأول ما لاح لهنّ المأمون ويحيى بين يديه، أجفلن من بين أيديهما كالطّباء النَّافرات، وأمعنّ في الهرب فاسترن؛ فقال يحيى: هذا الصيد قد أجفل يا أمير المؤمنين! أفلا أمضي فأرّده إليك؟

قال المأمون: بلى دونك وذلك، فأقبلا يطردان الصيد، وكلما وقع بيد المأمون

واحدة؛ أَفْتَضَّهَا حَتَّى افْتَضَّ سَبْعًا؛ فَقَالَ لَهُ يَحْيَى: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! أَمَا يَصْطَادُ الْكَلْبُ لِنَفْسِهِ؟ فَقَالَ: بَلَى، فَاصْطَادَ الْمَأْمُونُ تَمَامَ الْعَشْرَةِ، وَاصْطَادَ يَحْيَى لِنَفْسِهِ أَرْبَعًا، وَخَرَجَا مِنَ الْبَسْتَانِ، وَقَدْ قَضَيَا يَوْمَهُمَا، وَرَدَّ عَلَيْهَا الْمَأْمُونُ جَمِيعَ ضِيَاعِهَا، وَوَصَلَهَا بِخَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ.

وَسَبِيلُ الْمُتَصَدِّى لِلْقَنْصِ التَّرْصُدُ لِلصَّيْدِ فِي مَطَانِهِ، وَهِيَ سَعْدَادُ سُوقِ الصَّفَرِ وَالرَّجِيَّةِ فِي غَدَاةِ كُلِّ يَوْمٍ، وَسُوقُ الثَّلَاثَا وَقْتُ الظُّهْرِ، وَمَوَاطِنُ الزِّيَارَةِ أُعْنِي الشُّونِيزِي فِي أَوَائِلِ نَهَارِ الْخَمِيسِ، وَقَبْرُ مَعْرُوفٍ، وَالسَّبْتِي وَأَبُو حَنِيفَةَ وَقَبْرُ أَحْمَدَ وَالرِّصَافَةَ، وَبَابُ أَرْزُ لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ، وَقَبْرُ الشَّيْخِ صَدَقَةَ، وَالْمَشْهَدُ لَيْلَةَ نَصْفِ شَعْبَانَ، وَالْمَقَابِرُ لَيْلَةَ الْعِيدِ، وَبَابُ الْحَلْبَةِ يَوْمَ قَرَحِ شَاعَةِ.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ الْقُمِّي الْكَاتِبُ: فَإِذَا وَقَعَ فِي حَبَائِلِ الْقَانِصِ الْجَارِيَةِ الْهِفَاءُ اللَّفَاءُ، الْمَعْنُوجَةُ الظَّرْفُ، الْمَلِيحَةُ الظَّرْفُ، الْفَائِقَةُ الْجَمَالُ، الْحَسَنَةُ الدَّلَالُ، النَّجْلَاءُ الْعَيْنِينَ، الْأَسِيلَةُ الْخَدَيْنِ، الرِّخَاءُ الْحَوَاجِبِ، النَّاعِمَةُ الرِّوَا حِبِ، النَّقِيَّةُ الْبَيَاضُ، الْبَدِيعَةُ الْأَعْرَاضُ، السَّبْطَةُ الْأَطْرَافُ، الثَّقِيلَةُ الْأَرْدَافُ، النَّاهِدُ الْعَرَاءُ، ثَبًّا كَانَتْ أُمُّ بَكْرٍ الَّتِي تَوْرَدُهَا شَعْرُهَا.

فَإِذَا حَصَلَتْ كَانَتْ أَطَايِبُهَا أَطِيبٌ مِنْ أَطَايِبِ الطُّبَاءِ وَالْجَاذِرِ، وَكَلَامُهَا أَحْلَى مِنَ السُّكَّرِ، لَمُقَبَّلُهَا حَلَاوَةٌ فِي فَيْكِ، تَسْلِيكَ عَنْ هُمُومِكَ، وَتَلْهِيكَ وَتَنْسِيكَ ذِكْرَ أَمَكِ وَأَيِّكِ وَصَاحِبَتِكَ وَأَخِيكَ، تَجْيِيكَ لِحَظَاتِهَا وَبَعْلَكَ بِرِصَاتِهَا، وَتَنْكُحُكَ مِنْ تَفَاحِ خَدَّهَا وَرِمَانِ صَدْرِهَا، هَذَا إِنْ مَلْتَ إِلَى نَسَقِ بَغِيرِ سَكِينٍ وَزَرَعَ بَغِيرِ سَرْحِينَ.

فَإِنْ آثَرَتْ مِنَ الطُّبَاءِ أَصْحَابَ الْخَصِي؛ لَمْ تَعْدَمْ أَنْ يَقَعَ فِي يَدَيْكَ، أَهْيَفُ الْقَوَامِ، رَخِيمُ الْكَلَامِ، مُوَافِقُ فَائِقٍ، جَمِيلُ رَائِقٍ، رَفِيقُ السَّمَرَةِ، بَدِيعُ الْحَمْرَةِ، أَدْعَجُ الْعَيْنِينَ،

مَيَّاسَ الْحَاجِبِينَ، مُورِدَ الْوَجْتَيْنِ، مُخْتَطِفَ الْخَصْرِ، نَقِيَّ الثَّغْرِ، مَرَحَّلَ الشَّعْرِ، إِذَا مَشَى خَطَرَ، وَإِذَا أَخْطَرَ أَسْهَرَ، مُجَاذِبَهُ أَرْدَافَهُ، وَتَهْزُهُ أَعْطَافَهُ؛ فَيَا حَبِذَا مِنْ صَيْدٍ هُوَ مُؤَنَسٌ غَيْرَ مُوحَشٍ، خَدَلَجَ السَّاقَيْنِ، لَذِيذَ الْعِنَاقِ، يَسْقِيكَ مِنْ فِيهِ خَمْرًا، وَيَشْمُكَ جِيدًا، وَنَحْرًا قَائِمًا، فَأَيُّهَا أَفْضَلُ الْآنَ عِنْدَكُمْ حَلْفًا أَوْ حَلْفًا أَوْ غَزَالًا أُنْسِي بِهِذِهِ الصِّفَةَ دَيْتَهُ عَشْرَةَ آلَافٍ دِرْهَمٍ، غَزَالٌ بَرِّيٌّ ثَمَنُهُ ثَلَاثَةُ دِرْهَمٍ، وَلَوْ لَمْ تَحِبَّ اقْتِنَاصَ غَزَالَانَ الْبَرِّ، وَإِرْسَالَ الْكِلَابِ عَلَيْهَا، وَإِدْخَالَ الْارْتِيَاعِ قُلُوبَهَا إِلَّا أَنْفًا وَإِشْفَاقًا عَلَى غَزَالِنَا الْأُنْسِيَةِ الَّتِي قَدَّمْنَا ذِكْرَهَا؛ لَوَجَبَ تَرْكُهَا وَلَحْرَمُ أَكْلِهَا.

وَجَدْتُ عِنْدَ بَعْضِ الْأَعْرَابِ قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا قَدْ قَبِضْتُ خَشْفًا، فَأَوْثَقْتُهُ كِتَافًا فِي حَبَالٍ، إِذْ اسْتَقْبَلَنِي غَلَامٌ لَهُ ظَفِيرٌ كَانَ كَأَنَّ وَجْهَهُ وَجْهَ الشَّمْسِ الطَّالِعَةِ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى الْخَشْفِ تَنَفَّسَ الصَّعْدَاءُ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ:

وَذَكَرَنِي مَنْ لَا أَبُوحُ بِذِكْرِهِ مَحَاجِرُ خَشْفٍ فِي حَبَائِلِ قَانِصٍ
فَقُلْتُ وَدَمْعُ الْعَيْنِ يَجْرِي بِحُرْقَةٍ وَلَحْظِي إِلَى عَيْنَيْهِ لِحْظَةً شَاخِصٍ
خَفِ اللَّهُ لَا تَحْبِسْهُ! إِنَّ شَبِيهَهُ حَيَاتِي وَقَدْ أُرْعَدَتْ فِيهِ فَرَائِصِي

قَالَ: فَأُطْلِقْتُهُ، فَاتَّبَعَهُ الْفَتَى بَعِينَهُ، ثُمَّ قَالَ لِي: أَيْنَ الْمَنْزَلُ؟ فَقُلْتُ: بِمَوْضِعِ كَذَا وَكَذَا، فَجَاءَنِي مِنَ الْغَدِ، يَقُودُ عَشْرًا مِنَ الْإِبِلِ، فَأَيَّيتُ فَحَلَفَ عَلَيَّ بِأَخْذِهَا؛ فَسَأَلْتُ عَنْهُ، فَقِيلَ لِي: يَعِشُقُ فَتَاةً مِنَ الْحَيِّ.

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَنْ تَعَرَّضَ لِقَنْصِ هَذِهِ الطُّبَاءِ تَصْلَحُ لَهُ؛ لِأَنَّ مُتَصِيدَهَا يَحْتَاجُ أَنْ يَجْتَمِعَ فِيهِ خِلَالٌ، وَأَدَابٌ؛ أَوْ لَهَا حَسَنُ الْخَلْقِ، وَلَيْنَ الْكَلِمَةِ؛ لِأَنَّ مِنْ حَسَنِ

(١) الْأَبْيَاتُ فِي «تَرْزِينِ الْأَسْوَاقِ فِي أَخْبَارِ الْعِشَاقِ» لِأَبِي دَاوُدَ الْأَنْطَاكِيِّ ص (٣٩٩)، وَ«مِصَارِعِ

خلقه كثر صديقه، ومن لانت كلمته وجبت محبته.

ومنها استعمال الصبر والرفق، وليس من تأخر عنه نيل من يهواه صدَّ عن إلفه،
وقلاه فاستشعروا الصبر؛ فإن لطف الحيلة أجدى من الوسيلة.

وفي ذلك يقول:

حيائي من أملتَه الودَّ والصِّفا وجاد بأمرٍ لم أكن فيه أطمعُ
برفق وصبر نلتُ خالص ودَّه وقد كان صعباً جافياً يتمنَّعُ
وقال آخر:

والرَّفَقُ يظفرُ بالآمال صاحبه ويعقب المرء في الحاجات إنجاءاً
ومنها: ساحة النفس، وسخاء الكف؛ فهو القطب الذي تدرك به الأمور
الصَّعبة، ويفتح به الأبواب المستغلقة، ويستعيد الأحرار، وما كذب من قال: الدِّراهم
مراهم.

كان غلام يتعشَّقه بعض الشعراء، فيمدحه بلا ورق؛ فكتب إليه يقول:
مثل امتداحك لي بلا ورق مثل الجدار بُني على خصٍّ
وألذ عندي من مديحك لي سود النعال ولين القمصِ
فإذا عزمت فهي لي ورقاً فإذا فعلت فلست أستعصي^(١)
حدَّثني صديق لي قال: اجتمع صديقان على شراب لهما؛ فقال أحدهما لصاحبه:
ما أحوجننا إلى ثالث؛ فقال الآخر: فلان مضرب مطرب فادعه، فكتب إليه يقول:
دعني من المدح والهجاء وما أصبحت تطويه لي وتنشره

(١) الأبيات لأبي نواس في «الأغاني» (١٨/١١٩٨٣).

لو وُضِع الدرهم الصحيح على باب حديد لذاب أكثره
فأنفذ إليه جذره، فصار إليه من وقته.

وقيل: إنَّ نصر دخل إلى مدينة السلام مرة، فلم يزل يمضي في مجالها حتى انتهى
إلى قطبعة الربيع؛ فإذا بجارية مشرقة، تنظر إلى الطريق، فهوها، فلم يزل يكتب إليها
يشكو محبتها، وهي لا تجيبه، فكتب إليها يوماً رقعةً يشكو فيها بثَّه، وفي آخرها:
هَلْ تَعْلَمِينَ وَرَاءَ الْحُبِّ مَنْزِلَةً تُدْنِي إِلَيْكَ فَإِنَّ الْحَبَّ أَقْصَانِي^(١)
فوقعت إليه تقول:

نعم حبيبي وراء الحب منزلة بذل الدرهم ترضي كل إنسان
من زاد في الوزن زدنا في محبته ما يطلب الدَّهر إلا فضل رجحان^(٢)
فلما قرأ الرُّقعة بعث إليها خريطة فيها ثلاثمائة درهم، فقبلتها منه، ووصلت
إليه؛ فبلغ مراده.

وقيل: عشق شاعر مغنية، فأدمن في قول الشعر فيها؛ فقالت له: ويلك لا
تلتقي شعرتان بشعر.

قال نصر القمِّي الكاتب: وإنما يدرك نهاية الأمانة من هذه الأسباب مثل سعيد
بن جميل؛ فإنه عشق بعض أولاد الأتراك، فحرص على تحصيله، فامتنع فلما كان بعد
مدة شرط عليه الغلام أن يصير إليه، فيقعد عنده من أذان المغرب إلى أذان العتمة
بخمسين ديناراً، فأجابه إلى ذلك، وأعطاه الدنانير، فلما حصل عنده كتب إلى مؤذن

(١) البيت لبشار بن برد في «الأغاني» (٩/٦١٧)، و«العقد الفريد» ص (١٠٨٣).

(٢) انظر: «محاضرات الأدباء» للراغب الأصفهاني ص (٣٢١٢).

مسجده يقول:

قل لداعي الصلاة آخر قليلاً قد قضينا حق الصلاة طويلاً
ليس في ساعة تؤخرها إثمٌ ثم تجازى به، ونحیی قتيلاً
وتراعي حق المودة فينا وتعافى من أن تكون ثقيلاً^(١)

قال: فما أذن في تلك الليلة إلا في الثلث الأول من الليل.

واعلموا أن أكثر النكد والعمر والمكاس والصد من الغلمان؛ فأما النساء فقد رخصت عليه جذورهن وسهلت أمورهن، وتحتاج أن تكون جعبته مملوءة سهاماً أي: رقاعاً رشاقاً مصدرة ترقيق الكلام ولطيف الشكوى، ولكن رقاغ من ابتدى المواصله واستدعى المراسلة، وضمّنها موضع دوركم.

فإذا اجتازت بكم المليحة الظريفة التي تقتل الصّب وتجلب اللب، فتوصلوا إلى إعطائها رقعة من تلك الرّقاغ؛ فإن قبلتها فقد أصاب السّهم، وإن لم قبلها فلا تعاودها أبداً؛ فإن العرب تقول: السّهام منايا تخطئ وتصيب، وهذه الرّقاغ فلا تستعملوها مع الغلمان؛ فإن الرّقعة إلى الأمر تعلّمه الكبر والتّيّه على عاشقه، وليس لهم غير الدّراهم والسّكر واستعمال البنج.

واعلموا أنه لو كانت المرأة أقسى قلباً من الحجر، وأصلب من الحديد، ثم وردت عليها رقعة، قد ضمنت ما تضمّنه العشاق رقاغهم؛ للانت له ولراضها، وذلك أن رأي النساء يرجع إلى أمن، وكيدهن إلى وهن، والمرأة يكفيها أن تعلم منك ميلاً إليها، وحرصاً عليها حتى يصيد ذلك نفسها، لعطف إبليس عليها.

كما قال الأوَّل:

عَرَّضَنَ الَّذِي تَحَبُّ بِحَبِّ ثَمَّ دَعَاهُ يَرُوضُهُ إِبْلِيسُ
وَانْحِ الطَّلَابَ، وَاصْبِرْ عَلَيْهِ إِنْ خَطَبَ الْهُوَى جَلِيلَ نَفِيسٍ^(١)
وَمَنْ أَصْلَحَ مَا يَسْتَعَانُ بِهِ عَلَى مَكَاتِبَتِهِنَّ مَا أَلْفَهُ الْوَسَاقِي فِي كِتَابِهِ «كِتَابُ فَرَحِ
الْمُهَجِّ».

وَحَدَّثَنِي بَعْضُ الْكُتَّابِ قَالَ: نَزَلْتُ بِبَغْدَادَ بِمَحَلَّةِ الظَّفَرِيَّةِ، فَلَقَيْتَنِي يَوْمًا امْرَأَةً
قَرِيبًا مِنْ دَارِي، فَحَارَ عَقْلِي لِبَهْجَتِهَا، وَأَدْهَشَنِي جَمَالُهَا، فَأَمَرْتُ غَلَامِي بِتَعَرُّفِ مَنْزِلِهَا
ثُمَّ كَتَبْتُ إِلَيْهَا أَقُولُ:

قُلْ لِمَنْ صَادَ قَلْبُنَا إِذْ رَمَانَا بِسَهَامِ اللَّحَاطِ تَحْتَ النَّقَابِ
مَا تَرَى فِي وَصَالِ صَبِّ شَدِيدِ الْحُبِّ نَرْضَى بِأَيْسَرِ الْأَسْبَابِ
يَنْبَغِي أَنْ تَزُورَهُ فِي عَفَافٍ وَإِذَا شِئْتَ فَهُوَ لَيْثُ الضَّرَابِ
فَرَقَعْتَ عَلَى الرُّقْعَةِ: قَدْ شِئْنَا يَا ظَرِيفَ، ثُمَّ قُلْتَ لَغَلَامِي: إِذَا جَاءَ تَكُمُ جَارِيَتِي،
فَلْتَصِيرَ إِلَيَّ، فَمَا رَأَيْتُ أَصْدَقَ مِنْهَا وَعَدًّا، وَلَا أَحْسَنَ مِنْهَا وَجْهًا وَخَلْقًا.

وَمَا شَيْءٌ أَجْلَبَ لِقُلُوبِهِنَّ مِنْ لَطِيفِ الْمَخَادَعَاتِ، وَطَرِيفِ الْمَدَاعِبَاتِ، وَمَلَحِ
الْمَلَاظِفَاتِ بِالتَّفَاحِ الْمَنْقُوشِ بِالذَّهَبِ، وَالْمَنَادِيلِ الْمَلِيحَةِ، وَالنَّعَالِ الْمَذْهَبَةِ، وَالْفَصْرِ
الظَّرِيفِ، وَالْقِنَاعِ الظَّرِيفِ، وَالْمَخَازِنِ الْمَمْلُوءَةِ مَسَكَاً، وَالْأَطْبَاقِ الصَّغَارِ الْمَغْطَاةِ
بِالْمَنَادِيلِ الْمَوْشَاةِ، وَفِيهَا مِثْلُ صَدْرِ دَجَاجٍ وَفَخْدِ دَجَاجَةٍ مَسْمُومَةٍ وَنَصْفِ فَرَخِ حَمَامٍ،
وَمَرْشَةِ مَاءٍ وَرَدٍ، وَقَدْ أَضِيفَ إِلَى ذَلِكَ رَطْلِيَّةٌ مَخْرُوطَةٌ مَمْلُوءَةٌ شَرَابًا مَزُوقًا قَدْ طُبِّبَ

وتفاحة معضوضة وشِّامة معمولة؛ فإن هذا أملح عندهن؛ فإن هذا أفخر الأشياء عندهن، واعلموا أن هذا التفاح يقال له: السياس، وبه تؤخذ المواعيد، وتستجلب القُبْل.

واعلموا أنَّه لا يتمكَّن الرجل من قلوبهن إلا بشدَّة رهزه، ومن عدم هذا الحال لم ينتفع بهنَّ؛ فإذا خلا أحدكم بحبيبه أو جلس مع عشيقته؛ فلا يكثر من الأكل والشرب، ولا يفتح باب شرهه، ولا يتمكَّن من شرابه، ولا يغفل من إغلاق بابه؛ فكثر الشُّراب قاطع عن الباءة، وفي قِلَّة الباءة سقوط الجاه.

وحكى نصر القمِّي الكاتب عن أبي عبد الله المفجَّع قال: زارتني ريطة لي ذات يوم، فأكثرْتُ من النَّبذ معها، حتى سكرْتُ، فحين حاولتها انقطعت ولم يتشر، وجاء الليل فانصرفت، وقلت في ذلك:

لي أيـرُّ أراحني الله منه صار همِّي به عريضاً طويلاً

نام إذ زارني الحبيب عناداً ولعهدي به ينـ^(١) الرسولا

حسبت زورة عليَّ لحيني فانصرفنا وما شفينا الغليلاً^(٢)

وقال بعضهم: كانت لي جارية لها من قلبي موضع، وكانت ظريفة، فانصرفت ليلة، وأنا سكران، فجاءت إليَّ على العادة، فلاعبتها وحادثتها؛ فلما أصبحت، قالت لي: يا مولاي! أبيات كنت أسمعها منك، تنشدها كثيراً، أوَّلها خليلي، فقلت: لعلَّها قول العباس بن الأحنف:

(١) كلمة تعني الجماع فضلنا عدم ذكرها.

(٢) البيت من الخفيف، وهو لمحمد بن المفجع النحوي في «الوافي بالوفيات» ص ٢٧٦، و«معجم الأدباء» ص (٤٢٣٥).

خَلِيلِي مَا لِلْعَاشِقِينَ قُلُوبٌ وَلَا لِلْعُيُونِ النَّاظِرَاتِ ذُنُوبٌ
وَيَا مَعَشَرَ الْعُشَّاقِ مَا أَوْجَعَ الْهَوَىٰ إِذَا كَانَ لَا يَلْقَى الْمُحِبَّ حَيِّبٌ^(١)
فقلت: كنت أسمعك تنشدها على غير هذا، قال: كيف كنت أنشدها؟ فقلت:
خَلِيلِي مَا لِلْعَاشِقِينَ أَيُّورٌ وَلَا لِحَيِّبٍ لَا يَنَالُ سُرُورٌ
فِيَا مَعَشَرَ الْعُشَّاقِ مَا أَوْجَعَ الْهَوَىٰ إِذَا كَانَ فِي أَيْرِ الْمُحِبِّ فَتُورٌ^(٢)
واعلم أنه ما من شيء أوفق لمن فاكه حبيبه من أن يشرب رطلاً، ويتنفل بقبلة،
ويحیی بيسمة وضمة، ويحيي روحه بفرد يروي به غليل قلبه، وعظيم كربه.
كما قال الشاعر:

يَا حَبْذَا مَنْ جَاءَنِي زَائِرًا فِي شَهْرِ ذِي الْحِجَّةِ مِنْ نَصْفِهِ
بَاتَ يُعَاطِنِي عَلَى خَدِّهِ خَمْرًا بِعَيْنَيْهِ وَمَنْ كَفَّهِ
وَكُنْتُ فِيمَا بَيْنَ ذَا رَبِّمَا أَدْنَيْتُ خِلْجَالِيهِ مِنْ شَنْفِهِ^(٣)
واعلموا أن القُبلَ دواعي الشهوة، والنشاط، وسبب الانتشار، والإنعاط،
ومُنْبَهَاتُ الأيُور، ومُهَيِّجَاتُ للإناث والذكور، ولا سيما إن خُلِطَ بَيْنَ كُلِّ قُبْلَتَيْنِ عَصَّةٌ
خفيفة، وقرصة ضعيفة، واستعمل المصُّ والمسارفة والتحرُّد والمعانقة؛ فهناك تتأجج

(١) البيت من الطويل، وهو للعباس بن الأحنف في ديوانه من قصيدة البيت الأول مطلعها، وفي «الإياء الشواعر» لأبي الفرج الأصفهاني ص ٢٧.

(٢) البيت من الخفيف، وهو لعنان الناطفية في ديوانها من قصيدة البيت الأول مطلعها، وفي «الإياء الشواعر» لأبي الفرج الأصفهاني ص ٢٧.

(٣) الأبيات من السريع، وهي لأبي نواس في ديوانه من قصيدة البيت الأول مطلعها، وفي «قطب السرور في أوصاف الخمور» ص (٧٨٣).

الغلمتان، وتتفق الشهوتان، ويفرح بهما قلب الشيطان، ولو أن رجلاً فعل هذا بامرأة شابة دائماً، ولم يجامعها؛ خرجت في قلبها قُرحة السُّل، وماتت في أقرب مدة كمداً، وليست تُريدُ المرأة الرجل إلا لحالة واحدة، ولو أجاعها وأعرها.

وأنشدت لبعض العرب:

قَالَتْ سُلَيْمَى لَيْتَ لِي بَعْلًا يَمُنْ بِغَسْلِ جِلْدِي وَيُنَسِّينِي الْحَزْنَ
وَحَاجَةً مَا إِنْ هَا عِنْدِي ثَمَنُ مِسْوَرةٍ قَضَاؤُهَا مِنْهُ وَمِنْ
قَالَتْ نِسَاءُ الْحَيِّ يَا سَلَمِي وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا مُعْدِمًا قَالَتْ وَإِنْ^(١)

ولبعضهم وقد تولّع بالرسول وناق، وهي هذه الأبيات:

زَعَمَ الرَّسُولُ بِأَنِّي جَمَّشْتُهُ كَذِبَ الرَّسُولِ وَفَالِقِ الْإِصْبَاحِ
إِنْ كُنْتُ جَمَّشْتُ الرَّسُولَ فَمَا قَضَتْ رُوحِي أَنَا مَلُّ قَابِضِ الْأَرْوَاحِ
قَلْبِي الَّذِي لَمْ يُبْقِ فِيهِ هَوَاكُمُ فَضْلاً لِتَجْمِيشٍ وَلَا لِمَزَاحٍ^(٢)

وقال المأمون لرسول بعث به:

بَعَثْتُكَ مُشْتَاقًا فَفُزْتَ بِنَظَرَةٍ وَأَغْفَلْتُني حَتَّى أَسَأْتُ بِكَ الظَّنَّ
وَنَاجَيْتَ مَنْ أَهْوَى وَكُنْتَ مُقَرَّبًا فَيَا لَيْتَ شِعْرِي عَنْ دُنُوكَ مَا أَغْنَا
وَرَدَّدْتَ طَرْفًا فِي مَخَاسِنِ وَجْهِهَا وَمَتَّعْتَ بِاسْتِمَاعِ نَغْمَتِهَا أَذْنَا

(١) الرجز لرؤبة بن العجاج في «العقد الفريد» ص (٢٣٩١)، و«خزانة الأدب» ص (٧٤٢٢).

(٢) الأبيات من الكامل، وهي لأبي نواس في «الأمالي» للزجاجي ص (١٤٤).

أَرَى أَثَرًا مِنْهَا بِعَيْنَيْكَ لَمْ يَكُنْ لَقَدْ سَرَقَتْ عَيْنَاكَ مِنْ وَجْهَهَا حُسْنًا^(١)

وقيل: إن رجلاً عبث بجارية لابن أبي عتيق، فأعلمته الخبر؛ فقال: لها عديهِ وأدخله الحَجَلَةَ، ففعلت، فأخذ ابن أبي عتيق بيد شيخ من جيرانه، واختفى هو والشيخ، وأدخلت الجارية صديقها؛ فلمَّا حصل معها، وافاه ابن أبي عتيق والشيخ وفتحوا السَّجَفَ عنهما؛ فقال: أشهد أنَّ ما اجتمعتما إلا لزنية، فقال: يا ابن أبي عتيق! فاستر علينا ستر الله عليك، وليس يَتَّفِقُ للتهور كظرف ابن أبي عتيق.

وقيل: استعينوا على هوكم بالكتمان، وكانت الحكماء تقول: سُرُّكَ من دَمِكَ؛ فانظر أين تريقه؟!

ليكن صدرك للأسرار حصناً لا يرام إنَّما تنطق بالسر وتبديه اللثام
وليس من المروءة والفتوة أن يُخْرِجَ أحدكم من سرِّ حبيبه، ويقول لبعض
إخوانه: قد فعلتُ بفلانٍ، وهَوْتُ بفلانة بنتِ فلان؛ فيَقْصُدَ على نفسه عشيرته، ويبعث
النَّاسَ على ذمِّ خُلُقِهِ.

واعلموا أن الصبر والتَّائِي مدركةٌ، والعجلة والخرق مهلكةٌ.

قال الشاعر:

قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ^(٢)

ولا تحسُنْ العجلةُ والورْبَةُ إلا عند انتهاز الفرصة، ومساعدة الوقت، والأمَن

(١) الأبيات من الطويل، وهي للمأمون في «الزهرة» ص (٩٨٣)، و«الشعر والشعراء» ص (٣٨).

(٢) البيت من البسيط، وهو للقطامي التغلبي في «الأغاني» (١٥٦٦٣/٢٤)، و«الأمثال» ص

من المراقب؛ فحيثُ لا بأس بالأخذ بقول الشاعر:

وقد يفوت رجالاً بعضُ ما طلبوا من التَّائِي وكانَ الحَزْمُ لو عَجِلُوا^(١)

ومما يحذّر العشّاق منه الافتتان بالأنفة، وعزة النفس، ومفارقة الحبيب لذلك، وأعرف جماعة فسد عيشتهم بهذا فساداً لم ينتفعوا معه بأنفسهم، وكثير ما يقع من يعتمد ذلك في السّل والدّق.

واعلموا أن أحسن ما استُعْمِل صدق الوعد؛ فإذا وعدتْ فأنجز، وليس تحمِلُ مواعيد العشاق طول المَطْل، وكثرة النَّفاق، ولا يستحسن من العاشق التَّوَانِي، ولا من المعشوق التقاضي، والرَّدُّ الجميل أحسن من الموعد الطَّوِيل، وحسن الاعتذار من قبح الإصرار.

ولست أعرف في التقاضي أحسن من قول أبي الشيص، وقد وعده صديق له بمخدّة، فأبطأت عليه، فكتب إليه يقول:

يا صديقي وخليلي وأخي في كلّ شدّة

ليت شعري أزرعتم بذر كتّان المخدّة

وقال رسول الله ﷺ: «تهادوا وتحبوا»^(٢).

ولا عذر لعاشق في تأخر هداياه قلّت أو كثرت، والعاشق يستحسنون استهداء أحبّاءهم مساوئك، وأخذ المصطكا من أفواههم، وبقية ماء، وشراب في كأس، وفضل نقل.

(١) البيت من البسيط، وهو للقمامي التغلبي في «الحماسة البصرية» ص (٧٠٤)، و«لباب الألباب» ص (٢٩٨).

(٢) رواه البيهقي في سننه (١٦٩/٦)، وابن عبد البر في «التمهيد» (١٧/٢١).

واستهدى رجل من ربيعة له مصطكا، وقال لها: اجعليه إذا مضغتيه بين دينارين، لئلا يقدره الرسول، فوجهته بين قطعتين من العود، وقالت: خفت أن أبعث إليك به في الذهب، فيذهب فبعثت به في العود ليعود.

واعلموا أنه ليس يلتف الساق بالساق، والاعتناق بالاعتناق إلا بالذهب والأوراق، ومن اتكل على إهداء ليرة كان الحب لغيره، ومن ظن أنه يجمع الفضة النضة بغير الذهب والفضة أخرج نفسه.

واعلموا أنهم ما هن وفاء يسكن إليه، ولا عهد يركن إليه ويعول عليه.

قال الشاعر:

رأيت الغواني لا يصاحبن صاحباً وخلاً إذا لم ترضهن الدبالك

فمن كان ذا أير شديد وصلته وإن كان رخو أيره فهو هالك

ذكروا أن الفراء الأعرابية كانت لا تزال تنتقل إلى بعل بعد بعل؛ فتزوجها رجل قصير العرق، قليل الباءة، فلما واقعها استحى منها من قصر أيره؛ فقال لها: أنت واسعة ثم أراد في آخر الليل النهوض إليها، فكان أشدَّ عجزاً، فقال لها: أنت واسعة؛ فقالت:

أني تزوجت من بعد الخليل فتى مرزءاً ماله عرق ولا باه

ما غرني فيه إلا حسن طرته ومنطق حسن مُذ كان هيّاه

فقال لما خلا بي أنت واسعة وذاك من خجل مني تغشاه

فقلت لما أعاد القول ثانية أنت الفداء لمن قد كان يملأه^(١)

وقيل في قضاء حق الرقيب:

نـي^(٢) الرقيب على الحبيب لعمرك ما يحبُّ يكون
 إن الرقيب إذا قضيت حقوقه أضحى يقود عليك وهو أمين
 ومن أحسن ما سمعت في الرقيب ما قيل في جارية، جعلت رقية على مغنية:
 فَدَيْتُكَ لَوْ أَتَاهُمْ أَنْصَفُوا لَرَدُّوا النَّوَاطِرَ عَنْ نَاطِرِكَ
 وقد جعلوك رقيّاً علينا فمن ذا يكون رقيّاً عليك
 تَرُدِّينَ أَعْيُنَنَا عَنْ سِوَاكِ وَهَلْ تَنْظُرُ الْعَيْنُ إِلَّا إِلَيْكَ^(٣)
 فأما الدبيب في بيوت الأصدقاء، فمكروه قبيح؛ فليحذر.

حكى أن ابن سلام شرب عند صديق له، فوضع عينه على غلام في المجلس،
 فلما نام الغلام، قام ليدب عليه، فلسعته العقرب فصرخ، وما زال ملقى إلى أن قام جميع
 القوم إليه بأنواع المزاحات حتى أصبح، وهو القائل:

ولقد نهضتُ من الفراش لموعِدِ حَصَلْتُهُ مِنْ غَادِرِ كَذَابٍ
 فإذا على ظهر الطريق مُعَدَّةٌ سوداءُ قد عرفت أوان ذهابي

(١) الأبيات لثواب الهمذانية في «نزهة الجلساء في أشعار النساء» للسيوطي ص (١٣)،
 و«الكشكول» ص (٨٧١).

(٢) كلمة تعني الجماع فضلنا عدم ذكرها.

(٣) الأبيات من المتقارب، وهي للناسي الأكبر في «الوافي بالوفيات» ص (١٤٢١٣)، و«ديوان
 المعاني» ص (١٥١٧).

لا بَارِك الرَّحْمَنُ فِيهَا عَقْرَبًا دَبَابَةً دَبَّتْ إِلَى دَبَابٍ^(١)

وقد أضاف الفرزدق رجل من العرب، فأحسن ضيافته؛ فلما كان الليل، قام ليدب عليها، فشدَّ عليه زوجها، فهربت منه؛ فقال فيه جرير:

وَكُنْتُ إِذَا حَلَلْتَ بِدَارِ قَوْمٍ رَحَلْتَ بِخِزْيَةٍ وَتَرَكْتَ عَارًا^(٢)

وإنما يصلح الدَّيِّب للرجل في منزله إلى خادم أو جارية في منزله سرًّا من زوجته أو مع غلام شرير الأخلاق حين سكره؛ فكم جارية سكرت للرجل اللبيب في اللبيب.

واعلموا أن النفاق أعظم مكائد العشاق، وأنفع آلات الفساق، وبه يتعامل أهل العراق؛ فاستعملوا النفاق مع هذه الطبقة، وشدة الخضوع، وحسن الخشوع، ولا يغضنَّ أحدكم من قبح يسمعه من حبيته، فإن احتمال العاشق للمعشوق فضيلة وكرم.

وقد أحسن الذي يقول:

ذُلُّ الْفَتَى فِي الْحُبِّ مَكْرُمَةٌ وَخُضُوعُهُ لِحَبِيبِهِ شَرَفٌ^(٣)

وروي أن عزة قالت لبشينة: تصدِّي لكثير، وأطمعني من نفسك حتى سمع ما تقول ثم أقبلت بشينة وعزة تمشي ورائها متخفية؛ فعرضت له فقال:

(١) الأبيات من الكامل، وهي لابن بسام البغدادي في «الوافي بالوفيات» ص (١٧٥٤١)، و«معجم الأديباء» ص (٣٢٢٤).

(٢) البيت من الوافر، وهو لجرير في «نهاية الأرب في فنون الأدب» ص (٢٠٩١)، و«الأغاني» (١٠٤٨٧/١٦).

(٣) البيت في «المدح» لابن الجوزي ص (٨١٢)، و«طبقات الألباء» لابن الملقن ص (٤٢٣).

رمتني على عمد بشينة بعدما تولى شباي وأرجحن شباها
بعينين نجلاوين لورقرقتها لنؤثر الثريا لاستهل سحابها
فكشفت عزة عن وجهها؛ فبادر وقال:

ولكنّا ترمين نفساً مريضةً لعزة منها صَفوها ولُبابها^(١)
فضحكت ثم قالت: أولى لك بها نجوت، ثم انصرفت، وهما يتضاحكان.

ورُبّما جرب المعشوق عاشقه بحبه إياه بالكلام الغليظ، ليعرف ما عنده من
مودته، وهل يغير ذلك شيئاً من محبته أو تحمله الأنفة على مقابلته.

كما حدّث بعضهم قال: أبصرت في بعض الطرقات بشر من وراء جارية مشرفة
من قصر، وهي تقول:

من بخل إذا ما الفحص يشفه أوفى على ظاهر منه بباطنه
هيهات أعوذني هذا فلست أرى للعهد غير قليل العهد خائنه

قال: فرفعت رأسي؛ فقلت: أراك غير عذور للحفظ، فأخبرتني تخمديني،
فقال لي ممتحنة لي، وأنا لا أعلم: اذهب يا ابن البطراء ما أنت، وما مقدارك؟
قال: فغضبت، وقلت لها: يا بصراء، أقل جارية لي في داري أجل منك،
فضحكت، وقالت: حسبي بهذا الإخبار عن كثير ما في الإضرار.

ومن العشاق من يستنكف شيمة معشوقة له.

وقد قال أبو نواس:

إن كنت لا ترحمني سيدي والقلب في منزلة صعبة

(١) انظر: «الأذكياء» لابن الجوزي ص (٢٥١)، و«الأغاني» (٩/٥٦٧٧)، و«الكشكول» ص

فيرانى كما أرى أمتى جريت بين الشفة العذبة
ولبعضهم:

تمارضت كي أشجى وما بك علة تُريدن قتلي قد ظفرت بذلك
لئن ساءني ذكراك لي بمساءة لقد سرّني أني خطرْتُ ببالك^(١)
وقال كثير:

هنيئاً مريئاً غير داءٍ مُحامِرٍ لِعِزَّةٍ مِن أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتِ^(٢)
وقال قوم: الحبُّ يطيب بالنَّظَرِ، ويفسد بالعهر.

واستشهدوا بقول الشاعر:

مَا الْحُبُّ إِلَّا قَبْلٌ وَغَمَزُ كَفٍّ أَوْ عَضْد
مَا الْحُبُّ إِلَّا هَكَذَا إِنْ نَكَحَ الْحُبُّ فَسَدُ^(٣)
وقال آخر:

قد فسد الحب وهان الهوى وصار من يعشق مُستعجلاً
يريد أن ينكح أحبابه من قبل أن يسهر أو ينحلا^(٤)

(١) البيتان من الطويل، وهما لعبد الصمد بن المعذل في «الأمالي» لأبي علي القالي ص (٧٣)، و«العقد الفريد» ص (١٣٣١).

(٢) البيت من الطويل، وهو لكثير عزة في «أخبار النساء» لابن الجوزي ص (٣٨٨)، و«الشعر والشعراء» ص (١٣٣١).

(٣) البيتان من مجزوء الرجز، وهما للأمين العباسي في ديوانه من قصيدة البيت الأول مطلعها، وفي «أخبار النساء» لابن الجوزي ص (٧٤).

(٤) البيتان لعبد الحميد المَلْطِي في «المستطرف في كل فن مستظرف» للأبشي ص (١٩٠٤)، و«الموشى» للوشاء ص (١٩٦).

وقال المتنبي:

وَمَا كُلُّ مَنْ يَهْوَى يَعْفُ إِذَا خَلَا عَفَافِي وَيُرْضِي الْحَبَّ وَالْحَيْلُ تَلْتَقِي^(١)
ولآخر:

إِلَّا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ حَلِيلَتِكَ نَلْتَهُ وَلَوْ كَانَ أَدْنَى مَرْقَدِ الْعَيْنِ نَافِعٍ
وللعباس بن الأحنف:

أَتَأَذْنُونَ لِصَبِّ فِي زِيَارَتِكُمْ فَعِنْدَكُمْ شَهَوَاتُ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ
لَا يُضْمِرُ السُّوءَ إِنْ طَالَ الْجُلُوسُ بِهِ عَفُ الضَّمِيرِ وَلَكِنْ فَاسِقُ النَّظَرِ^(٢)
ولعمر بن أبي ربيعة:

لِعَمْرِي إِنِّي مَا صَبَوْتُ وَمَا صَبْتُ وَإِنِّي إِلَيْهَا مِنْ صَبًّا لِحَلِيمٍ
سِوَى قَبْلَةٍ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ذَنْبَهَا وَأَطْعَمُ مَسْكِينًا بِهَا وَأَصُومُ^(٣)
وقال الآخر:

كَمْ قَدْ ظَفَرْتُ بِمَنْ أَهْوَى فَيَمْنَعُنِي مِنْهُ الْحَيَاءُ وَخُوفُ اللَّهِ وَالْحَذَرُ
كَمْ قَدْ خَلَوْتُ بِمَنْ أَهْوَى فَيَقْنَعُنِي مِنْهُ الْفَكَاهَةُ وَالتَّحْدِيثُ وَالنَّظَرُ
أَهْوَى الْمَلَا حَ وَأَهْوَى أَنْ أَجَالَسَهُمْ وَلَيْسَ لِي فِي حَرَامٍ مِنْهُمْ وَطَرُ

(١) البيت من الطويل، وهو للمتنبي في «البدیع فی البدیع فی نقد الشعر» ص (٤٩٧).

(٢) البيتان من البسيط، وهما للعباس بن الأحنف في «الأغاني» (٨/٥٥٠٧)، و«الزهر» ص (١٣٦).

(٣) انظر: «عيون الأخبار» لابن قتيبة الدينوري ص (٢٥٦٤).

كذلك الحب لا إتيان معصية لا خير في لذة من بعدها سقر^(١)

وصاحب هذا الداء إما أن يكون عنيئاً أو رخوياً أو متتكفاً.

وأنشد بعضهم:

ما يرعوى عن نيل معشوق له في النَّاس إلا عاجز عني

وقال الآخر:

أخبرنا عن بعض أشياخه أبو بلال شيخنا عن شريك

لا يشتفي العاشق من عشقه بالضم والتقييل حتى ين^(٢)

ولبعضهم:

شفاء الحبّ تقييلٌ وضمٌّ وجرُّ البطون على البطون

ورهرزٌ تذرفُ العينان منه وأخذٌ بالذوائب والقرون^(٣)

وإن ذهب قومٌ إلى قول النبي ﷺ: «مَنْ عَشَقَ فَعَفَ فَمَاتَ؛ فَهُوَ شَهِيدٌ»^(٤)؛ فليس

كُلُّ أَحَدٍ يُحِبُّ أَنْ يَسْتَشْهَدَ، وَلَا كُلُّ مَنْ لَمْ يَكُنْ شَهِيدًا دَخَلَ النَّارَ.

قال الكاتب: العمى والحبُّ بلا نبل كالسَّداء بلا لحمية، وكالأرض بغير سماء،

(١) الأبيات من البسيط، وهي لابن عرفة المهلبى في «الوافى بالوفيات» ص (٤٢٨٠)، و«معجم الأدباء» ص (٢٠١).

(٢) كلمة تعني الجماع فضلنا عدم ذكرها.

(٣) البيتان من الوافر، وهما لأم الضحاك المحاربية في «الآلئ في شرح أمالي القاضي» للبكري ص ١٢٢٠.

(٤) ذكره المناوي في «فيض القدير» (٣٥٨/٦)، والعلجوني في «كشف الخفاء» (٣٤٥/٢)، وسنده ضعيف عند أهل الحديث.

والزرع بغير ماء؛ لأن المرأة مثل الأرض، ومثل الرجل عليها كمثل السماء يقطرها، فتنبت أشجارها، ويفجر أنهارها، ويظهر أنوارها.

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِبَيْحٍ﴾ [الحج: ٥].

واعلموا - رحمكم الله - أن النكاح فيه محروم ومرزوق؛ فمن الناس من لا يأتيه من يريده إلا بالتعب والنَّصَب والخوف والجزع، ومنهم من يتَّق له إيتاء شهواته على أفضل مراده، وهو نائم.

كما حَدَّثُ أَنَّهُ قِيلَ لبعض المجانين: ما تقول فيمن نام في شهر رمضان، فانتشرت آلته، وأخذت زوجته لتجلس عليها، فقعدت عليه، ففزع؛ أَفَسَدَ صومه أم لا؟ فقال: والله هذا مرزوق هو عندي.

ويحتاج العاشق إلى الذكاء والبراعة والبلاغة والفصاحة؛ فإنه يبلغ بها في بعض الأوقات ما لا يبلغه الأموال الخطيرة.

كانت عُرَيْب المأمونية تحبُّ محمد بن حامد، وكان يبطن عليها في الزيارة لحذره من الخليفة وخوفه؛ فكتبت إليه يوماً تستدعيه إلى موضع تواعدا فيه، فكتب إليها يعتذر؛ لخوفه من الخليفة أن ينتهي إليه فيهلكه؛ فكتبت تقول:

إِذَا كُنْتَ تَحْذَرُ مَا تَحْذَرُ وَتَزْعُمُ أَنَّكَ لَا تَقْدَرُ

فَمَا لِي أَقِيمُ عَلَى صَبَوِي وَيَوْمَ لِقَائِكَ لَا يَقْدَرُ^(١)

فصار إليها من وقته.

(١) البيتان من المتقارب، وهما لعرب المأمونية في ديوانها من قصيدة البيت الأول مطلعها.

وغضب بعض جوارِي عليّ بن هشام على عليّ؛ فكتب إليها يقول:

مَا أُرَانِي إِلَّا سَاهَجُرُ مَنْ لَيْسَ يَرَانِي أَقْوَى عَلَى الْهَجْرَانِ

مَلَّنِي وَاثْقَابِ حُسْنٍ وَفَائِي مَا أَضَرَ الْوَفَاءَ بِالْإِنْسَانِ^(١)

فخرجت إليه من ساعته.

واجتمعت عريب بمحمد بن حامد في خيمة استعارتها من صاحبها، واشتغل بمعاتبتها فالتفت إليه، وقالت: يا عاجز! خذ بنا فيما جئنا له، واجعل سراويلي مخنفتي، وألصق خلخالِي بقرطي.

ومن أحسن ما سمعنا من لطافة الحسّ والذكاء في مجالس السماع، ما روي عن المأمون، وقد حضر عنده خواص ندمائه في مجلس الندام منهم محمد بن حامد؛ فغنت عريب بعد أصوات كثيرة تقول:

كُلَيْبٌ لَعَمْرِي كَانَ أَكْثَرَ نَاصِرًا وَأَيْسَرَ ذَنْبًا مِنْكَ ضَرَجَ بِالدَّمِ

رَمَى ضَرْعَ نَابٍ فَاسْتَمَرَ بِطَعْنَةٍ كَحَاشِيَةِ الْبُرْدِ السِّمَانِيِّ الْمُسَهَّمِ^(٢)

فأشار عليها أن امسكي ثم أقبل على جلسائه؛ فقال: بحياتي أياكم أشار إلى عريب بقبلة، وهو آمن، وإلا ضربت أعناقكم جميعاً، وتربة الرّشيد، فقال أحمد أبو عيسى بن الرّشيد: يا أمير المؤمنين! لا تظلم القوم فَمَنْ هَاهُنَا يُجَسَّرُ عَلَى هَذَا إِلَّا مُحَمَّدُ بْنُ حَامِدٍ، فقال له المأمون: بحياتي أَشَرْتُ إِلَيْهَا بقبلة؟ وأنت آمن، فقال: نعم يا أمير المؤمنين! فقال إبراهيم بن المهدي: بماذا عرفت هذا يا أمير المؤمنين؟

قال: إني أعرف هذه الفاجرة ما تَغْنِي صَوْتًا لَا يَقْتَرَحُ عَلَيْهَا إِلَّا مَعْنَى أَوْ سَبَبٍ،

(١) البيتان من الخفيف، وهما للعباس بن الأحنف في «الأغاني» (٧/ ٤٨١٧)، و«البصائر والذخائر» ص (٢٢٥٨).

(٢) البيتان من الطويل، وهما للناطقة الجعدي في «الأغاني» (٤/ ٣٠١٥)، و«العقد الفريد» ص (٣٨٥٤).

ولم أجد في غنائها بهذا البيت بمعنى إلا طعنة، وهو جواب بمثلها إذا أشار أحد إليها بقبلة فعلمت أن بعض الحاضرين قد أشار إليها، ثم قال المأمون: أيكم يرضى أن يكون كَشْحَانًا حتى أزوجه بعريب؟ فسبق محمد بن حامد، فقال: أنا، فقال: اشهدوا أن قد زوجت هذا الكشحان بهذه الفاجرة.

ويحتاج المتصدّي لهذا الأمر أن يكون كثير الحفظ للأبيات المقطعات المختارة؛ فإن البيت الواحد منها رُبَّمَا قضى وطره من معاتبه ونحوها.

كما يقول الأعشى:

وَمَنْ يُطِيعِ الْوَاشِينَ لَا يَتْرُكُوا لَهُ صَدِيقًا وَلَوْ كَانَ الْحَيِّبَ الْمُقَرَّبَا^(١)

وكقول ابن الرومي:

أَرَاكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ شِزْرًا كَمَا نَظَرْتَ إِلَى الشَّيْبِ الْمَلَحِ

تُحْدُونِ الْحَدَاقَ إِلَيَّ مَقْتًا كَأَنِّي فِي عِيُونِكُمُ السَّحَابُ^(٢)

وكقول ابن المعتز:

وَإِخْرُقِي كَيْفَ شِئْتَ خُرْقَ جَهُولٍ إِنَّ عِنْدِي لَكَ إِصْطِبَارَ لَيْبٍ^(٣)

وكقول الآخر:

لَيْسَ الْحِجَابُ بِمُقْصٍ عَنْكَ لِي أَمْلًا إِنَّ السَّمَاءَ تُرْجَى حِينَ تَحْتَجِبُ^(٤)

(١) البيت من الطويل، وهو للأعشى في «عيون الأخبار» لابن قتيبة الدينوري ص (٩٨٠).

(٢) البيتان من الوافر، وهما لمخلد الموصلي في «التذكرة الحمدونية» (٣٠٥٣)، و«التشبيهات» ص

(٥٧٢)، ولبكر بن النطاح في «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» لابن الأثير ص (٤٧٧).

(٣) البيت من الخفيف، وهو لعبد الله بن المعتز في «المتحل» لأبي منصور الثعالبي ص (٢٩٨).

(٤) البيت من البسيط، وهو لأبي تمام في «أخبار أبي تمام» للصولي ص (١٦١)، و«الأغاني»

وكقول الآخر:

إذا اشتدَّ عسرٌ فارجُ يسرًا فإنه قضى الله أن العسرَ يتبعه يسرًا^(١)

وكقول البحري:

أحنو عليك وفي فؤادي لوعةٌ وأصدُّ عنك ووجهٌ ودِّي مُقبِلٌ
وَإِذَا هَمَمْتُ بِوَصْلِ غَيْرِكَ رَدَّنِي وَلَهُ إِلَيْكَ وَشَافِعُ لَكَ أَوَّلُ
وَأَعِزُّنَا أَدْلُ ذِلَّةَ عَاشِقٍ وَالْحُبُّ فِيهِ تَعَزُّزٌ وَتَذَلُّلٌ^(٢)

وكقول الآخر:

وأنا وإياكم على كل حالة لثلاث بل أنتم إلى الصِّلح أحوج^(٣)

وكقول حاتم الطائي:

ونفسك أكرمها فإنك إن تهن عليك فلن تلقى لها الدَّهر مُكرِماً^(٤)

وكقول الآخر:

سأكرم نفسي إنسي إن أهنتها لعمرك لم أترك لها الدَّهر مُكرِماً

وكقول الآخر:

فإنك لن ترى طردًا حُرًّا كإلصاقٍ به طرف المهوان^(٥)

(١) البيت في «الفرج بعد الشدة» للقاضي التنوخي ص (٢٩٥).

(٢) الأبيات من الكامل، وهي للبحري في «التذكرة الحمدونية» ص (٣٨٥٣).

(٣) البيت لزهير بن أبي سلمى في «خزانة الأدب» لعبد القادر البغدادي ص (١٤٩٣).

(٤) البيت من الطويل، وهو لحاتم الطائي في «محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء» ص

(٩٦٩)، و«الحياة البصرية» ص (٦٥٩)، و«خزانة الأدب» ص (١٩٧٣).

(٥) البيت من الوافر في «الأمال» لأبي علي الفاي (١١٥٤/٢)، و«العمدة» ص (٥٩٩).

وكقول البحرى:

إِنْ جَرَى بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ عَتَبٌ أَوْ تَنَاءَتْ مِنَّا وَمِنْكَ الدِّيارُ
فَالوِدادُ الَّذِي عَهِدَتْ مُقِيمٌ وَالدموعُ الَّتِي شَهِدَتْ غِزارُ^(١)
وكقول الآخر:

إِنْ كَاتَمْنَا الْقَلَى نَمَّتْ عَيُونُهُم وَالْعَيْنُ تَظْهَرُ مَا فِي الْقَلْبِ أَوْ تَصِفُ^(٢)
وكقول دُرَيْدِ بْنِ الصَّمَّةِ:

وَلَا تَخْفَى الْمَوْدَةُ حَيْثُ كَانَتْ وَلَا النَّظَرُ الصَّحِيحُ مِنَ السَّقِيمِ^(٣)
وكقول الآخر:

أَلَمْ بِهِ لَقَدْ صرْتُ عَنْده رَخيصًا وَقَبْلَ الْيَوْمِ قَدْ صرْتُ غَالِيًا
وَيَحْتَاجُ إِلَى حِفْظِ الْأَصْوَاتِ الْمُخْتَارَةِ كَهَذِهِ الْأَصْوَاتِ صَوْتُ:
وَيَهْتَزُّ لِلْمَعْرُوفِ فِي طَلَبِ الْعَلَا لَتُحْمَدَ يَوْمًا عِنْدَ لَيْلَى شَمَائِلُهُ^(٤)
صوت آخر:

يَا عَبْدَ اللَّهِ إِرْحَمِي عَبْدَكَ وَعَلَّلِيهِ بِمُنَى وَعَدِكَ
يُصْبِحُ مَكْرُوبًا وَيُمْسِي بِهِ وَلَيْسَ يَدْرِي مَا لَهُ عِنْدَكَ^(٥)

(١) البيتان للبحري في «المدح» لابن الجوزي ص (١٤٧)، و«مصارع العشاق» ص (٥٦).

(٢) البيت في «عيون الأخبار» ص (١٣٤١).

(٣) البيت من الوافر، وهو لدريد بن الصمة في «العقد الفريد» ص (٣٣٩)، و«عيون الأخبار» ص (٢٠٠٥).

(٤) البيت من الطويل، وهو لكثير عزة في «الأمالي» (٧١٩/٢)، و«الزهرة» ص (٦٣٦).

(٥) البيت من السريع، وهو لبشار بن برد في ديوانه من قصيدة البيت الأول مطلعها.

صوت:

أفسد الحج علينا نسوة رحن إلينا
 نسوة من عبد شمس كنَّ الموسم زينا
 يتقاضون ديوننا ثم لا يقضون ديننا

صوت:

أيا بصري عطفًا عليَّ ويا سمعي ويا مسرفًا عند القطيعة في منعي
 سل المطر العام الذي عمَّ أرضكم أجاء بمقدار الذي فاض من دمعِي^(١)

صوت:

ومستوجب للحب شتى غرائبه يُدِلُّ بحسن ما تقضى عجائبه
 ذخرت له في الصدر مني مودةً وخلت عنه مهملاً لا أعاتيه^(٢)

وقال آخر:

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم يوم النوى فعلت ما لم أفعل^(٣)

آخر:

تصدون عمن لو تيقن أنه صدود انقطاع عنكم لتقطعوا^(٤)

آخر:

(١) البيت الثاني من الطويل، وهو لخالد الكاتب البغدادي في «الوافي بالوفيات» ص (٨٢١٤).

(٢) البيتان من الطويل، وهما للعباس بن الأحف في «العقد الفريد» ص (٤٥٦٧).

(٣) البيت من الكامل، وهو لجرير في «الزهرة» ص (٤١٧)، و«الشعر والشعراء» ص (١١).

(٤) البيت في «التذكرة السعدية في الأشعار العربية» للبيدي ص (٣٣١).

سل غزالا كنت أهديت له فردّه وهلال حلّ عندي وقدره مذهب عنده
آخر:

وقفَ الهوى بي حيثُ أنتَ فليس لي مُتأخّرُ عنه ولا مُتقدّمُ
أجدُ الملامّةَ في هَواكِ لذيذةً حُبّاً لذكركَ فليلمني اللّومُ
أشبهتُ أعدائي فصرتُ أحبّهم إذ كان حَظّي منك حظّي منهم
وأهتيتني فأهنت نفسي صاغراً ما من يهون عليك ممّن أُكْرِمُ^(١)
آخر:

أَدَّتْ إِلَيَّ رِسَالَةً كَادَتْ لَهَا نَفْسِي تَسِيلُ
إِنَّ التَّيَّ أَبْصَرَتْهَا سَحَرًا تُكَلِّمُنِي رَسُولُ
لَرَأَيْتَ مَا اسْتَقْبَحَتْهُ مِنْ أَمْرِنَا وَهُوَ الْجَمِيلُ
فَلَوْ أَنَّ أَدْنَكَ بَيْنَنَا حَتَّى تَسْمَعَ مَا نَقُولُ^(٢)
آخر:

لا خيفة بل عينة وصيانة بجماله
أشتاقه فإذا بدا أطرقت من إجلاله
فالموت في إعراضه والعيش في إقباله

(١) الأبيات من الكامل، وهي لأبي الشَّيْص الخزاعي في «الصناعتين» ص (٢٤٦)، و«العقد الفريد» ص (٤١٥٧).

(٢) الأبيات من مجزوء الكامل، وهي لأبي نواس في ديوانه من قصيدة البيت الأول مطلعها، و«الزهرة» ص (٢٤٢).

آخر:

هَجَرَتِ الْحَبِيبَ الْيَوْمَ مِنْ غَيْرِ مَا اجْتَرَمَ وَقَطَّعَتْ مِنْ ذِي وَدُكِّ الْحَبْلِ فَإِنْصَرَمَ
أَطْعَمِ الْوُشَاةَ الْكَاشِحِينَ وَمَنْ يُطِيعَ مَقَالَهَ وَاشِيَّ يَقْرِعَ السَّنَّ مِنْ نَدَمٍ^(١)
وللنفس صاحب يلوم:

ألم ترها لا يبعد الله دارها إذا رجعت في صوتها كيف تصنع
تردُّ نظام القول حتَّى تردَّه إلى صُلْصُلٍ من صوتها يترجَّعُ^(٢)
وللأخوص في ملام النفس:

إِنِّي لَأَنْصَحُكُمْ وَأَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَانٌ عِنْدَكَ مَنْ يَغُشُّ وَيَنْصَحُ
وَإِذَا شَكَّوْتُ إِلَى سَلَامَةٍ حُبَّهَا قَالَتْ أَجِدُّ مِنْكَ ذَا أُمِّ تَمَزُّجٍ^(٣)
آخر:

رب ليلى ناعمٍ أحييته في عفافٍ عند قباء الحشى
ونهار قد هوننا بالتي لا نرى شبيها لها فيمن مشى^(٤)
آخر:

(١) البيتان من الطويل، وهما لعمر بن أبي ربيعة في «الأغاني» (١/ ٢٢٦)، و«الصدقة والصديق»
لأبي حيان التوحيد ص (٩٥).

(٢) البيتان من لبعيد الرحمن بن أبي عمارة في «الأغاني» (٨/ ٥٤٦٧)، و«المستطرف في كل فن
مستطرف» للأبشي ص (١٨٢٦).

(٣) البيتان من الكامل، وهما للأخوص الأنصاري في «الأغاني» (٣/ ٢٠١١)، و«نهاية الأرب في
فنون الأدب» ص (٢٧٥٣).

(٤) البيتان للمهاجر بن خالد بن الوليد في «الأغاني» (١٦/ ١٠٥٣).

لَا تَحُلْدَنَّ إِلَى أَرْضِ تَهُونُ بِهَا بِالْدَارِ دَارٌ وَبِالْجِرَانِ جِرَانٌ^(١)
آخر:

إِذَا نَحْنُ أَدَجْنَا وَأَنْتِ أَمَامَنَا كَفَى لِمَطَايَانَا بِرِيَاكِ هَادِيَا^(٢)

كانت عامل جارية زينب بنت إبراهيم الإمام حسنة الوجه والغناء، وكانت كاتبة شاعرة، وكان إبراهيم بن العباس يهواها، وكانت مولاتها تقين عليها، وتخرجها إلى وجوه بسر من رأى، وكانت في نهاية الحسن والإحسان فمالت إليه، وصفت له مودتها، وامتنعت من جماعة كانوا يحبونها، ثم علق جارية كانت للوائق؛ فلما واصل هذه جفا تلك؛ فكتبت إليه لما تبينت جفاه وعرفت خبره:

بِاللهِ يَا نَاقِضَ الْعُهُودِ بَمَنْ بَعْدَكَ مِنْ أَهْلِ وَدْنَا أَتَقُ؟
لَا غَرَنِي كَاتِبٌ لَهُ أَدَبٌ وَلَا ظَرِيفٌ مُهَذَّبٌ لِبَقِ
كُنْتَ بِذَاكَ اللِّسَانِ تَحْتَلْنِي دَهْرًا وَلَمْ أَدْرَأَنَّه مَلَقٌ^(٣)

قال: فقال إبراهيم بن العباس: فلما قرأت رقعتها، أخذني نسبة الجنون شوقاً إليها، وخجلاً منها، وغماً بما جرى مني، فقطعت الوائية وعدتُ إليها، ولم أقطعها حتى فرَّق الموت بيننا.

وحدَّث جعفر [أنه] كان للفضل بن الربيع هيفاء حظيَّته، وكانت أحب الناس

(١) البيت من البسيط، وهو للشريف الرضي في ديوانه من قصيدة مطلعها:

أَيْسَلُ بِدَمْعِكَ وَادِي الْحَيِّ إِنْ بَانُوا إِنَّ الدُّمُوعَ عَلَى الْأَحْزَانِ أَعْوَانُ

(٢) البيت من الطويل، وهو لعمر بن شأس الأسدي في «الأغاني» (١١/٧٣١٦)، و«الحماسة البصرية» ص (٩٠٧).

(٣) الأبيات في «الوافي بالوفيات» (١١/٧٣١٦)، و«معجم الأدباء» ص (١١٢).

إليه، فكلّمها يوماً كلاماً أغضبها، فهجرته فضاّق صدره لذلك؛ فكتب إلى أبي يشكو إليه، فكتب أبي إليه: لك العز والشرف، ولأعدائك الذل والتلف، استعمل في أمرها قول العباس بن الأحنف:

تَحْمَلُ عَظِيمَ الذَّنْبِ مِمَّنْ نَحْبُهُ وَإِنْ كُنْتَ مَظْلُومًا فَقُلْ أَنَا ظَالِمٌ
فَإِنَّكَ إِلَّا تَغْفِرِ الذَّنْبَ فِي الْهَوَى يُفَارِقَكَ مَنْ تَهْوَى وَأَنْفَكَ رَاغِمٌ^(١)

فإنك تعود بها إلى ما تحب طائعة طيبة النفس، قال الفضل لما قرأ الرقعة: لقد صدق أبو محمد، ودخل إليها فترضاها.

صوت:

لَا تَقْعَدَنَّ تَلُومَ نَفْسِكَ دَائِبًا فِيهَا وَأَنْتَ بِحَبِّهَا مَشْغُوفٌ
إِنْ الصَّرِيمَةُ لَا يَقُومُ بِثِقَلِهَا إِلَّا الْقَوِيُّ بِهَا وَأَنْتَ ضَعِيفٌ^(٢)
وكتب عليّ بن هشام إلى جارية متيم، وقد غضبت عليه: الإدلال داعية الملal،
والتعصّب زائد في التحبب، فربّ هجر دعا إلى صدّ؛ وإنما سُمّي القلب لتقلّبه.
وقد أحسن العباس بن الأحنف حيث يقول:

مَا أَرَانِي إِلَّا سَاهَجْرُ مَنْ لَيْسَ يَرَانِي أَقْوَى عَلَى الْهَجْرَانِ

(١) البيتان من الطويل، وهما للعباس بن الأحنف في «الأغاني» (٨/ ٥٥٣٠)، و«محاضرات الأدباء» ص (٢٥٣٢).

(٢) البيتان من الكامل، وهما للكُميت الأزدي في «الأغاني» (٧/ ٤٣٥٣)، و«معاهد التنصيص» لعبد الرحيم العباسي ص (١٥١٣).

مَلَّنِي وَإِثْقًا بِحُسْنِ وَفَائِي مَا أَضَرَّ الْوَفَاءَ بِالْإِنْسَانِ^(١)
فخرجت إليه من وقتها.

وغضبت فريدة الوائية على الوائي؛ فكتب إليها يقول:
لَا تَمْنِي الصَّرَمَ مِنِّي أَنْ تَرَى كَلْفِي وَإِنْ مَضَى لِصَفَاءِ الْوُدِّ أَعْصَارُ
مَا سُمِّيَ الْقَلْبُ إِلَّا مِنْ تَقَلُّبِهِ وَالرَّأْيُ يُصَرِّفُ وَالْأَهْوَاءُ أَطْوَارُ^(٢)
فلما قرأت الرقعة أمرت، فضربت الستارة، وجاءت فغنت تقول:
علام صرمت الحبل أو رمت قطعه وليس سواء ذا وصال وقاطع
وإني ليشنني اشتياق ضمته إليك وقلب يحول الدهر فيه ينزع
فطرب الوائي وصالحها.

وكانت محبوبة المتوكله من أحسن أهل زمانها وجهًا وغناءً وشعرًا؛ فقال
المتوكل يومًا لعلّي بن الجهم: إني دخلت على محبوبة اليوم، فوجدتها قد كتبت رسالة إليه
على وجهها، فلم تر عيني أحسن من ذلك السواد على ذلك البياض، فقل في ذلك
شعرًا، فاستدعى عليّ بن الجهم بالدواة والقرطاس، وذهب لينظم أبيات في ذلك،
فارتج خاطره، وسمعت محبوبة من وراء الستارة، فاستدعت بالدواة.
وكتبت تقول:

وَكَاتِبَةٍ بِالْمَسْكِ فِي الْخَدِّ جَعْفَرًا بِنَفْسِي مَخْطَ الْمَسْكِ مِنْ حَيْثُ أَثَرَا

(١) البيتان من الخفيف، وهما للعباس بن الأحنف في «الأغاني» (٧/ ٤٨٤٨)، و«البصائر والذخائر»
ص (١٢٥٨).

(٢) البيتان من الخفيف، وهما للأحوص الأنصاري في «الأغاني» (١/ ٤٠١).

لَئِنْ كَتَبْتَ فِي الْخَدِّ سَطْرًا بِكَفِّهَا لَقَدْ أودعت قَلْبِي مِنَ الْحَبِّ أسطرا
فَيَا مَنْ لِمَلُوكِ لِمَلِكٍ يَمِينِهِ مُطِيعٌ لَهُ فِيمَا أَسْرَّ وَأَظْهَرَ
وَيَا مَنْ هَوَاهَا فِي السَّرِيرَةِ جَعْفَرٌ سَقَى اللَّهُ مِنْ سَقِيَا ثَنِيَاكَ أَظْهَرَ^(١)

قال عليّ بن الجهم: فلما قرأت هذه، صغرت عندي نفسي؛ لجودة بديهة محبوبة،
وأمر المتوكل بإنفاذ الشعر إلى عريب لتصوغ له لحناً، وأمر ألا يغنى في ذلك اليوم إلا به،
وطرب طرباً شديداً، وأحسن جوائز حاشيته ووصلهم.

وغضب مرة المتوكل على محبوبة لشيء بلغه عنها، ونهى جميع من في قصره عن
الدخول إليها والكلام معها، قال عليّ بن الجهم: فدخلت عليه يوماً، وهو جالس في
حجرة له، وكان يخلو فيها مع ندمائه؛ فقال لي: ألا ترى ما نحن فيه مع محبوبة التي قد
استمرت على الغضب، وهي لا تترضاني، والليلة رأيتها في النوم، وكأننا قد اصطللحنا،
فقلت: أرجو أن يجعل الله الصلح في اليقظة فينا، أنا مخاطبه في ذلك، إذ جاءت جارية،
فأسرّت إلى المتوكل شيئاً، ثم انصرفت، فقال المتوكل: ألا ترى، ما أعجب ما تقول
هذه؟ قلت: وما ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: هذه تقول: إن محبوبة جالسة تغني في
مقصورتها وتشد، وهذا من قلة إحفالها بغضبي عليها، فقم بنا يا عليّ حتى نسمع ما
تقول؛ فقمنا حتى أتينا إلى شرفتها، فوجدناها تغني هذه الأبيات:

أَدُورُ فِي الْقَصْرِ لَا أَرَى أَحَدًا أَشْكُو إِلَيْهِ وَلَا يَكْلَمُنِي
حَتَّى كَأَنِّي رَكِبْتُ مَعْصِيَةً لَيْسَتْ لَهَا تَوْبَةٌ تَخْلُسُنِي

(١) الأبيات من الطويل، وهي لمحبوبة جارية المتوكل في «الأغاني» (١٩/١٣٠٢٧)، و«أخبار النساء» لابن الجوزي ص (٩٧).

فَهَلْ لَنَا شَافِعٌ إِلَى مَلِكٍ قَدْ زَارَنِي فِي الْكَرَى وَصَافَحَنِي

حَتَّى إِذَا مَا الصَّبَاحُ لَاحَ لَنَا عَادَ إِلَى هَجْرِهِ فَصَارَ مِنِّي^(١)

فقال المتوكل: يا علي! أما ترى ما أعجب هذا، فأحسَّ الجواري والخدم، فأعلموا محبوبة، فخرجت إليه، وقبَّلت يديه وصالحته، وأخبرته أنَّها رآته في المنام، وترضى عنها، وأخبرها بمنامه واصطلحا.

وما أحسن تعرُّض من قال:

وَإِنِّي لَأَسْتَبْقِي وَدَادَكَ لِلَّتِي تِلْمٌ وَأَرْضِي مِنْكَ دُونَ الَّذِي يَكْفِي

وَأَسْأَلُكَ النَّصْفُ احْتِجَازًا وَرَبِّمَا أَيْتُ فَلَمْ أَسْمَحْ لِغَيْرِكَ بِالنَّصْفِ

وَإِنِّي لَمَحْسُودٌ عَلَيْكَ مُنَافَسٌ وَإِنْ كُنْتُ أَسْتَبْطِي كَثِيرًا وَأَسْتَجْفِي^(٢)

ومن أحسن ما استعطف به الأحباب قول الشاعر:

لَعَلَّكَ لَوْ أَبْصَرْتَنِي بَعْدَ هَجْعَةٍ وَقَدْ نَامَ مِنْ لَمْ يَدْرِ مَا لَوْعَةُ الْبَعْدِ

رَثِيتُ لِمَا أَلْفَاهُ مِنْ فَرْطِ لَوْعَةٍ وَبَدَّلَنِي قَرَبًا مِنَ الْهَجْرِ وَالصَّدِّ

وقال أبو نواس في التدرّج من التلويح إلى التصريح:

إِنَّ لِي حَاجَةً إِلَيْكَ إِذَا نِمْتُ — سَتَ فَإِنْ شِئْتَ فَأَقْضِهَا يَقْظَانَا^(٣)

وحكي أن عيسى بن الفاشي كان يهوى جارية من جواري عائشة بنت

(١) الأبيات من المنسرح، وهي لمحبة جارية المتوكل في «الأغاني» (٢٢/١٤٩١١)، و«أخبار النساء» لابن الجوزي ص (٩٩).

(٢) الأبيات من الطويل، وهي للبحراني في «الزهرة» لابن داود الأصفهاني ص (٣٣٨).

(٣) البيت من الخفيف، وهو لأبي نواس في «قطب السُرور في أوصاف الخمر» ص (٨٥٣).

المعتصم، فاشتهر بحبها، فبلغ ذلك عائشة؛ فقالت: لو استهداها مني لأهديتها إليه، وكانت بنت المعتصم شاعرةً ظريفةً أدبيةً؛ فكتب إليها عيسى يقول:

يا بنت عمِّ الهاشمي المُرسلِ أخت الخليفة جعفر المتوكل
بالله إلا جدت لي بحبيتي وبعتها قبل الصَّباح المقبل
ومري ربيتها تغمض عينها عني وعنهما ساعة وتفضِّل
فلذلك أجرُّ لو علمت ثوابه خللت كمها وقلت لي افعل
فبعثت إليه الجارية، ومعها الجواب:

يا ظالمًا بالقول ما تحمل ما خاف في شكواه لبوم العذل
لا تبدأ من تهوى وكن متبصرًا إن المحبَّ إذا هوى لم يعجل
حمس وعانق إن ظفرت بخلوة منها وإن غفل الرقيب فقبِّل
قد باكرتك بتكَّة محلولة ورقية عمياء ذات تململ
ولبعض العرب:

جزى الله خيرًا ذات بعلي تصدَّقتُ على عزب كيما يكونَ له أهلُ
فإننا سنجزِيها بما صَنَعَتْ بنا إذا ما تزوَّجنا وليس لها بعْلُ
أفيضوا على عزابكم من نسائكم فما في كتابِ الله أن يُحرَمَ الفضلُ^(١)
ولبعض العرب:

حدَّثنا الخفاف عن وائل وخالد الحذاء عن جابر
وابن جريج عن سعيد وعن قتادة الماضي وعن غابر

(١) الأبيات في «التذكرة الحمدونية» ص (٣٩٢)، و«الصناعتين» ص (٦٥٩).

قالوا جميعاً أيما طفلة علقها ذو خلق طاهر
فواصلته ثم دامت له على وصال الحافظ الذاكر
كانت لها الجنة مبذولة تمرح في مرتعها الزاهر
وأي معشوق جفا عاشقاً بعد وصال ناعم ناضر
وأي خشف خان ذا خلّة عذب قبل الحشر في فاتر
ففي عذاب الله مثوى له بعداً له من ظالم غادر
ثلاثة ليس لهم حرمة عند ذي حرر ولا فاجر
خمس ليس له منزل وأشمط دبّ على زائر
وشاطر ليست له حرمة يكون فيها ماتى طائر^(١)
وقال أيضاً:

ما استكمل اللذات إلا فتى يشرب والمرد نداماه
هَذَا يُقَدِّيه وَهَذَا إِذَا نَاوَلَهُ الْقَهْوَةَ حَيَّاهُ
وَكُلَّمَا اشْتَقَّ إِلَى قُبْلَةٍ مِنْ وَاحِدِ الثَّمَةِ فَاهُ
سَقِيًّا لِدَهْرِ كُنْتُ فِيهِ هُمْ مُعَاشِرًا مَا كَانَ أَحْلَاهُ
نَشْرَبُهَا صِرْفًا وَلَمْ نَقْتَرِعْ وَشَرَطْنَا مَنْ نَامَ نِلْنَاهُ^(٢)
وقال أيضاً:

وزعمت أنك لا تلوط فقل لنا هذا المقرطق قائماً ما يصنع

(١) الأبيات لأبي نواس في «تزيين الأسواق في أخبار العشاق» لداود الأنطاكي ص (١٩، ٢٠).

(٢) الأبيات من السريع، وهي لأبي نواس في ديوانه من قصيدة البيت الأول مطلعها.

شهدت ملاحظته عليك بريية وعلى المريب شواهد لا تدفع^(١)
ولبعض الكتاب في أيره:

إلى الله أشكو صاحباً لي فراقه وإن بلغ المكروه غير ممكن
تراه على علامة الدهر قائماً كسلخ شجاع رُكبت فوق أرزن
أما في بلاد الله فقحة كافر يُسكن هذا النعظ من أير مؤمن
حُكي أن أعرابياً قدم على المازني؛ فقال: أريد تعرّفني معنى هذين البيتين،
وأشديصف الأير:

ولقد غدوت بمشرف يافوخه عسر المكرة ماؤه يتدفق
أرن يسيل من النشاط لعبه ويكاد جلد إهابه يتمزق^(٢)
فقال المازني: هذا فرس؛ فقال الأعرابي: حملك الله عليه.
ولأم الورد العجلانية تصف الأير:

ربّ غلام قد صرى في فقرته
ماء الشباب عنفوان شدته
يمشي بعزْدٍ قد دنّا من ركبته
أقعس لا من أودٍ في خلقتَه

(١) البيتان من الكامل، وهما لأبي نواس في «الأغاني» (١٨/ ١١٩٤٤)، و«محاورات الأدباء» ص (٣١٩٩).

(٢) البيتان بلا نسبة في «التذكرة الحمدونية» ص (٣٥٣٢)، و«شرح ديوان الحماسة» ص (٣٠٦١).

أَنْعَظَ حَتَّى اسْتَدَّ سَمُّ فَقَحْتِهِ
 وَارْتَفَعَتْ خَصِيَّتُهُ فِي عَانِقِهِ
 فَهُوَ إِذَا نَضُنْضُهُ لَدَفَعْتُهُ
 يَنْشِبُ فِي الْمَسْلَكِ عِنْدَ رَهْزَتِهِ^(١)

وقال ابن الرومي:

تَجَمَّلَ الْحَسَنَاءُ كُلَّ تَجْمِيلٍ حَتَّى إِذَا مَا أُبْرِزَ الْمَفْتَاخُ
 نَسِيَتْ هُنَاكَ حَيَاءَهَا وَخَلَاقَهَا شَبَقًا وَعِنْدَ الْمَا حُ يُنْسَى الدَاخُ^(٢)
 ولأبي نواس: [...] ^(٣).

ولبعضهم في صفة الحرِّ شعراً:

جَارِيَةٌ إِحْدَى بَنَاتِ ضَبَّةٍ
 خَرَعِبَةٌ حَسَنَاءُ مِثْلُ اللَّعْبَةِ
 شَاوَرْتَهَا يَوْمًا وَقَدْ تَمَكَّنْتُ مِنَ الْوَثْبَةِ
 فَانْكَشَفَتْ عَنِ مَشْرِقِ كَالْتَرَسِ مَكْبُوبًا بِهِ ضَرْبَةُ

وقال آخر:

وَلَهَا إِذَا سُئِلَ الْإِزَارُ مَقْعَبُثُ كَالْقَعْبِ كَبَّ لَوَجْهَهَا لَمْ يُرْفَعْ
 وَلَهُ بَرِيقٌ فِي الظَّلَامِ إِذَا بَدَا عِنْدَ ارْتِفَاعِ الشَّمْسِ رَأْسُ الْأَصْلَعِ

(١) الأبيات لأم الورد العجلانية في «أشعار النساء» للمرزباني ص (٦٤).

(٢) البيتان من الكامل، وهما لابن الرومي في ديوانه من قصيدة البيت الأول مطلعها.

(٣) أبيات فضلنا عدم ذكرها حياءً وتأديباً.

وإذا وضعت عليه كفك خلته ثديا تكامل ناهدا لم يخشع
 وإذا وردت تعض لا تمتنعا وإذا صدرت تمص مص الموضع
 وإذا عللت وقد نهلت وجدته كالنار في وقت اللهب الأسقع
 وحدث مولى أبي عتيق قال: لما قال عمر بن أبي ربيعة:

مَنْ رَسُولِي إِلَى الثَّرِيَا بَأَيِّ ضِيقُ دَرْعَا بَهْجِرِهَا وَالْكِتَابِ
 أَبْرَزُوهَا مِثْلَ الْمَهَاةِ تَهَادَى بَيْنَ خَمْسٍ كَوَاعِبِ أَتْرَابِ^(١)

بلغ ذلك إلى ابن أبي عتيق؛ فقال: والله، ما أراد سواي، فركب بغلته حتى أتى مكة، فدقَّ باب عمر، وقال: اخرج أنا رسولك الذي أردت، فركب معه حتى أتى به إلى الثريا؛ فأصلح بينهما ثم انصرف إلى المدينة.

عن الزبير قال: أنشد ابن أبي عتيق قول:

لَا خَيْرَ فِي عَيْشٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي بَيْتِ هَارُونَ بْنِ عِيَاشٍ
 بَيْنَ غَلَامٍ وَغَلَامِيَّةٍ كَأَنَّهُمَا غَصَنُ مِنَ الْأَشْ
 لَا يَكْرَهُ الْغَمَزَةَ فِي بَيْتِهِ وَلَيْسَ بِالْقَبْلَةِ فِي بَاشٍ
 وَرَبِّمَا صَرَتْ إِلَى خَلْوَةٍ تَجْمَعُ بَيْنَ الرَّاسِ وَالرَّاشِ
 ولأحمد بن أبي طاهر في قوادة:

فَأَرْسَلْتُهَا أَمْضَى مِنَ السَّيْفِ مَقْدَمًا وَأَسْرَعَ مِنْ سَيْلِ بَلِيلٍ إِذَا احْتَفَلَ
 تَدَبَّ دَيْبُ النَّمْلِ فِي كُلِّ مَفْصَلٍ لَطَافَتُهَا فِي الرَّأْيِ وَالْقَوْلِ وَالْحِيلِ

(١) البيتان من الخفيف، وهما لعمر بن أبي ربيعة في «الكامل في اللغة والأدب» ص (١٠٤٢)،

و«بهجة المجالس» ص (٣٦٦).

يذلل لها الصَّعب الجموح قياده وتهدى إلى طرق الضلال فلا تضل
يرى الفطن الدَّاهي عليها عبادة إذا ما رآها وهي أختل من ختل
وتستخرج الخود الكعاب ودونها حجاب إذا ما ألقيت دونها الكلل
يؤلف بين الأسد والشاء لطفها ويستنزل العصماء من شغف القلل
ولو أنها شاءت بأهون سعيها لألفت الذئب الأزل مع الحمل
ولو حلاً صعباً ازدادت تجي على روعان منه لاستنوق الجمل
يغرّ العيون زهدا وخشوعها وتسيحها عند الشروق وفي الأصل^(١)
وقال البيهقي:

وقائل عمرو قوادة فقلت لا تفرطن فيما عمرو بقواد
لكنه رجل يخليك منزله بدرهمين وما يبقى من الزاد^(٢)
وقال الأخفش:

وَلَيْلَةٍ قَصَّرَ فِي طَوْلِهَا بِالْكَرْخِ أَنْ مُتَّعْتُ مِنْ رُؤْيَيْهِ
وَكُلَّمَا عَضَّضَ تُفَاحَةً قَبَّلْتُ مَا يَفْضُلُ مِنْ عَاضَّتِهِ
حَتَّى إِذَا أَلْقَى قِنَاعَ الْحَيَا وَضَارَ كَسْرُ النَّوْمِ فِي مُقْلَتِهِ
مَلَكْنِي حَبْلُ سِرَاوِيلِهِ وَأَشْغَلْتَهُ الرَّاحُ عَنْ تَكْنِهِ
فَصَارَ لَا يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ وَكَانَ لَا يَأْذُنُ فِي قُبْلَتِهِ
عَجِبْتُ مِنْ إِبْلِيسَ فِي تَيْهِهِ وَخُبْتُ مَا أَظْهَرَ مِنْ نَيْتِهِ

(١) الأبيات لأحمد بن أبي طاهر في «أخبار النساء» ص (٤٠٦).

(٢) البيتان لعبد بن وهب في «أخبار النساء» ص (٤٠٩).

تَاهَ عَلَى آدَمَ فِي سَجْدَةٍ وَصَارَ قَوَادًا لِذُرِّيَّتِهِ^(١)

وقال زيد بن عمير الخزاعي:

تَقُودُ إِذَا حَاضَتْ وَإِنْ طَهَّرْتَ زَنْتَ فَهِيَ أَبَدًا يُزْنَى بِهَا وَتَقُودُ^(٢)
غيره:

أَنْتَ يَا شَيْخُ نَائِمٌ فَتَنْبَهُ وَانْتَصِحْنِي فَلَسْتُ مِنْ غُشَائِكَ
لَكَ أَتَشَى تَزْيِفُ فِي كُلِّ عُشٍّ وَتُرَبِّي الْفِرَاحَ فِي أَعْشَائِكَ^(٣)
وقال عنتره بن شداد:

فَبَعَثْتُ جَارِيَتِي فَقُلْتُ لَهَا إِذْهَبِي فَتَجَسَّيْ أَخْبَارَهَا لِي وَاعْلَمِي
قَالَتْ رَأَيْتُ مِنَ الْأَعَادِي غِرَّةً وَالشَّاةُ مُمَكِّنَةٌ لِمَنْ هُوَ مُرْتَمٍ^(٤)
وقال الأخفش لأبي نواس:

هَلْ مِنْ رَسُولٍ لَطِيفٍ إِلَى غُـزَالٍ عَنِيفٍ
لِسَانِهِ مـُـذِيٌّ وَقَلْبُهُ قَلْبٌ كَوَافِي
فِي حـُـدْرٍ فَتَقْ عَجُوزٌ وَفِي خـُـسَارَةٍ صَوَافِي

(١) الأبيات من السريع، وهي لأبي نواس في «الشعر والشعراء» ص (٩٤٠)، و«الكشكول» ص (٨٦٨).

(٢) البيت من الطويل، وهو لزيد بن عمير الخزاعي في «عيون الأخبار» ص (٢٥٨٦)، و«العقد الفريد» ص (٤٧٣٤).

(٣) البيت من الخفيف، وهو لابن الرومي في «نثر النظم وحل العقد» لأبي منصور الثعالبي ص (٣٧٠).

(٤) البيت من الكامل، وهو لعنتره بن شداد في «منتهى الطلب من أشعار العرب» ص (٢٥٦).

له سريرة ذئبٍ وسمت قسّ عفيف
تكامل الظُّرف فيه ففارق كلَّ ظريفٍ^(١)
وأنشد الأخفش للعقيلي إلى قواده:

ألا أسعدا عيني من ناح أو ندب وجودا بدمع كلما استمطر انجذب
على عصمة العشاق ماتت فودّعت فكلّ بها والحمد لله قد كرب
وكانت إذا العشاق ضاقت أمورهم تراها لهم تسعى هناك وتضطرب
فيا عزّ من للهجر يصلح أمره وقد ركبوا يوماً على وجهك التُّرب
كأن لم تروحي قطُّ بين حبيبة وبين حبيب بالرسائل والكتب
ولم ترجعي سخط الحبيب إلى الرضا فيصبح منهم راضياً كل من غضب
وقال ابن الحاجب:

زنت الدهر ثم قادت فلما قادوا الركبتين منها فتور
تمحقت للمختشين رماذاً فعلى طمّها تَشِبُّ الأيور
وللبحتري في أعمى:

إنّ إخوانك المقيمين بالأمم — س اتوا للزنا لا للغناء
قطّعوا أمرهم وأنّت حمارٌ موقرٌ من بلادٍ وغباء
هَبَكَ تَسْمِعُ الحديثَ فما عُد — مُك فيه بالغمز والإيماء
والإشارات بالعيون وبالأيد — دي وأخذ الميعاد للإلتقاء

(١) الأبيات بلا نسبة في «أخبار النساء» لابن الجوزي ص (٤١٠).

أَنْتَ أَعْمَى وَلِلزُّنَاةِ هَنَاتٌ مُنْكَرَاتٌ تَخْفَى عَلَى الْبُصَرَاءِ^(١)
ولدعبل في قوادة:

دست إليها سحة عدلية تعصب بها الأجفان والعظم بارز
مضى خيرها إلا الترفق في الهوى تكيد بلطف مرة وتزامر
وقوع ما تهوى إذا ما تمكنت وتسمع ما تشتهي فتحاجز
وتهزل أحيانا إذا ما تحدّثت فيبلغ أقصى خدها وتجاوز
تدبُّ إليه بالخدعة والرُّقا وتعرض أحيانا وحين تناجز
وقال رجل من أهل المدينة لزيد: بلغني أنك جمعت البارحة بين فلان وفلانة
في منزلك، قال: كان ذلك، لكن سمعت الخبر أنّهما لما أكلا وتحدّثا ساعة من الليل،
قالا لي: جئنا بنبيذ؛ فقلت لهما: الوقت قد ضاق من التماس ذلك، وما عندي منه شيء،
فقالا: والله لأن لم تفعل ذلك، يلحقك منا ما لا قبل لك به؛ فذكرت قطعة حضض
أهديت إليّ، فقلت لهما: قد عرفت لكما نبيذًا في موضع، وقمت فجعلت الحضض في
إِجَانَةٍ، وصببت عليه الماء، ومرسته حتى انماع، وجئتهما به في قينة؛ فقالا: هذا غاية غير
أنّه شديد المرارة، فلما شربا منه قدحين احتاجا إلى القيام، وكان المستراح في أعالي الدار
يُرْتَقَى إليه بسُلَّم، فَوَحَقَّ القبر ومن فيه منذ شربها إلا على السُّلم.

كان بمدينة السلام شخص يعرف بالغيور، وكان عنده من الجواري عدد كثير
ذوات حسن وجمال، وكان خبره فاشيًا يقصده المتصون وغيره؛ فبلغ رجل من الكتّاب

(١) الأبيات من الخفيف، وهي للبحثري في «الأمالى» للزجاجي ص (١٣٩)، و«طوق الحمامة» لابن

المشهورين خبره، فتشوّقت نفسه إليه وإلى قصده، ثم تجنبه لما شهر به، فحمل نفسه على أن جعل بينه وبين الرجل حالاً بأن دعاه وبرّه ووصله، وكان قصد النَّاس منزله أثر عندهم من دعا من يدعونه من جواريه لما يجتمع لهم فيه.

قال الكاتب: كان يسألني المصير إليه، وأقشعر لشناعة لقبه إلى أن لقيني يوماً بالقرب من منزله، فحلف على ألا أفارقه، فكان ذلك صادف منّي موافقة، فمضيت معه فرأيت أحسن منزل وآله، فلما استقر بنا الجلوس، قال لغلماني: إذا كان في غد فبكرُوا، وتعالوا بالدواب فاستوحشت، وقلت: بل يقيم عندي بعضهم، ويعود الباقي لأنصرف إلى منزلي، فأبى وحلف وجرد، فأتبعت ما أراد، وأحضر أحسن طعام وألطفه فأكلنا، وأتى بأنواع الأشربة والفواكه والرياحين فأخذنا في أمرنا، وخرجت وجوه كالشموس من كل ضرب.

وكنت عند دخولي إلى الدار قد رأيت على بعض الأبواب طبلًا معلقًا؛ فظننته لبعض الجوّاري، فلم أسأل عنه، فلمّا قعدنا على حالنا، وأخذ النبيذ فينا، أحضر عمودًا فجعله بين يديه فأوحشني جدًّا، وقلت: رجل غيور كما لُقّب، وجوّاري حسان، ونبيذ شديد، ولست آمن أن أعبت بهن؛ فيعارضني فيضربني بالعمود مع النبيذ.

فقال: أخبرك يا أخي، أنا رجل غيور كما قد بلغك، ويحضر منزلي قوم معهم سوء أدب، فما هو إلا أن تغني الجارية حتى أرى الواحد منهم قد لاحظها، وضحك في وجهها وضحكت في وجهه، فأقول أقوم بهذا العمود؛ فإنها هي ضربة له وضربة لها فأفلهما، وأستريح إلا أنني على ما ترى رجل معي تأن شديد، فأقول شرب الرجل وضحك، ولعله يعرفها وتعرفه، فضحكت إليه وضحك إليها، فلما ذكر هذا الحديث طابت نفسي، وأصغيت إلى حديثه؛ فقلت له: ثم ماذا؟ فقال: الأمر يزيد إلى أن أراه قد

دنا إليه؛ فسارَها وسارَته فتقوم عليَّ القيامة، وأقول ضحكك إليها وضحكت إليه للمعرفة، فما هو موضع السرِّ ثم ما هو موضع السرِّ ثم أهمُّ بالعمود.

والتأنيَّ الَّذِي فِي لَعْلَه طالِها بصوت تغنيَّه؛ فأمسك فلا يطول الأمر بينهما حتى أراه قد أدخل يده في ثوبها فقرصها، وعبث عليها فتدخلني الغيرة، فأقول: ليس بعد هذا شيء، وأهم بضرهما بالعمود إلا أني على ما ترى من التأني، فأقول بعد: لم يبلغ الأمر بينهما إلى القتل، وهذه أوائل وسوف لها أواخر؛ فإذا رأيت ما يوجب القتل قتلتها، فاسترحت فلا يطول بينهما الأمر حتى أرى الواحدة قد قامت وقام الرجل في أثرها، فيدخلون في ذلك البيت وبابه وثيقاً جداً، فأسعى خلفهما بهذا العمود لقتلهما ألبتة، فيسبقاني فيغلقان الباب، وأبقى أنا خارجه، وأنا غيور كما قد علمت، فأقول: متى سمعت حركتهما هلكت، أو قتلت نفسي، فلا يكون لي، والله يا أخي! اعتصام إلا بذلك الطبل المعلق، فأتناوله وأضعه في عنقي، فلا أزال أضرب به حتى يخرج، قال: فما قمت والله غير طمأنينة، ولم أر أوفى منه قولاً وفعلًا.

وبلغني عن بعض الملوك أنه عشق خالته، فشكى ذلك إلى بعض خاصَّته، فقال له: إذا دخلت عليك أيها الملك في لون من الملابس، فقل لها: يا خالة إذا دخلت عليك مرة أخرى في مثله بعد ذلك؛ فهي ممكنة ممَّا يؤثِّر، وإن هجرت ذلك الزَّي فيا بعد، فلا سبيل إليها، فلما فعل الملك ذلك لم تعد تظهر له إلا بذلك الزَّي، فأعلم مشيره بذلك؛ فقال له: الآن تعدِّ لك أيها الملك! ما تريده، فاطلب منها أن تعمل لك دعوة عندها في الدار، فما بقي لك إليَّ من حاجة؛ لأنَّها تستخلو بك عن قصد منها وإرادة، وإن عملت الدعوى في غير دارها؛ دبرت لك أمراً غير ذلك.

فعملت الدعوى في دارها، فأشار عليه صاحبه بأن يظهر الانتشار والسُّكر

الكثير إذا شرب معها، فأدارت الخمرة، وليس عندها غير جواربها؛ اظهر النوم، وانفض متكئاً على يدها إلى المضجع الذي قد هيأته لك، وليس معكما ثالث؛ فإذا دخلت في فراشك وولت لتخرج، فقل: إني لأشتهي أن تغمزيني بيديك اللطيفتين، فإذا جلست، وأخذت في تغميزك؛ فاستطب ذلك منها، والتذبه، وقد إلى فوق حتى يتوسط بيدها فخذيك، فمد يديك، واقبض على يدها، واجذبها إليك، فإذا صارت معك في الفراش؛ فجردها عن ثيابها، ففعل الملك ذلك، وتعدّ له ما أراد منها.

وجرى مثل ذلك لبعض الملوك الذين لا يزوجون بناتهم تكبراً وتجبراً؛ لأنهم لا يرون أحداً كفواً لهم، وذلك أنه عشق عمته؛ فقال لبعض خاصته: إن في دار الملك من يحبه، ويستحيي من مرأوته؛ فكيف السبيل إلى استدراجه؟ فقال: تجلس أيها الأمير في معطرة مشرفة على الإصطبل، وتأمّر بإحضارها عندك، وتجلسان على شراب حلو ثم تأمر بإحضار الحصن لتقفيزها على الحجورة، وتكونان جميعاً تنظران إليهم من شباك، فإذا رأيتها، وهي تجمع فخذيها، فدونك تناول ساقها؛ فإنها لا تمتنع عليك لاهتياج غلمتها، فلما فعل ذلك الملك لم يجد منها ممانعة؛ فوطئها فلم يجدها بكرًا؛ فقال لها: يا عمّة! ما أراك بكرًا؟! فقالت: ما ترك أبوك في دارنا ذكرًا ولا أنثى.

وهذا انتهاء الجزء الأوّل يتلوه أول الثاني الجملة الأولى في ذكر المفردات، والله وليّ النعمة والتوفيق.

بسم الله الرحمن الرحيم
الجملة الأولى من الجزء الثاني
في ذكر المفردات المعينة على الباء

أما من الحبوب مثل الحمص واللوبيا الباقلاء.

وأما من البزور مثل بزر الأنجرة، والجرجير، والنعناع، وبزر الشلجم، والكرنب، والتمرس، وبزر الهليون، والفجل، والرطب، وبذر البطيخ، وبزر الكرفس، والقردمانا^(١)، والفلافل، ودار فلفل، وبزر الكتّان، والسّمسم، وحب الرشاد، وحب الزلم، والحلبة خصوصًا المطبوخة بالعسل.

وأما القشور، والحشيش، والدار صيني، والصاصفراس^(٢)، والبسباسة^(٣)، والحسك.

وأما الصموغ فكالكثيراء^(٤)، والحلتيت؛ فإنه نافع جدًّا، وإذا شرب المبرد الحلتيت بالشراب نفعه نفعًا عظيمًا.

(١) قال إسحاق بن عمران: هي حشيشة تشبه حشيشة البابونج في خلقتها ولها ورق أخضر وقشر وقضبان مدورة معوجة صفراء إلى البياض.

(٢) قال في غاية البيان: هو بلغة التركمان ما معناه: شجر شريف، لم يذكر في كتب الأوائل لأنهم لم يجدوه ورائحته كرائحة السباسب، وأصله من الهند الجديد ينبت فيها، ويعتقد البعض أنه ينفع في علاج الأمراض المختلفة.

(٣) قال الإسكندراني: البسباسة مركبة من جواهر مختلفة لما فيها من الأرضية الكثيرة الباردة واللطافة والحرارة اليسيرة متبیس لذلك يسأ قویاً وتخلط في الأدوية التي تنفع من استطلاق البطن وهي في البيوسة في الدرجة الثانية، وأما في الحرارة والبرودة فمتوسطة لا يغلب أحدهما الآخر.

(٤) قال إسحاق بن عمران: الكثيراء هو ثلاثة ضروب بيضاء وحمراء وصفراء.

وقال حبیش: فيه شيء يسير من حرارة ورطوبة تسهل الطبيعة وتنفع من قروح الرئة وتقوي الأمعاء إلا أنه يزيد في الخلفة وينفع من قروح العين والبشر والرمد إذا أنقع واکتحل به وبائه أو جعل مع بعض الدرورات وتصلح للأدوية المسهلة الحادة إذا خلطت بها وتدفع مضارها وتمنعها من أن تحمل على الطبيعة حملاً شديداً.

وأما من الأصول [.....]؛ فمثل أصول اللوف، والبهمان، والروبيان^(١)، والقسط الحلو، وخصى الثعلب؛ فإنه قويٌّ في الإنعاض، والهيلون، وأصل الحرشف، والشقاقل، والزنجيل، وخصوصاً المربين، والعافر قرحا، وأصل الحسك، والمتر^(٢)، والأسارون، والبصل، وخصوصاً المشوي، والإسفيل، والسورنجان^(٣)، والمغات،

(١) هو سمك بحري تسميه أهل مصر الفرندس وأهل الأندلس يعرفونه بالقمزون. وقال الرازي: يزيد في الباه ويسخن الكلي والأرحام فيعين على سرعة الحبل لكنه في هذه الحال لا ينبغي أن يتخذ بالحل بل يسلق سلقاً بليغاً، ثم يتخذ منه عجة بدهن الجوز وصفرة البيض ويجعل معه شيء من البصل والكراث.

(٢) قال ديسقوريدوس في الأولى: هو صمغ شجرة تكون ببلاد الغرب شبيهة بالشجرة التي تسمى باليونانية بالشوكة المصرية تشرط فتخرج منها هذه الصمغة وتسيل وتصير على حصر وبواري قد بسطت لها ومنها ما يجمد على ساقها، ومنها ما يسمى ودنانستاس وهو دسم ومنه تخرج الميعة السائلة إذا عصر ومنه ما يسمى عابيدا وهو دسم جداً وشجرته تكون في أرض طيبة سميئة، وإذا عصر ماؤه أخرج ميعة سائلة كثيرة وأجوده المر الذي يقال له طرعلود وطريقي، ويسمى بهذا الاسم في البلاد التي يكون منها ولونه إلى الخضرة ما هو لذاع صاف ومنه ما يقال له ليطي وهو بعد الأول وفيه لين تحت المجسة مثل ما لمقل اليهود في رائحته شيء من زهومة وشجرته تكون في مواضع شمسية ومنه ما اسمه قوقاليس وهو حسن جداً أملس أسود كان فيه أثر تلويح النار، وأردأ ما يكون من المر هو الذي يقال له أرغاسيتي وهو هش ليس بدسم حريف يشبه الصمغ في المنظر والقوة والمر الذي يقال له أمني هو أيضاً مرذول وقد يعمل أقراص من ثفل المر، فإن كان المر دسماً فإن الأقراص طيبة الرائحة، وإن كان يابساً لا تكون طيبة الرائحة ولا دسمة ولا ضعيفة القوة لما خلط فيها من الدهن لما قرصت وقد يغش المر بصمغ قد أنقع في ماء المر فاختر من المر ما كان حديثاً هشاً خفيفاً لونه واحد، وإذا كسر كان في كسره أشياء بيض شكلها شكل الأظفار أملس صغير المحاجم مر طيب الرائحة حار مسخن وأما ما كان منه ثقيلاً لونه مثل لون الزفت فلا خير فيه.

(٣) أي: العكبة بالديار المصرية، واللعة البربرية عند أطباء العراق.

ديسقوريدوس في الرابعة: فلحقين ومن الناس من سماه بلبوسا ومنهم من سماه أقيارون وهو نبات يظهر له زهر في آخر الخريف لونه أبيض شبيه في شكله بزهر الزعفران ومن بعد ذلك يخرج ورقاً شبيهاً بورق البلبوس وفيه شيء من رطوبة يدبق باليد وله ساق طوله نحو من شبر وعليه ثمر لونه أحمر قاني إلى السواد وأصل عليه قشر في لونه حمرة وإذا قشر الأصل ظهر باطنه أبيض وهو لبن حلو ملآن من رطوبة وهو مستدير شبيه ببصلة البلبوس ويخرج من وسطه الساق وعليه زهر وكثيراً ما ينبت هذا النبات في المكان الذي يقال له قلخى، وفي البلاد التي يقال لها

واللعة البربرية خاصّة؛ فإنها تهبّج كحرارة الشّراب في جميع البدن، والسّعد أيضًا شرابًا ومسحًا.

وأما الربوب؛ فمثل حبّ الصّنوبر، ولسان عصفور^(١)، وحبّة الخضراء، وحب فلفل، والبندق.

وأما الفواكه؛ فمثل العنب الحلو، وخاصّة الحديث؛ فإنه جيد للباءة لأنه غذاء الدم رطوبةً وريحًا مع حرارة، وماؤه غذاء.

وأما من البقول؛ فالجرجير، وخصوصًا إذا شرب كل غداة من عصارتها مع رطل نبيذ العسل ثم يعتنى ببعض الأغذية البائية؛ فإنه سريع النفع، والحسك، وخصوصًا ماؤه بالعسل المطبوخ حتى يصير لعوقًا؛ فإنه نافع.

وأما من الأشربة؛ فالشراب الحديث، والأشربة الحلوة المتّخذة من الزبيب الصادق الحلاوة التي لها غلظ مأكّلها توافقه.

وأما من الذي قد طغى فيه الحديد، والماء الجاري على تربة جديدة.

ماشيننا وإذا أكل قتل بالخنق كمثل ما يقتل الفطر وإنما ذكرناه في كتابنا هذا لئلا يغلط أحد فيأكله بحساب البلوس فإنه مشتهي لذيد يدعو إلى أكله من لم يجربه في علاجه وعلاجه كعلاج أكل الفطر وينتفع به أيضًا بلبن البقر إذا شربه وإذا استعمل لبن البقر في هذه العلة لمن يحتاج معه إلى غيره من العلاج في باب أقيارون. جالينوس في السادسة: الدواء الذي يقال قلهيقون دواء قتال. نقل ابن البطريق في ترجمته الأدوية عن جالينوس له قوة مسهلة وكذلك الماء الذي يعمل به ويعطى خاصة لمن به وجع المفاصل في أوقات التزلزلات بعينها وهو رديء للمعدة جدًّا. الغافقي: السورنجان أصل كالقسطلة في الشكل عليها قشر كقشرها ويجرد عن مثلها هكذا يكون في زمن الخريف ثم يطلع من عرض القسطلة حذاء أطرافها المحملة نورة لاصقة بالأرض على هيئة السوسنة البيضاء وردية اللون وربما كانت بيضاء وصفراء، فإذا جفت أبدت ورقًا كورق العنصل أو أغلظ منه لائطًا بالأرض وذلك زمن الربيع وتعود حينئذ تلك القسطلة التي كانت أصل هذا النبات بصلة كبصلة العنصل ثم لا تزال تتلاشى هذا البصلة حتى تجدها زمن الخريف قسطلة والمستعمل من هذا النبات أصله إذا كان في شكل القسطل وأكثر ما ينبت في سطوح الجبال.

(١) هو ثمر الدردار أي بزر الدردار، يزيد في الباء وينفع من الخفقان ووجع الخاصرة ويدبر البول ويفتت الحصى.

وأما من الحيوان فالسقنقور، والورل^(١)، والضَّب، والمختار من السقنقور أصل ذنبه وسرته وكُلاه وملحه، والسّمك البحري، والمرداسنج، والكُوسج، والسّمك الحارّ الطري، وألبان الإبل تُشرب عشرون يومًا كل يوم مقدار ما يهضم ولا يُثقل، والسّمك الصغار الهاربي مجففًا^(٢)، والشّربة سبعة دراهم بيض السمك وبيض الحجل، وبيض الحمام، وبيض العصافير، وبيض الدجاج، وجميع الأدمغة، وخصوصًا من العصافير، والفراخ والبطّ والحملان مع ملح الورل وملح السقنقور، وأيضًا تخفف نفحة الفصيل، ويُؤخذ منها قبل الحاجة باثني عشر ساعة قدر حصّة تداف بأربع أواق ويُشرب؛ فإن أذى اغتسل بالماء البارد، وقضيب الفرس مشويًا بملح السقنقور أو الورل يُقوي الباءة، وكذلك أمراق البقر سكباجة، ولحم الجُرُور والجزر ناضجًا، وأيضًا العسل يُتخذ منه ماء يُغير أفاوية، ويُشرب بالأدهان، وإن كان فيه قليل زعفران أصلح، ومن الأدهان دُهْن البان، ودُهْن حبة الخضراء^(٣)، ودُهْن الفستق، ودُهْن اللوز، ودُهْن الصنوبر، ودُهْن الجوز الهندي، ودُهْن البندق، ودُهْن لوز تمر البلاذر.

فأما دُهْن بزر البطيخ الهندي؛ فنافع للحرورين.

ومن البلاد مكة والمدينة ومدينة السلام؛ فإن المقام بها يُقوي على الباءة. ومن الكتب كتاب «أخبار النساء» لابن الجوزي، وكتاب «جوامع اللذة» لابن نصر الكاتب؛ فإن في هذين الكتابين أخبارًا تهيّج سامعها ما لا يُهيّج غيرها من الأدوية.

وأما المسهّلات؛ فمن احتاج إلى تناول مسهّل ممّن رغب في تقويته على الباءة؛ فليسهل على الخاصة.

(١) قال المجد في القاموس: مُحَرَكَةٌ دَابَّةٌ كَالضَّبِّ، أو العَظِيمُ من أَشْكالِ الْوَرَعِ، طَوِيلُ الذَّنْبِ صَغِيرُ الرَّاسِ، لَحْمُهُ حَارٌّ جَدًّا، يُسَمَّنُ بِقُوَّةٍ، وَزَيْلُهُ يَجْلُو الْوَضَحَ، وَشَحْمُهُ يَعْظُمُ الذَّكَرَ.
(٢) انظر: القاموس المحيط (٢/ ٤٤٠).

(٣) هي تسخن وتلين وتضج وتنقي، وفيها قبض وجلاء قوي وتفتيح جيد وتجذب من عمق البدن وتبيح الباه.

ومن المفردات المعينة على الباء ما كان شديداً من الظباء الإنسية؛ فأعظم
المفردات والمركبات إعانة على الباء، وتوليد الإنعاط، والجوز الناهد الزانية يعني
جوزر^(١) المتبسمة عن الإقحوان^(٢) المغنية بطيب نغمتها عن القمري والهزاز والبلبل.
ففي مثل هذه الصفة أنشدني أبو عبد الله بن شبيب صاحب «المخزن» سداد
لنفسه يقول:

لحم السقنقور ساق مدملج مقفول ما كان كُفك فيه من قبل ذاك يحول

(١) قال سليمان بن حسان: هي شجرة صغيرة مشوكة لا ارتفاع لها أغصانها حمراء وهي غليظة الأصل
وورقها شبيه بورق الكمثري البري وله ثمر أغبر اللون مدور يؤكل قابض عاقل للبطن ويعمل
منه سويق كما يعمل السويق من النبق لسيلان البطن وهذا النبات كثير بالزاب وناحية القيرون.
أبو العباس الحافظ: ثمر الجوزر على ضربين والشجرة واحدة منه ما يكون ثمره على شكل ثمر
السدر ونواه لا طيء ولونه أخضر ثم يحمر إذا انتهى حمرة مسكية مليحة وطعمه مر ومنه ما ثمره
لا طيء مستدير عدسي الشكل أخضر ثم يحمر إذا انتهى اسود ويحلو وقبل ذلك هو مر قابض
جداً، وهذا ينتهي في فصل الربيع، والعدسي ينتهي في فصل الشتاء ويسمى الثمر المستدير منه
بالبرية تارخت، والعدسي منه يسمى الصمخ ويؤكل ببرقة والقيروان وبيلاذ البربر كثيراً
وشجره في العظم والقدر على قدر شجر زعرور الأودية إلا أن الجوزر أعظم وأكبر وورقها
كوراق تلك أو نحو ذلك وعودها أحمر.

(٢) هو عند العرب البابونج المعروف بمصر وهو الكركاش، وهو أنواع فبعض شجاري الأندلس
جعل الإقحوان نوعاً صغيراً من أنواع الكركاش، وزعم قوم أن المراد به ما تحت هذه الترجمة
وليس الأمر كما زعم لأن الدواء المذكور تحت هذه الترجمة وهو المسمى باليونانية قربانيون ليس
من أنواع الكركاش، وإنما هو على الحقيقة النبتة المعروفة بالأندلس اليوم وما قبله لشجرة مريم
وتعرف بأفريقية وأعمالها بالكافورية.

الجملة الثانية من الجزء الثاني

في صفة أدوية وأغذية وطباخ وحلاوات وأشربة مقوية على الباء

دواء السقنقور نافع جداً، وكذلك المشرود، وكذلك ثلاث مثاقيل من جوارش البروز بأوقية ماء الجرجير الرطب، ودواء المسك نافع لمن كان عن ضعف قلب، صفة معجون اللبوب، وهو من أجود الأدوية لوز بندق مقشر، وفستق، ونارجيل^(١) مقشر محكوك، لوز صنوبر، وحب فلفل، وحب الزلّم، والحبة الخضراء أجزاء سواء، ومسك، ودار فلفل من كل واحد جزء، يُدقّ الجميع ويُعجن بفانيد، والشربة خمسة دراهم إلى السبعة كل يوم، وإن أضيف إليه عشر جزء بزر الفجل كان أقوى عملاً.

صفة دواء آخر يُقوي على الباء: يُؤخذ رطل تمر برني منزوع النوى ويُدقّ، ويُضاف إليه مثل نصفه لبّ حبة الخضراء ويُنقعان في رطلان لبن الصّان حليب ستة ساعات ثم يؤكل المنقوع في يومين، ويُشرب ما عليه من اللبن عقيب أكله.

صفة دواء غير شديد الحرارة: تُطبخ الحلبة والتمر البرني حتى ينضجا ثم يؤخذ التمر، ويُخرج عنه النوى ثم يُجفّف، ويُدقّ - أعني: الحلبة - ويُعجن بعسل، والشربة منه خمسة دراهم، ويُشرب عليه النيذ.

صفة دواء آخر لمن أفرط به البرد: [ثلاث دراهم أترج] يُذاب في أوقية ماء طبيخ المرزنجوش، ويُضاف إليه درهم بزر البصل مدقوقاً منخولاً، ويُشرب ذلك ثلاثة أيام.

صفة دواء آخر قوي جداً: قاقلي، وبزر الجرجير، وبزر البصل، وبزر الخرز، ولسان العصافير، وكردمانه^(٢)، وحلتيت من كلّ واحد جزء، وفلفل، وبوزيدان^(٣) من كل واحد ثلاثة أجزاء، مسك سدس جزء، ويُلْت ويُدّهن حب الصنوبر الصغار، ويُعجن بعسل.

(١) يسمى الرانج وهو جوز الهند.

(٢) وقيل: كردمانه: ابن سمحون: قال علي بن محمد: الكرمدانه بالفارسية حبة معروفة ومعناه عود الكرم لأن الكرم بالفارسية هو الدود، ودانه هو الحب. وزعم الغافقي وغيره أنها ثمرة شجرة الميتان.

(٣) قال سليم بن حسان: هو أصول صلبة بيض مصمتة تشبه البهمن الأبيض وتنفع من النقرس وأوجاع المفاصل وهو دواء هندي قليل التصرف. انظر: الجامع (١ / ١٢٢).

صفة دواء آخر منعظ للمبرودين: زنجبيل^(١) ثلاثة دراهم دار فلفل جزء، وبزر البصل جزء يُعجن بعسل يُعطى منه مثقال بماء حار.

صفة دواء آخر مقوي: بزر الهليون، وشقاق، وزنجبيل خمسة خمسة بهمان أبيض، وبهمان أحمر ثلاثة ثلاثة بزر الرطبة، وبزر الجرجير، وبزر الأنجرة، وبزر الجزر، وبزر البصل درهمين درهمين أسقل مشوي، وسرة السقنقور ثلاثة ثلاثة لوز حب البلاذر، والسنة العصافير درهمين درهمين سُكر أربعون درهماً، والشربة أربعة دراهم بشراب حديث إلى ثلاثة دراهم، ويكون طعامه بائياً.

صفة دواء آخر يُقوي على الباءة: بزر الجرجير البري ثلاثة دراهم، بزر البصل نصف درهم دار صيني درهماً قردمانا نصف درهم تُجمع مسحوقة، وتعجن بعدة دراهم سمن البقر، وخمسون درهم حليب البقر ويُشرب.

صفة دواء آخر: بزر الجرجير، وبزر الفجل، وبزر البطيخ من كل واحد جزء، ويُشرب من مجموعها خمسة دراهم بمائة درهم لبن حليب.

صفة دواء آخر: ملح السقنقور خمسة دراهم خصى الديوك مجففة، سبع دراهم بزر الجرجير درهماً، والشربة كل يوم درهماً ونصف ويُتبع بحليب.

صفة دواء آخر: بزر الجرجير، وملح السقنقور بالسواء يُشرب من مسحوقها أربع دراهم بصُفرة عشرة بيضات.

صفة دواء آخر: حب الصنوبر وبزر الكرفس الجلي وعلك الأنباط^(٢) بالسوية، وبزر البصل نصف جزء يُخلط بعسل، ويُؤخذ منها مثقال، ويُتناول قبله غذاء بائياً.

(١) قال إسحاق بن عمران: إذا أخذ منه مع السكر وزن درهمين بالماء الحار أسهل خلطاً لرجاً لعابياً. ابن سينا: يزيد في الحفظ ويحلو الرطوبة عن نواحي الرأس والحلق.

(٢) إسحاق بن عمران: علك الأنباط وهو علك شجرة الفستق ولونه أبيض كمد، وطعمه فيه شيء من مرارة ويلقيه الشجر في شدة الحرّ وهو حار يابس في الدرجة الثالثة يحلل وينقي الأوساخ وينفع الحكمة العتيقة ويجذب البلة من داخل الجسد، وينزل البول وينفع من السعال ووجع الصدر العارض من الرطوبة وخاصة الرطوبة المنحدرة إلى صدور الصبيان، وبدل صمغ الأنباط صمغ البطم أو صمغ الضرور.

ذكر الأغذية المقيمة على الباء

لحم الضأن، ولحم الجدى السمين الذكر، وما يُتخذ بالبصل من غير قلي اللحم؛ فإن قلي اللحم يُنقص اللحم تغذيته ويُقويه، وما يُتخذ بالحمص أو بالجزر والبيض خصوصاً المبزر بالدار صيني، والخولنجان^(١)، وملح السقنقور، وجوزبوا^(٢)، وبيض السمك، ولحم السمك الحار، والفراخ المسمّنة، والدجاج المسمّنة التي تُخلط بدقيقها الذي تُسمّن به صفرة البيض، وبزر الهليون، وبزر الجرجير، والدار صيني، ولُبُّ حبة الخضراء أو اللوز أو الجوز، ويُكسر هُنَّ البيض في كل يوم، ويُخلط الصفار بالبيض، ويُقدم إليهن عند جوعهن، واللفتية والجزرية، وخصوصاً الجزرية أعني بلحم الجزور بعد شدة طبخ لحمها، وما يقع فيه أدمغة العصافير والحمام، واللبن والسمن والأرز باللبن، واللحم بلبن الضأن، والهريس، والكبولات، والجواذبات، وخصوصاً ما كان بزعفران السميد، واللبن، وماء النارجيل، ويقع في بقولة الهليون،

(١) هو عروق متشعبة ذات عقد لونها بين السواد والحمرة شبيهة بأصول النوع الكبير من السعد المسمى بعجمية الأندلس بحة، وهذه العروق حريفة الطعم تجلب إلينا من الهند وفيها عطرية. ابن ماسويه: حار يابس في الثالثة جيد للمعدة يطيب النكهة هاضم للطعام. وقال الرازي في دفع مضار الأغذية: كاسر للرياح موافق لمن يكثر به القولنج الرنجي والجشاء الحامض. وقال في كتاب الحاوي: إنه يزيد في الباه جداً وينفع الكلي والخاصرة الباردتين. ابن عمران: نافع لأصحاب البلغم والرطوبات المتولدة في المعدة ويحرك المنى ويهيجه، وإذا أخذ منه عود وأمسك في الفم فإنه ينعط إنعطاً شديداً.

لي: من أحسن الطرق في استعماله في أمر الباه أن يؤخذ منه نصف مثقال أو درهم ويسحق وينخل ويذر على مقدار نصف رطل لبن حليب بقري ويشرب على الريق، فإنه غاية في أمر الباه وهذا مجرب صحيح.

(٢) هو جوزة الطيب، يطيب النكهة، ويذهب البخر، ويهضم الطعام ويقوى الكبد والمعدة ويزيل ورم الكبد والطحال الجاسي. بدله قرنفل.

والجرجير، والكراث^(١)، والحرشف، والنعناع خاصّة؛ فإنه يُقوي أوعية المنيّ جدّاً، فيشتمل على المنيّ اشتمالاً شديداً، فيشد الشهوة، والحمدقوق، والحلبة.

وقالوا: من أدمن على أكل العصافير، وشرب عليها اللبن مكان الماء تارة خائراً وتارة حليماً لم يزل منتشرّاً كثير الماء، ويُقلى البصل بالسمن حتى يتهرأ ويُفَقَّص عليه البيض، وللحرورين اللبن، والسّمك المشوي الحار، والبطيخ، والقرع^(٢)، والفواكه

(١) قال الغافقي: أظنه نباتاً رأيت بعض الناس تسميه في بعض بوادي بلاد الأندلس عشبة السباع وفيها مشابهة من نبات الميتان إلا أنها أنعم منه بكثير وأطول ورقاً ولها قشر صلب متين قوي كقشر الميتان يصلح أن يتخذ منه حبال وهو شديد المرارة وله لبن كثير إلا أنه ليس بأبيض ولا غليظ كلبن اليتوع، ورأيت أهل تلك الناحية التي بنيت فيها يزعمون أنه إن أخذ من عصارتها أو لبنه شيء يسير فيخلط بزيت كثير أو مرقّة دسمة كثيرة وشرب قياً بقوة وأسهل أيضاً ونفع بذلك من الجذام والماليخوليا وعضة الكلب^(٣).

(٢) قال جالينوس في الأغذية: القرع ما دام نيئاً فطعمه كريحه ومضرته للمعدة عظيمة وقد رأيت إنساناً أقدم على أكله نيئاً فأحس في معدته بثقل وبرد وأصابه عليه غثيان وقيء ولا دواء لهذه الأعراض التي تعرض منه إلا القيء، فإذا هو سلق فيغذو غذاء رطباً وكذا غذاؤه يسير مثل غذاء جميع الأطعمة التي تولد خليطاً نيئاً رقيقاً وانحداره عن المعدة سريع لما ذكرنا من رطوبته، ولما فيه من الملاسة والزلق، وإذا انهضم فليس خلطه برديء متى لم يسبق إليه الفساد قبل انهضامه والفساد يعرض له أما من الصنعة وإما من خلط رديء في المعدة وأما من قبل إبطائه في المعدة كما يعرض لجميع الفواكه الرطبة الفساد إذا أبطأت في المعدة ولم يسرع الإنحدار لها، وإن أكل وحده تولد منه خلط تفه فإن أكل مع غيره تولد منه خلط طعمه ذلك الشيء الذي معه لأنه ينقلب ويتشبه به فإن كان مع خردل تولد منه خلط حريف مع حرارة قليلة وإن أكل مع مالح تولد منه خلط مالح وإن أكل مع الأشياء القابضة قبض وقال في ذكر التوت إن القرع مع ما هو عليه من أنه أقل الثمار الصيفية كلها مضرّة متى لم ينحدر عن المعدة سريعاً فسد فساد سوء غريب لم ينطق به أبداً.

وقال ديسقوريدوس في الثانية: إذا تضمد به نيئاً سكن وجع الأورام البلغمية ووجع الأورام الحارة، فإذا ضمدت به يافوخات الصبيان نفعتهم من الأورام الحارة والعارضّة في أدمعتهم وكذا أيضاً ينفع إذا تضمد به الأورام الحارة العارضّة في العين وفي القرص وعصارتها إذا خلطت بدهن ورد نفعت من وجع الأذن وماء قشر الأصل إذا استعط به وحده أو مع دهن ورد نفع من وجع الأسنان، وإذا طبخ كما هو وعصر وشرب ماؤه بعسل وشيء يسير من نظرون أسهل البطن

الرطبة، والبقول الرطبة، وبياض البيض نافع لهم، وأدمغة الحيوانات، ومخارجها، والسرطانات النَّهْرِيَّة.

الأغذية المشابهة للدواء؛ فمن ذلك دواء مغزر للمنيّ، يُؤخذ ثلاثة أرطال لبن حليب، ويُلقى عليه نصف رطل ترنجبين ونصف رطل حبة الخضراء، ويُغلى ثم يُمرس ناعماً، ويُصفى ويُؤخذ منه نصف رطل، ويُلقى عليه نصف درهم خولنجان، ويُشرب منه مقدار الاستمرار أياماً.

صفة أخرى: ماء البصل، ومثله عسل، ويطبخ حتى يُنقى العسل، والشربة منه ملعقة أو ملعقتان عند النوم بهاء حار بعد العشاء.

صفة أخرى: صفرة البيض يُتخذ منه نيمبرشت، ويُثر عليه درهم شبت، ودرهم ملح السقنقور؛ فإنه قوي النفع، وخصوصاً عَقِيب الاستحمام، ويُدلك بدهن السوسن والياسمين.

صفة أخرى: يُؤخذ صفرة البيض، ويُضرب بعضها ببعض ثم يجعل عليها مثل

إسهالاً خفيفاً، وإن جوفت قرعة نيئة وصب في تجويفها شراب ونجمت وشرب ذلك الشراب أسهل البطن إسهالاً خفيفاً.

وقال الرازي في كتاب دفع مضار الأغذية: القرع بارد مولد للبلغم وهو من طعام المحرورين يطفئ ويرد ويسكن الالتهيب والعطش وينفع من الحميات، وإذا طبخ بالخل نقص من غلظه وبطء هضمه وكان أشد تطفئة للصفراء والدم إلا أنه في هذا الحال لا يصلح لأصحاب خشونة الصدر وللسعال وهو لأصحاب الأكباد الحارة أصلح، وأما من به سعال وحمى فليطبخه مع كشك الشعير ومع الماش المقشر ودهن اللوز الحلو وليجتنبه المبرودون والمبلغمون لأنه يولد فيهم القولنج الغليظ، وإن أكلوه فليأكلوه مطبوخاً بالزيت ومطياً بفلفل وليشربوا عليه الشراب الصرف وليأخذوا عليه الجوارشات. وقد يصلح منه أيضاً الخردل والمري فإذا هو وضع مع اللبن والماست أصلح منه الخردل وإذا طجن أصلح منه المري والخل أيضاً فإنه يصلح غلظه، لكن لمن لا يصلح برودته فليستعمل بحسب الحاجة ويصلحه الأكل له بما هو موافق له فيمن احتاج إلى تبريده وكثرة تبريده بالخل أوفق وما يصلحه وكثرة غلظه ولم يحتاج إلى تبريده فالمرى يصلحه منه، ومن خشي برده وغلظه جميعاً فليطبخه بعدما يسلقه بالزيت ويأكله بالتوابل والأبازير.

ربعها عصارة البصل المدقوق، ويُسوى نيمبرشت، ويُلقى عليه درهم ملح السقنقور،
ودرهم جوزبوا، وزنجبيل مخلوطان.

تركيب آخر: سمن بقر، وُدُهْنُ الفستق يُطبخان حتى يبقى ثلثه، والشربة منه
بالغداة ملعقتان بشراب حديث.

صفة أخرى: يُؤخذ حليب البقر ثلاثة أرطال، ويُطْفَى فيه الحديد حتى يبقى
منه رطل ونصف، ويُجعل فيه من الترنجبين ثلاثين درهماً ويُشرب، وهو غاية
للمحوررين والمعتدلين.

وأما المبرودين؛ فيجب أن يُضاف لهم خمسة دراهم دار صيني مسحوقاً
منخولاً، ويُخضخض في الحليب المذكور، ويشربونه بترنجبين وبغير ترنجبين؛ فإن
أضيف الدار صيني المذكور إلى الحليب المذكور، وهو على حاله من غير أن يُطْفَى فيه
الحديد يصلح أن يُشرب مكان الماء بعد طعام ولا يُشرب معه غيره، وينفع من كان به
برد أو ييس جميعاً.

صفة أخرى: حليب البقر، فانيد رطل، عصير البصل رطلان، يُطبخ حتى
يغلظ، ويُؤخذ منه بكرة كل يوم قدر أوقية.

تركيب آخر: يُؤخذ الحمص الأسود الكبار، ويُنقع في ماء الجرجير حتى يربو
قليلاً ثم يجفف في الظل ثم يسحق مع فانيد، والشربة منه قدر جوزة بالغداة، وقدر
بندقة بالعشي عند النوم، ويُشرب عليه قدح نبيذ، وإن نُقِعَ في ماء الحسك، وربي في
الشمس لا يزال يستقاه كلما جفَّ ثم يطحن ويُتَحَفَظُ به، ويُتخذ منه حساء باللبن
الحليب والفانيد طيبخ يقوي على الباءة، ويُدق الجرجير والبصل، ويُطبخ معه الحمص،
والباقلاء، والعسل بلحم رخيص جيد، ويُزر بالأبازير الحارة.

طبخ آخر: باقلي، وحمص، ولوبياء ينقع في ماء ثم يقطع لحم الضأن كما يتخذ

الطياهيح، ويُجعل منه ساف^(١)، ومن البصل، والحبوب ساف، ويُذر على كل ساف ملح السقنقور، وقليل حلتيت ودار صيني، وقرنفل كثير ثم ينثر عليها أدمغة العصافير والحمام ساف، ويُفعل كذلك، ويكون الأغلظ ساف اللحم المجرع ثم يصب عليه إما ماء الجزر أو شيء من الماء يتخذ منه مع مائة.

صفة مدققة مقوية على الباء: يؤخذ لحم ضأن ذكر حول، وخصوصًا من لحم المتن والرقبة والكتف خمسة أرطال ويُقطّع صغار ثم يدق، ويُرش عليه في حال الدق من الماء المعتصر من البصل ربع رطل مخلوط بربع درهم زعفران وعشرين درهماً غسل درهم زنجبيل ثلاثة دراهم دار صيني مسحوق؛ فإذا صار كالعجين جعل كبار كل واحد كالبيضة، ويُقسم نصفين في وسط كل واحدة من النصفين صفرة بيضة مصلوقة، وفي وسط النصف الآخر مثل البندقة من لب البطم والصنوبر والفسق والجوز الهندي، ولب بزر البطيخ بالسواء مدقوق مع فلفل وقرنفل ودار صيني، وقاقلة من كل واحد سدس جزء ثم يطبخ مع سبع بصلات مقشرة بنار لينة حتى ينضج ثم يحل في مرقة اللوز المدقشر المدقوق مع مثل ثلثه بزر بطيخ مقشور مدقوق، وبعد حله يصفى، ويُصب عليه، ويُلقى فيه من الدار صيني المروض خمسة دراهم، ومن الشبب باقة ويُحكّم نضجه، صفة عجبية تقوي على الباء يؤخذ من أدمغة العصافير والحمامات خمسون عددًا ومن صفرة بيض العصافير عشرون، ومن صفرة بيض الدجاج عشرة، ومن ماء لحم الضأن المدقوق والمطبوخ المعصور شديدًا قصعة، ومن ماء البصل المعصور ثلاثة أواقي، ومن ماء الجرجير خمسة أواقي، ومن الملح والتوابل الحارة قدر الحاجة، ومن السمن وزن خمسين درهماً يتخذ منه عجينة يؤكل ويُشرب عليها شراب قوي ريحاني إلى الخلاوة.

صفة بنادق مقوية على الباء: تؤخذ أدمغة ثلاثون عصفورًا، وتترك في سُكرجة زجاج لسطل مائها، ويصير بحيث يعجن، ويُلقى عليها مثلها شحم كلى ماعز ساعة

(١) الساف من قولهم سف الشيء: أقل القليل منه، ومنه سفت الريح التراب أي: ذرته.

يذبح، ويُبزر بالقرنفل والفلفل والزنجبيل ويُدق، ويُؤكل منه واحدة بعد أخرى في حال ما يريد أن يجامع.

صنعة ملح الورد يقوم مقام ملح السقنقور: يؤخذ الورد في أيام الربيع، ويُذبح وتنقى أحشائه ويُحشى ملح، ويُعلق في الظل حتى يجف، ويُؤخذ ملحه، ويرمى بجسده، ويكفى من ملحه شيء يسير أقل من ملح السقنقور.

صفة حلوى تقوي على الباءة: يؤخذ من حب الصنوبر جزءان، ومن بزر البطيخ وبزر الجرجير من كل واحد جزء، ويُقلى بالسمن، ويُلقى عليه يسير فلفل ودار صيني، ثم يطرح عليه من العسل مقدار الكفاية، ويُتخذ حلوى.

صفة أخرى: يتخذ الحمص، ويُنقع في الماء، وفي ماء الجرجير أو في ماء الحسك حتى ينفخ، ويُقلى بسمن البقر قليلاً يسيراً، ومن الحب الصنوبر مثله، ويُلقى عليه عسل قدر ما يعجن به، ويُخلط بقليل مصطكا ودار صيني، ويُرفع، ويُقطع تقطيع الحلوى.

صفة أخرى: يغلظ العسل بالطبخ، ويُثر عليه حب الصنوبر الكبار، وبزر الجزر ودار فلفل شَقَاقُل ودار صيني وبزر الجرجير، ويُتخذ منه كالجوارش، وإن كره بزر الجرجير جعل بدله حبة الخضراء أو قليل مسك.

صفة دواء: يشرب مع النبيذ نافع للمبرودين عسل البلاذر وعسل النحل وسمن البقر أجزاء سواء، يغلى ثم يشرب منه ثلاثة دراهم إلى الخمسة، يحبب ما يحتمله الشارب مع نبيذ؛ فإنه عجيب.

صفة شراب مقوي على الباءة: يؤخذ الحسك والجرجير واللحم، ويُطبخ في الماء طبخاً شديداً، ويُصفى الماء، ويُجعل في كل جزء، من الماء ربع جزء، ومن الفانيد أو السكر الأحمر جزء، وربع سُدُسُ جزء من التين اليابس، ونصف سدس جزء من الزبيب الطائفي الحلو يدق، وسدس سبع جزء نارجيل مدقوق.

الجملة الثالثة من الجزء الثاني

في ذكر الحقن والمسوحات والأطلية المعينة على الباءة

أفتمون نصف درهم، عاقر قرحا ثلاث دراهم يجمعان مسحوقين، ويخلطان بدهن زنبق، ويدهن به القضيبي وما يليه، وكذلك عاقر قرحا مع نصفه مسك يداف بينهما [شقاقل] مع أوقية دهن زنبق^(١)، وكذلك الحلتيت بدهن زنبق، وكذلك البورق بالعسل المصفى، ومرارة الثور بالعسل المصفى، وكذلك بزر المازريون بدهن الياسمين أو خيري^(٢) أو القسط.

آخر: قليل بصل الغار مع دهن زنبق، ويدهن به.

(١) هو دهن الخل المربب بالياسمين.

(٢) هو نبات معروف وله زهر مختلف بعضه أبيض وبعضه فرفيري وبعضه أصفر والأصفر نافع في أعمال الطب.

وقال جالينوس في السادسة: جملة هذا النبات قوته قوة تجلو وهي لطيفة مائية وأكثر ما توجد هذه القوة في زهرته وفي اليباس من الزهرة أكثر منها في الرطب الطري، فهو لذلك يلطف ويرقق الأثر الغليظ الكائن في العين، وماؤه إذا طبخ يدر الطمث ويحدر المشيمة والأجنة الموتى إذا جلس فيه، وإن شرب أيضاً فهو دواء يفسد الأجنة لأنه شديد الحرارة وإن كسر الشارب له من شدة قوته بأن يخلط معه شيئاً آخر مما أشبه ذلك صار دواء من الأدوية للأورام فائتقاً، ولذلك صار الماء الذي يطبخ فيه الخيري إذا لم يكن شديد القوة يشفي الأورام الحادثة في الأرحام إذا نطل عليها وخاصة لما قد طال مكثه منها وصلب، وعلى هذا النحو إذا خلط هذا الماء مع الشمع والدهن أدمل القروح العسرة الاندمال، وقد يستعمل بعض الناس هذا الماء مع العسل في مداواة القلاع، وأما بزر الخيري فقوته قوة الخيري بعينها إلا أنه من أنفع الأشياء كلها في إحدار الطمث إذا شرب منه مقدار مثقالين، وإذا احتمل من أسفل مع العسل وهو يفسد الأجنة الأحياء ويخرج الموتى منها، وأما أصول الخيري فقوتها هذه القوة إلا أنها أغلظ وأقرب من طبيعة الأرض، وإذا خلط الأصل بالخل شفى الطحال الصلب وبعض الناس يداوي به الأورام الحادثة في المفاصل إذا صلبت وتحجرت.

آخر: حب النيل^(١) وعافر قرحا أجزاء سواء مع دهن.

آخر: الحلتيت بعسل.

آخر: قنطاريون وزفت وقيروطي من دهن السوسن، ودهن خيرى وشمع ومصطكا وسعد، يطلى به الذكر وحواليه، ولدهن السعد ودهن حب القطن وشحم الأسد منافع عظيمة مفردة ومجموعة وزرق الحلتيت في القضيب منعظ مهيج؛ فإن خيف منه ومن حرارته أديف في دهن بنفسج.

الحمولات شحم البط، وحب القطن^(٢) وعافر قرحا بدهن نارجيل، وقيل: إنه إن احتملت أشباطه من شحم حمار نفعت.

الحقن يُتخذ من مرق الرءوس والفراخ مع صفرة بيض وخصى كباش الضأن جيدة إذا وقعت في الحقن، ولها منافع في تقوية الدماغ والبدن وأدهانها الإلية ودهن الجوز والشبرح وسمن البقر ودهن الفستق والبندق ودهن النارجيل ودهن المحلب ودهن حب القطن عجيب جداً.

وللمحرورين دهن الحسك ودهن الخشخاش ودهن حب القرع وحب البطيخ، ونحو ذلك.

حقنة: تؤخذ من مرق الرءوس والفراخ المطبوخة بالمغات والبوزيدان والشقاقل في السور ليلاً طبخاً جيداً جزء، ويلقى عليه من اللبن نصف جزء، ومن

(١) قال إسحاق بن عمران: إن نباته يشبه اللبلاب يتعلق بالنبات وبالشجر قامتين أو ثلاثة وهو ذو قضبان وورق خضر في كل ورقة نواة إساجوني في شبه الأقباع وإذا أسقط النور خرج مزود فيه ثلاث حبات أصغر من حب الرأس مثلث وهذا الحب هو المستعمل.

ابن ماسويه: خاصيته إسهال البلغم والتنقية وإصلاحه تجوיד سحقه ولته بدهن اللوز الحلو والمختار منه ما كان حديثاً رزينا ليس بمتقبض والشربة منه ما بين أربع قرايط إلى ثمانية.

(٢) هو الخيشفوج، قال الرازي: الرازي: حب القطن يلين ويسخن ويزيد في الباه، وعصارة ورقه تنفع إسهال الصبيان.

السمن نصف جزء، ومن دُهْن المحلب، ودُهْن النارجيل من كل واحد ثلث سُبْع جزء، ومن شحم كُلا السقنقور والضَّب ما يحضر، ويكون كالأبازير فيه ويُحْتَقَن به.

حقنة جيدة: حَسَك طري حُمس جزء، وحلبة كَفّ بزر اللفت، كَفّ بزر الجرجير، وبزر الجزر، وبزر الهليون كَفّ من الجميع، نخاع التَّيس وخصيته وكليته مرضوضة ودماغه يُصَبُّ عليه رطلان ماء ورطلان لبن حليب، ويُطَبَخ حتى يغلظ، ويُحْتَقَن بأربع أواقي منه بأوقية دُهْن حبة الخضراء، ويُكرَّر عليه ثلاثة أيام بعد التَّبْزِير.

حقنة أخرى قوية النفع: رأس ضان، وثلاثة أواقي من خصي الضَّان، وقطعة إلية، وحمص يطبخ في تَنُور، ويؤخذ دُهْنه وماؤه بغير طَبِخ شديد، ويجعل عليه من دُهْن جوز، ودُهْن حبة الخضراء، وشيء من لحم السقنقور، ويُحْتَقَن به.

حقنة أخرى: تؤخذ إلية، وتشرح وتُجْعَل في تشاريحها نصف درهم جُنْدِيدِستَر مدقوق، ويُقَسَّم فيها بالقِسط، وتُجْعَل الإلية تحت شيء ثَقِيلَ أيامًا ثلاثة ثم تُقَطَّع، وتَدَوَّب مع ما فيها من الجندبَاسْتَر^(١)، ويؤخذ ودكُها، وتُحْفَظ ويؤخذ من ذلك الودك سُكْرَجَة، ومن سمن البقر نصف سُكْرَجَة، ومن ماء الكران نصف سُكْرَجَة، ومن الحلبة نصف سُكْرَجَة، ويُحْتَقَن به وقت العصر، ويمسك إلى ثلاثة ساعات من الليل، ثم يُجَدَّد عند النوم، وينام عليه يفعل ذلك ثلاثة أيام.

حقنة أخرى: يؤخذ من الودك الَّذِي قَدَّمْنَا ذكره أربعون درهمًا، ويُذاب على النَّار، ويُضافُ إليه ودك شحم كُلاء الماعز عشرون درهمًا، ويُضاف إليه من العسل عشرون درهمًا، ومن ماء البصل عشرة دراهم، ومن ماء طَبِخِ الحلبة والحمص ثلاثون درهمًا، ويُغلى الجميع على النَّار، ويُحَقَّن به قبل النوم.

(١) هو حيوان يصلح أن يجيا في الماء وخارجه وأكثره يكون في الماء ويغتذي فيه بالسّمك والسرّاطين وخصاه هو الجندبادستر، ويصلح هذا الحيوان أن يكون في البر والبحر، وأكثر ما يكون هذا في النهر مع الحيتان والتماسيح وخصاه تنفع من نهش الهوام وتهيج العطاس وتصلح لأشياء كثيرة.

الجملة الرابعة من الجزء الثاني

في تدارك ضرر الباءة

أكبر علاجه النوم والدعة، والتفريح في المتنزهات والبساتين، والنظر إلى الحُضرة، والمياه الجارية، وشمُّ الأزهار، وإحضار الملاهي والنُدماء والمُفاهين، وحمله راكباً إلى المواضع النزهة، جنب المياه الصّافية، والاستحمام المعتدل الحرارة الفسيح العرصة الوافر الضياء، وترطيب البدن بالأغذية التي يغذى قليلها كصفرة البيض، وأمراق الدِّيك والفراريح، وإذا شُرب صبوْحاً من لبن الضّأن والبقر كان شديد المعونة على تقويته وإنعاشه سيّما إن دام عليه.

وإن ظهر ضَعف في البصر فسببه من الدِّماغ، وليُدَم دهن رأسه بمثل دهن بنفسج والتعطر به أو تقطيره في الأذن مفترّاً.

ويُستعمل الدُّخول في الماء العذب، وفتح بصره فيه، ومن أشدّ التدبير نفعا له أن يَسْتعمل بعض الحُثَن المسنّنة للكلّي كالمُتحد من طَبِخ أكارع الغنم ورأس الضّأن وساق البقر مرضوضاً وشحم كُلّ ماعز، ويُجعل معه كفّ نيلوفر^(١)، وقليل بنفسج،

(١) قال جالينوس في الثامنة: أصل هذا النبات وبزره فيها قوة تجفف بلا لذع فهو لذلك يحبس البطن ويقطع سيلان المنى ودروره الكائن بلا احتلام بإفراط وينفع من قروح الأمعاء، وما كان منه أبيض الأصل فهو أقوى من الأسود حتى أنه يقطع النزف العارض للنساء وقد يشرب منه ما هو أبيض وما هو أسود الأصل لهذه العلة بالشراب القابض، وفيها أيضاً جميعاً قوة تجلو لذلك يشفيان البهق وداء الثعلب شفاء عجيّباً ولعلاج البهق يعجن بالماء ولداء الثعلب بالزفت الرطب والأنفع في هاتين العلتين النوع الذي أصله أسود كما أن الأبيض نافع لتلك العلل الأخر. وقال ابن سينا: زهره ينوم ويسكن الصداع إلا أنه يضعف وبزره نافع لوجع المثانة وكذا أصله وشرابه شديد التطفئة نافع من الحميات الحادة.

وقال في كتاب الأدوية القلبية: يقرب في أحكامه من الكافور إلا أنه يرطب لقوته وكثرة برودته فيحدث في جوهر روح الدماغ كلالاً وفتوراً إلا أن يكون محتاجاً إلى ترطيب وتبريد لتعديل، وأما الروح التي في القلب فيشبه أن لا تفعل عن المعنى الضار الذي فيه انفعال الروح الذي في

وكف حنطة. وإن كان هناك حرارة أضيف إليه قشر الطلع، وقشر خشخاش، ويطبخ في التنور ليلة، ثم يؤخذ من رأسه رطل، ويضاف إليه أربعون درهماً دهن مخلوط من دهن قرع، ودهن لوز، ودهن بنفسج، ودهن نيلوفر، ودهن ورد، ويخضخض في قارورة، ويحتقن به فاتراً بعد تنظيف الأمعاء، وينام عليه، ويترك الجماع، ويهجر الباءة إلى أن يعود فيها اعتاده في حالة الصحة.

وأما إن حدثت الرعشة منه؛ فإن كانت مع مادة كثيرة رطبة أسهل بشحم الحنظل أو قش الحمار، والقنطريون، والسكينج، وبعد ذلك يعالج العصب بمسوحات قوية فيها المسك والعنبر والبان، ويدهن القسط والناردين، والسوسن، ودهن السعد، والمحلب، ودهن الأهل، وكل دهن جاز فيه قبض.

وإن لم يكن مادة عولج بمسوحات الرعشة، ومن عرض له بعده رعشة؛ سقي من الجاوشير درهم بماء المرزنجوش [طلاء] ونصف مثقال حلتيت في ربع رطل خمرًا.



الدماغ حتى تقويه منفعة بل خاصيته التي في عطريته تقوي الروح التي في القلب ويكون دفع ضرر برده ورطوبته به إلى حد ما يعدل بالزعفران والدارصيني.

عيسى بن ماسه: هو بارد في الدرجة الثالثة رطب في الثانية لطيف الأجزاء غواص ويذهب بالسهر الكائن من الحرارة ويكون ببلاد مرو ضرب من النيلوفر فيه حدة وحرارة ولطافة، وأما إذا أردنا إسخانا في أوجاع باردة فاستعملناه فوجدناه صالحاً وشربه صالح للسعال وأوجاع الجنب والرئة والصدر ويلين الطبيعة ويبرد.

الباب الأول

من الجملة الخامسة من الجزء الثاني

في علاج من ضعف عن الباء لسوء مزاج قلبه

أما إن كان ذلك من قلة حرارة القلب، وهذا أكثر ما يتفق للمشايخ وأصحاب الأمزجة الباردة؛ فعلاج ذلك تناول الخمر الريحاني العطر والأحمر الحلو بعد الطعام ثلاث ساعات في كل يوم، وشربه ممزوجًا بحسب اعتدال الخمرة، ويقتصر منه على مائة درهم إلى الثلاثمائة بحسب مزاج مستعمله، وكثرة ما يتناوله من الغذاء وقلته.

ويستعمل هذا المعجون؛ وصفته: بهمان أحمر درهمان، بهمان أبيض درهمان، ساذج هندي درهمان، قاقلة كبار ثلاثة دراهم، بذر الجزر تسعة دراهم، قاقلة صغار أربعة دراهم، زنجبيل أربعة دراهم، قرنفل درهمين، لبان درهمان، ورق القرنفل درهم، زعفران درهم، مسك دائق، تجمع هذه الأدوية مسحوقة منخولة، ويضاف إليها من سرّة السقنقور أربعة دراهم أو واحد من السمك المعروف صيدًا، ويُخلط الجميع، ويُرفع في إناء، والشربة منه وزن درهمين قبل النوم، وفي الشتاء ثلاثة دراهم.

وإن كانت الحرارة مستولية على القلب، وقد تقدم شرح علامات ذلك؛ فعلاج ذلك شرب ماء بزر الخيار، وبزر البقلة الحمقاء بالغداوات مع شراب الصندل مع نصف درهم طين أرمني وربع درهم طباشير.

وإن كان يَمُنُّ يغلب عليه الصَّفراء؛ فشراب الأترج مع شراب الصندل، ويُشرب قبل الجماع جُلًّا بباردًا، ويُبادر عَقِيب إنزاله بِشُرْب جُلًّا بباردًا؛ فإن لم يُحضره؛ فليبادر إلى شرب الماء البارد وحده؛ فإنه ينفعه جدًّا بإذن الله، ويحترز من المأكَل الحارّة، والله تعالى الشّافي.

الباب الثاني

من الجملة الخامسة من الجزء الثاني

في علاج من ضعف عن الباءة لسوء مزاج الكلى

أما أن يحدث بالكلى سوء مزاج حارّ يابس، وقد تقدّم ذكر علاماته؛ فعلاج ذلك أن يشرب في كلّ غداة يوم ماء بزر البطيخ وبزر الخيار وبزر بقله بشراب الهليون مبرّد بالثلج، ويصرّفه بهاء حبّ الرّمان، ويلازم ذلك مدّة عشرة أيام، ويحقّق بهذه الحقنة، وهي حقنة مسمّنة للكلى، وصفتها ساق بقرة مرضوضة، ورأس ماعز، وشحم كلى ماعز تُجعل ذلك في قدر، وتطرح عليه كف من الحنطة المدقوقة المقشورة، ويصبّ عليه من الماء ما يزيد على غمره نحو أربع أصابع، ويلقى عليه ربع رطل خشخاش^(١)،

(١) قال ديسقوريدوس في الرابعة: منه بستاني ويتخذ من بزره خبز يؤكل في وقت الصحة، وقد يستعمل أيضاً مع العسل بدل السمسم، وهذا الصنف من الخشخاش يقال له بولاقيطس ورؤوسه مستطيلة وبزره أبيض ومنه بري له رؤوس إلى العرض ما هي وبزر أسود ويقال لهذا الصنف سفرطس، ومن الناس من يسميه رواس ومعناه السائل لأنه يسيل منه رطوبة، ومنه صنف ثالث بري أصغر من هذين الصنفين وأشدّ كراهة وله رؤوس مستطيلة. جالينوس في السابعة: قوة جميع الخشخاش قوة تبرّد إلا أن الخشخاش الذي يزرع في المناهل والبساتين بزره ينوم تنوياً معتدلاً قصداً، ولذلك صار الناس ينثرون منه على الخبز ويأكلونه ويخلطونه بعسل، والثاني من جنس الأدوية والدوائية عليه أغلب ويبرد تبريداً بليغاً، والثالث هو أكثر دخولاً في جنس الأدوية ويبلغ من شدة تبريده أن يحدث خدرًا وتماوتاً ولذلك صار استعماله إنما هو إلى الطبيب المجيد أن يخلطه مع الأدوية التي تكسر شدة قوته في التبريد وتبطلها لأنه في الدرجة الأخيرة وهي الدرجة الرابعة من درجات الأشياء المبردة. ديسقوريدوس: وقوة الثلاثة أصناف مبردة وكذلك إذا طبخ ورقها مع الرؤوس بالماء وصب طبيخها على الرأس وقد يشرب أيضاً طبيخها للسهر، وإذا دقت رؤوسها ناعماً وخلطت بالسويق وتضمّد بها وافقت الأورام الحارة والحمرة وينبغي أن تدق الرؤوس وهي طرية ويعمل منها أقراص وتجفف وتخزن وتستعمل في وقت الحاجة، وإذا طبخت الرؤوس في الماء إلى أن ينقص نصف الماء ثم خلط ذلك الماء بالعسل وطبخ إلى أن ينعقد كان منه لعوق نافع للسهال ومن الفضول المنصبة إلى الرئة والإسهال المزمن، وإذا خلطت به عصارة الهيق طيداش والإفاقيا كان أقوى منه، وقد يدق بزر الخشخاش الأسود دقاً ناعماً ويسقى بالشراب لإسهال البطن ولسيلان الرطوبات المزمنة من الرحم، وقد يخلط بالماء ويضمّد به الجبهة والصدغان للسهر. التجريبتين: الأبيض منه إذا سحق الرأس منه كما هو بقره وحمل على مقدّم الدماغ سكن الصداع الحار ونوم، وإذا سحق وأضيف إلى مثله حلبة مسحوقة وطبخ بهاء أو بهاء ورد بحسب حرارة العلة ووضع على الرمد في ابتدائه

وقبضة لينوفر وقبضة بنفسج ويوضع في تنور المهراس ليلة ثم يؤخذ من مرقه نحو مائة وعشرين درهماً، ويُحقن به في كيس من أدم، ويطيل إمساك الحقنة معه، ويغذى بالقرع المطحن والأسفاناخ المطحن والفراريج المقلية والمشوية والمطبوخة بزرباحة، ولحم الشينك بهاء حب الرمان، وبالأمر باريس سجلاً، وإن لم يكن دليل استيلاء الحرارة على الكلى ظاهراً، فليُسقط الخشخاش وحده؛ فهذه هي الحقنة البالغة في تسمين الكلى، ورُبَّما اتفق للشباب أن يجامع في أيام يسيرة مرَّات كثيرة جداً أكثر ممَّا يحتمله مزاجه، فيحدث له صداع، وسببه هزال الكلى، فإذا استعمل هذه الحقنة كل يوم زال عنه ذلك في يومين.

واعلم أن النوم أفضل ما عولج به هزال الكلى، وهو أنفع الأشياء للأبدان التي قد أضعفها الجماع وأنهكها، ومن كان مزاج الكلى منه صحيحاً؛ فإنه إذا استعمل هذه الحقنة، وجد بها من القوة على الباءة ما يحمد غاية الإحما.

وأما إن كان سوء مزاج الكلى من البرد؛ فليُعدَّ اللحم الرزَّاج أو الطهيوج والشفانين والعصافير مقلَّوًا بالمُري والأبازير سوى الفلفل، فلا يصلح استعماله؛ لأنه محرق مفراط، ويختص بهذه الحقنة رأس [...] من الضأن وشحم كلى ما عرَّ يطبخ على الحالة المذكورة مع خمسة دراهم بابونج ودرهمين أصل السُّوس الأمانجوي وثلاثة دراهم تفاح الإذخر ويستعمل على الوجه الَّذي تقدم ذكره ويحذر الأسفار الطويلة إلا في محفَّة البغال المهمولة.

سكن الوجع وردع المادة، وإذا خلط بالأدوية النافعة من السعال بحسب استعماله مطبوخة أو ممسكة نفع من السعال الرقيق المادَّة بأن يغلظها ومن الحارة بأن يعدلها، ومما ينصب من الدماغ بأن يمنعه من انصباب المواد إلى الحلق، وإذا سحق القشر وخلط بالأدوية للإسهال المتولد عن خلط صفراوي نفع منه وغلظ المادة، وإذا خلط القشر أو الحب مع الأدوية النافعة من حرقة المثانة قوى فعلها وسكن الحرقة.

الباب الثالث

من الجملة الخامسة من الجزء الثاني

في علاج من ضعف عن الباءة لقلة المنى

علاج ذلك إدمان الأغذية المولدة للمني والمركبات المغزرة له التي ذكرناها في الجملة الثانية من هذا الجزء، ويتجنب الحموضات، وخصوصاً الرمان الحامض والخُل، ويستعمل الباءة باعتدال.

الباب الرابع

في علاج من ضعف عن الباءة لضعف أعصابه

علاجه إدمان غسل الذَّكر بالماء البارد كل يوم مرات، ولا سيما في الصَّيف، وصبُّ الماء البارد عليه عَقِيبَ الجماع، وتدليك الأطراف بالماء البارد عَقِيبَ الاستحمام إلا الرأس؛ فإن الرأس لا يجوز صبُّ الماء البارد عليه مع ضعف الأعصاب ألبتة، ويُتَنَفَّعُ بالحركة والرياضة نفعا تاما إلا أن أنفع الرياضات ما كان بالسَّعي على القدمين في الغدوات، والمعاركة والمصارعة لأصحاب الأبدان النَّاعمة اللينة أيضا مفيد للعصب، وتحتاج إلى هجر الملوحات والحموضات إلا ما كان من الحوامض مُحَلًّا. فإن كان ضعف العصب مع شيخوخة، وعلامة ذلك أن يبرد العضو في أكثر الأوقات حتَّى يصير بارداً جداً؛ فليمضغ شيئاً من كبابة وسورج^(١)، ويستعمل ذلك الريق عند الجماع أعني يطلي الفرج به فهو يُلدِّذ، ويقوي الذَّكر.

(١) قال ديسقوريدوس في الخامسة: هو شيء يتولد من البحر وهو جنس من الزبد ويتولد على المواضع الصخرية القريبة من البحر وله قوَّة مثل قوَّة الملح. وقال في المقالة الحادية عشر: هذا إنما هو شبيه بالزهرة أو بالزبد يرتفع فوق الملح وهو ألطف من الملح بكثير فهو لذلك يمكن فيه أن يلطف ويحلل أكثر من الملح كثيراً وأن يجمع أكثر ما يبقى من جوهر الجسم الذي يلقاه كما يفعل الملح.

وأَنفَع من ذلك هذا المسوح وصفته يؤخذ سكينج، ويُحْلُ في الهاون بقليل ماء حتَّى يصير كالعسل الثخين، ويقطر عليه قطرات من الدُّهن، وهو في خلال ذلك يُجَرَّك حتَّى يصير فيه من الدهن ثلاثة أمثال السكينج^(١) المحلول أو ستَّة أمثاله بحسب الحاجة إلى قوة الإسخان وقلته، ثم يمسح الذَّكَر بهذا الدهن وقت الجماع؛ فإنه يفعل في تقوية الذَّكَر وإسخانه وإنعاظه وتلذيز الجماع وتطيبه فعلاً عجيباً.

وكذلك أيضاً إذا تحمَّلت به امرأة في صوفة سخن رحمها وطيبه وأزال نتنه إن كان خلوف إلا أن من يستعمل غسل الذَّكَر بعد الجماع بالماء البارد، ولا يدمن استعماله بغتة؛ فإنه إن لازم أضعف عصبه جدًّا، وقطعه عن الباءة.



(١) قال الصلت: هو حار يابس في الدرجة الثالثة يسهل البلغم اللزج والرطوبات الغليظة ويستخرج الغائص منها في المفاصل وينفع من عرق النسا الذي سببه البلغم ومن الريح الغليظة ومن القولنج البارد، وهو بالجملة دواء جيد جداً لغلبة البلغم البارد في الأمعاء والظهر والوركين والمختار منه الصافي الأحمر الظاهر الأبيض الباطن الحريف الدسم الذي فيه شيء من مرارة والشربة منه من درهم إلى مثقال.

الباب الخامس

من الجملة الخامسة من الجزء الثاني

في علاج من ضعف عن الباء لسوء مزاج الأنثيين

يقويهما الاستحمام في الأسبوع مرتين أو ثلاثة، والحاوش في الإبرر، وتمريخهما بسبرج طري أو سمن البقر المغسول من الملح وإلا غاب للجماع، وهجره مدة، واستعمال الحقنة المسمنة للكلى، والأغذية المغزرة للمني، وأكل ثدي النعجة مشويًا، وخصى العجاجيل والكباش.

* * *

الباب الأول

من الجملة السادسة من الجزء الثاني

في علاج قروح الإحليل واتساع المجاري

أما القروح الحادثة في القضيب؛ فإنها من أضرّ الأمراض بالمعتكف على الباءة؛ لأنها تضعف الإحليل الذي هو الآلة التي يضطر إلى قوتها، ونشرح ما ينبغي أن يعالج به؛ فنقول: إن القياس والتجربة جميعاً قد شهدا بتفضيل الكُنْدُر^(١)، وهو اللُّبَان على سائر ما عولج به هذا المرض، وذلك بأن يشرب منه دون دانقين وأكثره أربع دوانيق في غداة كل يوم سبعة أيام، بين كل يومين منها يقف استعماله يوماً؛ فإن القيح الذي جرت عاداته أن يسيل من القرحة، ويرسخ كالصمغة إلى رأس الإحليل؛ يزول وينقطع وذلك علامة إدمال القرحة، فإن بقي بعد هذه المدة شيء يسير؛ فليلازم الدواء المذكور تمام عشرة مرات، وإلى الأربعة عشر مرة، وبالجملّة فلا ضرر منه إلا لأصحاب الحميات والدق والذبول والكبد الحارة بإفراط.

وأما السَّبَب في تفضيلنا إياه على سائر الأدوية التي يعالج بها هذا المرض؛ فهو أنه لما كان هذا المرض في مجرى قريب من أحد المخرجين صار الدواء المشروب الذي يراد وصول إلى ذلك العضو، وتأثيره فيه يحتاج إلى أن يسلك في جميع المسالك والأعضاء التي تمرُّ بها المشروبات، ومن النيران جميع الأدوية المشروبة يغيرها البدن إلا

(١) قال ابن سمحون: الكندر هو بالفارسية اللبان بالعربية.

وقال الأصمعي: ثلاثة أشياء لا تكون إلا باليمن وقد ملأت الأرض الورس واللبان والعصب يعني برود اليمن.

قال أبو حنيفة: أخبرني أعرابي من أهل عمان أنه قال: اللبان لا يكون إلا بالشجر شجر عمان وهي شجرة مشوكة لا تسمو أكثر من ذراعين ولا تنبت إلا بالجبال ليس في السهل منها شيء ولها ورق مثل الآس وثمر مثل ثمره له مرارة في الفم وعلكه الذي يعضغ ويسمى الكندر ويظهر في أماكن تغفر بالفؤوس وتترك فيظهر في آثار الفؤوس هذا اللبان فيجتنى.

السموم القاتلة؛ فإنها إنَّما قبلت؛ لأنَّ البدن لا يقوى على تغييرها، وأما ما عداها من الأدوية، فكلما طال مسلكها في الأعضاء؛ نقصت قواها بتغيير البدن إياها.

وهذا التغير على ضربين:

أحدهما: بما يخالطها من الرطوبات والأخلاط المشحونة بها أوعية البدن وتجاويف الأعضاء.

والثاني: بما يؤثره الطالح فيها لاستحالة الحرارة البدن الباطنة.

فلما كان الدَّواء الَّذِي يعالج به قروح القضيب يحتاج إلى أن يسلك مسالك كثيرة، وينفذ في عدَّة أعضاء كالمعدة والرئة والقلب والكبد والطحال والأمعاء والكلى والمثانة؛ صارت الأدوية المشروبة تصل إلى هناك، وقد ذهبت قواها، فلا يبقى لها قوة التأثير في قرحة الذَّكر إلا اللبان؛ فإنه لا يزايله قوته إلا بعد خروجه من البدن، وذلك أن من شرب من اللبان ولو دانقًا واحدًا؛ فإنه بعد ساعتين أو ثلاث ساعات فصاعدًا إذا أراق الماء كان رائحة بوله أشبه الروائح برائحة دُهن البنفسج الجيِّد طيبًا، وسُقي نحو يومين كفى، وهذا يدلُّ على أنَّ اللبان إلى أن يخرج من البدن قوَّته باقية عليه بوجوده له، وقد جرَّبناه في مداواة قروح القضيب، فوجدناه في غاية النِّفع.

وأما إدرار البول، وقيام المرء من مضجعه عدَّة مرَّات في الليل للبول؛ فإنَّنا وجدناه يُزيله ويشفي منه إذا ابتلع منه كل ثلاثة دراهم مدَّة سبعة أيام وخمسة أيَّام.

الباب الثاني

من الجملة السادسة من الجزء الثاني

في سرعة الإنزال وبطنه

اعلم أنَّ بطء الإنزال قد يكون من قلة المادة يتولّد منها المنّي، وشحّ الطبيعة بإخراجها إليها، وقد يكون في النَّادر من أسباب أُخَر مثل سدّد يحصل في بعض مجاري المنّي إلا أنَّ هذا لا يكاد يتّفق، ولو اتفق لعولج بما ينفع السُّدّد وبالإسهال وبحسب الأغذية الغليظة، وعلامة هذا النوع أن يحسّ الإنسان في حال الجماع أنه قد قارب الإنزال، ولا ينزل كذلك عدّة مرات.

وأما إذا كان لا يجد هذه العلامة، وهو مع ذلك بطيء الإنزال؛ فإن سبب بطء إنزاله قلة المنّي، وعلاج ذلك استعمال الأغذية المولّدة للمنّي، وقد ذكرناها.

وأما سرعة الإنزال؛ فلها سببان: أحدهما: اتساع المجاري، والثاني: كثرة المنّي، وكونه حاضرًا معدًّا في المعدة والأوعية، ويُستدل على اتساع المجاري باتساع العروق وغلظها، والقيام في الليل من المضجع للبول مرات، وأكثر ما يحدث للمشايخ، والذين قد جامعوا فيما سلف جماعًا كثيرًا.

فأما الكائن عن كثرة المنّي؛ فإنه يحدث من كان أكله أكثر من جماعه، وكان مزاجه رطبًا؛ وعلاج هذا النوع الإكثار من الجماع، وهجر الأغذية الدسمة الكثيرة الدّهْن.

وأما الكائن عن سعة المجاري؛ فعلاجه أن يشرب في كل أسبوع مرة واحدة نصف درهم من اللُّبان يجعله في وسط [النهار]^(١) ثم يأكلها قبل النوم، والمعدة قد قاربت الخلو من الطعام؛ فقد ثبتنا ذلك.

* * *

(١) غير واضحة في الأصل.

الباب الثالث من الجملة السادسة

في العشق وعلاجه

قال بعض الفضلاء: العشق مرض نفس فارغة لا همَّ لها، وأمَّا كونه مرضًا خاصًا بالنفس فهمًا لا ريب فيه، وأمَّا تعلقه بالنفس الخالية من الهمِّ فهو أكثر، وليس يمتنع أن تتعلّق النفس المهمومة.

وقد سأل المأمون جلسائه يومًا عن حدّ العشق، وكلّم فيه يحيى بن أكثم، فسكّته شمامة بن أشرس، وقال: ما أنت وهذا؟! دع هذا الكلام لفرسانه، ثم كلم عالم تراه صوابًا فلذلك لم تذكره.

وأول العشق شدّة استحسان المحبّ للمحبوب ثم تمنّيه قربه ثم الحذر من بعده ثم كراهيته للوجود خاليًا منه، وهو من أعظم أمراض النّفس جناية على البدن، ولا سيما مع البعد، وفراق المحبوب؛ فإنه يؤدّي إلى السّل في أكثر الأمر، وإلى المالمخوليا، وإلى الدّق والذبول، وكثير ما يؤدّي إلى احتراق القلب بالبخارات الدّخانية، والموت الفجأة، وهو أحد الأمور التي يسهل أوائلها، ويعظم نكايّة آخرها، كالجنين المولود؛ فإن ابتداء مصيره إلى الأحشاء بلا ألم، وخروجه منها بإشقاء الوالدة على الموت.

فأما نفع وجود المعشوق، وإمكان القرب منه؛ فلا علاج للمحبّ غير وصال الحبيب، كما قال: ما شفاء المحب إلا الحبيب، وليس في ذلك بين أحد من العقلاء خلاف.

وقالت أمّ الضحّاك المحاربية:

سَأَلْتُ المَحَبِّينَ الَّذِي تَحْمَلُوا تَبَارِيحَ هَذَا الحَبِّ فِي سَالِفِ الدَّهْرِ

فَقُلْتُ لَهُمْ مَا يُذْهِبُ الْحَبَّ بَعْدَمَا تَبَوَّأَ مَا بَيْنَ الْجَوَانِحِ وَالصُّدْرِ
فَقَالُوا شِفَاءُ الْحَبِّ حَبٌّ يُزِيلُهُ مِنْ آخِرِ أَوْ نَائِي طَوِيلٌ عَلَى هَجْرِ
أَوْ الْيَأْسِ حَتَّى تَذْهَلَ النَّفْسُ بَعْدَمَا رَجَتْ طَمَعًا وَالْيَأْسُ عَوْنٌ عَلَى الصَّبْرِ
وقد جمعت هذا المرأة في هذه الأبيات أنواع علاج هذا الداء.

وقال آخر:

بِكُلِّ تَدَاوَيْنَا فَلَمْ يُشْفَ مَا بَيْنَا عَلَى أَنَّ قُرْبَ الدَّارِ خَيْرٌ مِنَ الْبُعْدِ
وعلاجه عسير جدًّا، ويمكنه بأحد أمرين:

أحدهما: تعذُّر وجود مائل المعشوق يقوم مقامه عند العاشق.

والثاني: وقوع الدور أعني أن يكون المعشوق عاشقًا لعاشقه، وكلما اتصل
بأحدهما أنبأ ما عند صاحبه من الكَلَفِ به تضاعف وجُدُّه وكَلَفُهُ.

ولا ينقطع هذا النوع من العشق إلا بأن يتصل من العاشق والمعشوق من
البلاغات المبنية بالسלו ما تهدم ما شيدته البلاغات الأولى الموافقة للدور.

وأما النوع الأول: فلا علاج له إلا اطلاع العاشق على أحوال من المفض يمجدها
من المعشوق، أو مشاهدة صورة أكمل من صورة المعشوق، أو أطيب عشرة بحيث
يقف على بعض المعشوق بالإضافة إليها.

(١) الأبيات من الطويل، وهي لأم الضحاك المحاربية في «الأمالي» لأبي علي القالي ص (٩١٨)،
و«الوافي بالوفيات» ص (١١٦٧٨).

(٢) البيت من الطويل، وهو لعبد الله بن الدُّمينة في «الحماسة البصرية» ص (٨١٥)، و«الزهرة» ص
(٤١٢).

فأما من غير هذين النوعين فيعالج بمخالفة الصور الشبيهة بصورة المعشوق ومعاشرتها، والجماع نافع من العشق مسكن له بهذه الرأس حكاية.

وكان لي صديق من أبناء الأدب، ذكي الخاطر، ظريف الشيم إلى النفس شريفها، وكنت أراه كثير الزفريات، والتنفس صعداً، حديد النظر، كثير الإظراف، دائم الفكر والحرث، كثير الرغبة في الخروج إلى المتنزهات وشم النسيم، فكنت أرتاب بهذه الأحوال منه، وأقول له: إني لأخالك عاشقاً، وهو يحلف لي أن قلبه فارغ من المخلوقين جميعاً، وكان يبسط إليّ بأسراره، ويفشي إليّ ما هو أكثر من ذلك، بحيث لا أشك في صدقه.

فسافرت عنه مدة طويلة ثم لقيته، وقد زالت عنه تلك الصفات، وقد أصابه سقمٌ وتحولٌ؛ فسألته عن أحواله، فقال: أعلمك أي كنت عاشقاً أيام كنت تسألني عن حالي، فقلت له: أما كنت تحلف لي إنك كنت فارغ القلب من ذلك؟ فقال: بلى، وما حثت، فقلت: وكيف ذلك؟! قال: لم أكن أشعر بأني عاشق، فقلت له: ولمن عشقت؟ وما قصتك؟

فقال: اعلم، إني كنت قد تزوجت بجارية من أهل بلدي، لم أر مثلها قط جمالاً وكمالاً، ولم أكن وصلت إلى امرأة قط، فكلفتُ بها كلفاً عظيماً، وأحببني الجارية أيضاً حباً شديداً، ولم تكن تصبر عني ساعة واحدة، وكان أبواها مقيمين عندنا في دار واحدة، فلما شغف كل واحد منا بصاحبه، داخلهم الطمع في أمري، وكانا شرَّ خلق الله طبعاً، وأسوأهم أخلاقاً، فمازالا مستريحان تعنتي ونفاري حتى ضاق صدري بهم، وصاروا يمنعون الصبية من الاجتماع بي في أكثر الأوقات.

وكانت الأم داهية شديدة التسلُّط عليها، وكانت الصبية تخافها وتتَّقِيها،

فمازلت أتقي شرهم لمحبتني لابتئهم، وشرهم ينمو ويتفاقم، حتى عجزت عن احتمالها، وأنفت لنفسي ممّا يعاملوني به من الهوان، فأجتهدت في تحويلها عنهم إلى منزل آخر، وبذلت لهم الخروج عن جميع ما أملك، فما مكّوني من ذلك، فلمّا لم يبق لي طمع أيست من نفسي؛ لأنني ما شككت في أنني إذا فارقت الصبية متّ أو مرضت مرضاً فاني، فعملت على فراقها راضياً بالموت، متحقّقاً بحلوله غير شاكّ فيه، فسافرت عنها مضمرّاً، ألا أعود إليها أبداً معها في ذلك من التعرض للحتف، وتجرع مرارة فراق من لا بعده.

فمكثت ستّة أشهر أزاول الهموم والأفكار، وأتجرع عند اجتماعي بالناس، ولا أبوح بخبري لمن يختصّ بخدمتي، فضلاً عن سواه استحياءً أن يُشنع عني العشق والافتتان، فمازلت أخفي هذا الأمر في نفسي، وكلما استولت عليّ الأنفة من إظهاره، والاستقباح للاشتهاار بالصبوة، أسترّ العشق، وكمن باطن القلب، واندفن في النفس حتى ظننته قد ذهب، وكان لذلك سببان:

أحدهما: أني تزوجت بزوجتين، وتسريت بعدّة سرايري.

والثاني: بعدّ العهد بالمعشوق، ودوام النأي عنه، وتمرّ الأيام على فراقه فظننت أني قد سلوت، وذلك أني نسيت تلك الصورة المعشوقة، ولم تبق في خيالي فذلك حين كنت تسألني عن حالي أحلف لك أني لست عاشقاً، قلت له: فهل كان في الزوجات والجواري مثل الأولى في جمالها، ومن حلّ في قلبك محلّها؟ فقال: هيهات ذلك، قلت: فما بال تلك الزّفرات وأمارات المتيمّين؟

فقال: اعلم أني كنت نسيت تصعد أنفاسي، وكراهيتي حضور مواطن السرور والأفراح إلى استيلاء الحزن على قلبي، لتهادي الزمان في مكابدي، ولم أزل أتخذ زوجة

بعد زوجة، وجارية بعد جارية، ولا أجد القناعة بها حتى أتلفت مالي، ولم يوافقني منهن واحدة، وكان حموي قد شخص في طلبي، ورام استصلاحي، فأبيت العودة؛ لأنني لم أكن أطمع في فلاحهم ولا انصلاحهم، فألزميني حين آيس مني في طلاق ابنته، فطلقتها مكرها نفسي على ذلك، وبقيت على ذلك عدة سنين حتى أنسيته.

وبلغني أنها تزوجت من شيخ قبيح الوجه والدمامة، أكرهها أبوها على نكاحه؛ فإنها نسيت بعد ذلك إلى العهد، فسقطت من عيني بحيث أي لو رأيتهما لما التفت إليها، ثم عدت إلى بلدي بعد طلاقها بسبع سنين.

وأنا أستديم التمثل بقول الشاعر:

لئن زُفْتُ إلى عُثمان عُرسي فإني لا أقبله بعتب

فإن الأسد إن شبت أباحت أجلاً فريسة لأخس كلب

فلما سمعت بقدمي، أرسلت امرأة تثق إليها من أهلها تشكو أشواقها وامتناع النوم عليها مذ شعرت بقدمي، وتعتذر عن تزويجها، بأنها أقامت على التألم أربعة أعوام رجاء أن أراجعها، وأنها في أكثر تلك السنين، كانت دائمة المرض ظاهرة السقم كثيرة الأسف والبكاء، وأن أهلها كانوا يُحضرون إذا أفرط عليها الحزن والبكاء، من يغني بين يديها ممًا قليل في الفراق، ومن يلعب بالملاهي؛ فُسح دموعها سحًا، وأنهم مازالوا يبلغونها من أخبار السلوة عنها، والتعوض بزوجة بعد زوجة، وجارية بعد جارية، ويخوفونها من أن ينتهي بها الدوام على ما هي عليه إلى ذهاب النفس شعاعاً^(١) وكلفاً بمن لا يرجع إليها، ولا يسأل عنها حتى ألهموها التزويج من ذلك الشيخ.

(١) شعاعاً: أي تفرقاً، يقال: ذهب القوم شعاعاً أي: متفرقين [لسان العرب (شعع)].

وأخبرني رسولها بأن جماها أضعاف ما كان في وقت مفارقتي إياها، فما هو يا أخي إلا ما سمعت ذلك، وانصرف عني رسولها، وقد رددتها ردًا جميلًا حتى أهاج مني ما لم أكن أظنه عندي من الشوق والغرام، ثم اتصلت بيننا المراسلات؛ فصار رسولي عندها كل يومٍ مرات، ورسولها يجيء إليّ بالشكوى مما عندها من الغرام، وحرصها على لقائي يتزايد، حتى انطويت على أشد ما انطوى قلب إنسان عليه من كلفٍ وحُزنٍ وتمنٍّ للموت، وما زال ذلك ينمي، حتى صار أشدَّ ما كان في ابتداء عشقي.

فعلمت أن ذلك كان كامنًا في قلبي، وأنَّ الأنفة والعزم أخفياه حتى كمن وبطن، إلى أن ظننته قد ذهب، فاستدمت تعليلها بالوعد بالحضور من غير أن أتجاسر على لقائها؛ لأنني لم أكن أعلم ماذا يؤثر عندي ذلك أي خشيت من أن أراها أجمل مما في خيالي؛ فيتضاعف الكلف بها حتى يُفقد الصبر، وأموت عند أول لقائها سرورًا وآخره أسفًا؛ لأنها وقتنا خطر العاشق، وخفت أن يستفزني الهوى؛ فأصبو إليها، فأكتسب العار، وأدخل النار، وأدنس عقبي، وتستخف حلمي، وامتنع عني النوم عدة ليالي.

وقلت في ذلك:

أَلَا هَلْ أَتَاهَا أَنَّنِي اللَّيْلُ هَائِمٌ تَصَاعَدُ أَنْفَاسِي كَحَرِّ السَّمَائِمِ
وَأَنَّ شِعَارِي ذِكْرُهَا وَحَدِيثُهَا وَذَلِكَ عِنْدِي كَالرَّقَى وَالسَّمَائِمِ
وَمَا كُلُّ صَبٍّ يَهْجُرُ النَّوْمَ طَرْفُهُ وَلَا كُلُّ قَلْبٍ قَلْبُهُ قَلْبُ هَائِمِ
وَلَا كُلُّ مَشْتَاقٍ يُهَيِّجُ وَجَدَهُ إِلَى إِلْفِهِ ذِكْرُ الْهَوَى الْمُتَلَائِمِ
لَنْ نَمُتُ عَنْ وَجْدِي خَلِيًّا فَإِنِّي وَعَيْشُكَ فِي فِرْطِ النَّجْوَى غَيْرَ نَائِمِ
وكتب إليّ بعض إخواني:

ليس في راحة سوى الموت يا صاح ولا لذة بغير الحَمَامِ

إذ فؤادي قد اصطلته همومٌ لم يَطِئْ بعضُها صدورُ الأنامِ
فلما اشتدَّ ما بي جاءني أم الجارية؛ فأكرمتها، ورحبت بها، وتكلفتني لها إخفاء
جميع ما كان عندي من التأثر بقديم محبتها، جلست منبسطة، وكانت قد شعرت بما تجدد
من المراسلة بيني وبين ابنتها، وأعجبها ذلك.

فما زالت تعاتبني على طلاق ابنتها، وتظهر ما كان الزمان قد أنسانيه من سوء
خلقتها، وسوء أدبها، واستطالتها، وخروجها في القبيح إلى ما لا يحتمل إلى أن أزال الله
ما كان قد احتوى على قلبي من محبة ابنتها، وأستر حيث أكثر ما كنت فيه من الكَلَفِ
بها، ونابت بث كلفتي، وصحني، فعزمت على لقاءها واثقاً من نفسي عن أغلب الخلائق
على النزاهة والعفة؛ فإن الهوى يضعف عن علة هذه القوى.

ثم أرسلتُ إليَّ الجارية تواعدني لقاءها دار صديقة لها، وتسألني ألا أبخل عليها
بشروتي، فرافقتها وقت الميعاد، فوجدتها فانية في ارتقابي، لما عاتبته لم أكد أعرفها حتى
تكلمت، وزرقت عيناها سحاً بعد زفر، فوقعت عليَّ بمسح عيني، وتبكي ثم كررت
نظري فيها، فلم أر من الجمال الذي فارقتها عليه، ولا من الأدب واللطافة التي كنت
أعدها عليها شيئاً.

وذلك أي كنت فارقتها، ووجهها كالدينار المنقوش لركة محاسنها، وكانت
بيضاء، ناهد، رشيقة، حادّة الصوت، خفيفة الانعطاف، مليحة الخلق، تنظر عثارية،
مطواعة أريية، أديبة، معتدلة القدِّ، فصادفتها وقد شحمت طويلاً وعرضاً، وأفرطت
خصباً، وقد تمرنت على شرب الخمر، والغى تقصد بذلك التسمين.

وقد أكسبها إدمان ذلك شحماً كثيراً مفرط الكثرة، زهلاً، كمداء اللون،
فأكسب نور وجهها حمرة، وكمورة مفرطة، وقد غلظ صوتها، وساء خلقها، وقد

رضعت آداب أمها السمجة، فحادثتها ساعة، ثم هممت بالانصراف، فتعلقت بذيلي، وأنا مولٍ، فقدت القميص من دبر.

قلت: هذا شعاركن يا صويحبات يوسف تخريق الأطمار من دبر، فأقسمت عليّ أن أعود، ففعدت ساعة ثم انصرفت، واجتمعنا بعد أيام، فوجدت مدار كلامها، ومنتهى مقصدها اكتساب شيء من قِلي، واستدراجي إلى ما أنا أبعد الناس عنه من العهر والصبوة؛ فهجرتها بعد ذلك ساليًا لها، ومكثتُ معها في المدينة بعد ذلك عدة شهور، لا أجمع بها، ثم سافرت، وليس في قلبي لها موضع، ولا تتطلع نفسي إليها. وقلت:

وفارقتُ حتى لا أبالي من النوى وإذبانَ جيرانَ عليٍّ كرامٍ^(١)

وقد جعلت نفسي على النَّأي تنطوي، وعيني على فقد الحبيب تنام، فبقيت الآن عاشقًا لمن ليس بموجود، قلت: وكيف؟ قال: لأن تلك الصورة التي كلفتُ بها، وأفنيت استحالت بالسنين والأعوام إلى ضدٍّ ما كان يعجبني منها؛ فصارت غيرها، فبهذا الطريق وجدتُ السلوة.

قلت: فإذا كنت قد سلوت، فما بالي أراك على ما أنت عليه من النحول والسُّقم مع ارتفاع ما كان عليك من أمارات العشاق - أعني: الزَّفات وغيرها؟! فقال: اعلم أن الحب كان في قلبي كامنًا تلك الأعوام الثمانية، وأنا لا أشعر به في أكثرها، فاحترق قلبي، وغلب عليه البخار الدُّخاني، وسخن القلب بإفراط؛ فأوقعني ذلك في طرف من الدَّق، ولست أرجو السلامة منه ولا أريدها.

(١) البيت من الطويل، وهو بلا نسبة في «التذكرة الحمدونية» ص (٥١٨٨)، و«شرح ديوان الحماصة» ص (٤٢٧).

قلت: هل تجد الآن في نفسك حاجة إلى استقراء النسوان عسى تجد فيهن مثل الصورة التي أهدت بها؟

فقال: قد كان ذلك شعارًا لي، ومذهبًا لديّ إلى أن عانيت ارتفاع الصورة عن موضعها الأوّل التي كانت به أخصّ، فلم يبق لي إلى بليغ الصورة مثيل، ولا أُخالني لو رأيتُ أحسن المخلوقات أفنيت به، ولو كان ذلك لحبيتي أسرع الملالة والسلوة، وأحسب أن مزاج نفسي انحرف عن الاعتدال الطبيعي له بعد ما عرض لها من المرض النفساني كما تنحرف أمزجة الأبدان بعد الأمراض الصعبة المزمنة، ويكتسب منه سوء مزاج.

فإذا كانت النفوس الأبيّة قد يَقَوَّى عزمُها على التزام الصبر عن المحبوب، ويغلب جانب الأنفة والعزة حتى يكمن الحب في القلب، هذا اللون المولد للداء الدّوي، فبالحرّي أن يحذر العاقل عن مثله، كما يحترز السليم من غور السّم في باطن بدنه، فصلاح هذا البدن نفي الهموم والأسقام عن باطنه إلى ظاهره.

ونرجع إلى تحقيق البحث عن حال علاج العشق؛ فنقول: إنه إذا كان العاقل اللبيب المختار، قد يكمن في قلبه العشق حتى يظن في قلبه السلوة، فلا ينبغي أن يعتمد على سلوة العاقل اللبيب؛ فإن تلك الحال التي تراها سلوة رُبّما كانت لكمون الحب واحتجاجة، ولكننا نعدل إلى ما لا نشك في سلوته؛ فنستقرئ أسباب سلوته لنقف منها على علاج العشق، فترى الطفل الصّغير عاشقًا لثدي أمه لا يصبر عنه، وتراه إذا كبر وترعرع قد سلاه، فبحث عن سبب هذه السلوة تجدها تمنع الثدي عنه فطامه واشتغاله لفراقه وحزنه ممّا يشده خاطره عنه، كما يعد للصبيان عند فطامهم من السكر واللوز، وأشباه ذلك.

ومن ذوات الألوان أو الصور المصنوعة من النحاس والخشب، وغير ذلك؛ فيشغله الإعجاب بتلك الشواغل عن محبوه الأول، ثم يستولي عليه الميل إلى بعضها بحيث لو سُلِبَ من يده بعض ما يلعب به الصبيان؛ لبكى عليه وقلق لفراقه، فإذا رأى ما هو أغرب عنده، وأعجب لديه، وأحسن في عينيه من العلق المسلوب عنه اشتغل عن الباقي، واحتمل فراق الأول، ولا يزال ينتقل عن محبة الشيء الصَّغير إلى محبة الشيء الكبير إلى أن يهوى الملابس الجميلة والآلات المذهبة والملونة، ثم ينتقل عند البلوغ إلى محبة الصور الإنسانية المليحة.

فلو عُرض عليه عند المراهقة ما كان يبكي عليه، وهو ابن ست سنين؛ لم يعأ به ولم يجد ألماً لفراقه، ولو عرض عليه، وهو من أبناء ستة سنين ما كان يبكي عليه عند الفطام، ولم يلتفت إليه، ولم يبكي على فراقه، وهذا يدل على أنَّ العاشق إذا فارق محبوه، واتخذ بعده واحداً بعد واحد من أضرابه وأشكاله تملأه.

وأما على رأي المنجمين؛ فإن تعلق الأرواح بعضها ببعض يتعلق شكل فلكي يكون للفلك عند أول الاجتماع بالمعشوق دالاً على تناسب الأرواح، وتعلق بعضها ببعض رُبَّما يعسر اتفاق مثله.

وأما العلة في قول بعضهم:

نَقْلُ فُؤَادِكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنْ أَهْوَى مَا الْحُبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الْأَوَّلِ^(١)

فهو أن بعض العشاق لم يقدر بعد فراق الحبيب الأول على مثله، وذلك مثل أن يكون المعشوق المفارق زوجة صغيرة السن؛ فيروم السلو عنها، باتخاذ زوجة بعد

(١) البيت من الكامل، وهو لأبي تمام في «أخبار أبي تمام» للصولي ص (٢٠٥)، و«الصناعتين» ص

زوجة، ولا يقصد على من كان مثل حالها في صغر السن أو جمال الصورة أو خصب
البدن أو حسن الخلق متخذًا واحدة بعد واحدة من العاليات الأسنان، فلا يصادف
عندهن من اللذة بالمتعة ما كان يجده عند الصَّغيرة السن، أو يتخذ منهن قبيحة بعد
عجفاء بعد سمراء بعد مهزولة بعد مهذارة بعد فارك بعد ناشز بعد عاهر بعد مسقامة.
فكلما رام التداوي بقربه من إحداهن؛ اذكره نقصها كمال صاحبته الأولى،
وكمَن فارق مملوكه موافقة أديبة؛ فيعوض عنها بزوجة بعد زوجة، فلا يرى عند
الزوجات من الاستكانة ما كان يراه عند المملوكة، ويشتد أسفه، وكمَن فارق معشوقة
سوداء حسناء أو أعرابية حسنة الخلق ممتعة الخلوة ثم رام السُّلو عنها باتخاذ الجواري
الأرمنيات والتركيات والروميات، فلا يجد السلوة؛ لأنه لا يرى عندهن من حسن
الأخلاق، كما كان يرى؛ فيظن أن معشوقه لا يوجد له عوض، فيتضاعف كلفه، ولو
تبع اضطراب المعشوق وأشباهه، لا يهتدي طريق السلوة؛ ممَّا يدل على استقراء الصور
طمعًا في الظفر بمشابهة المعشوق، وهذا أبعد غاية في النعت، كملت الحكاية بعون الله
تعالى.

الباب الرابع

من الجملة السادسة من الجزء الثاني

في علاج خبث النفس لغم أو خوف

علاج ذلك السكون في البيوت الوافرة الضياء المبيضة الجدران التي تشرق الشمس على حيطانها، والنظر إلى المياه الصافية الجارية والبساتين، وشم الرياحين والأزهار، وتنسم الرياح المعتدلة، ومجالسة الندماء والأحباب، والاستحمام المعتدل، وتناول عشرة دراهم شراب تفاح مخلو مع دائق واحد زعفران في كل يوم بكرة. وأنفع ما كان ذلك عقيب الاستحمام، وأن من يعتاده احتياج الصفراء والقيء، اتبعه بعد ساعة واحدة بدائنين من العود الاليحوج مسحوقاً ناعماً وسبعة دراهم معجون الورد سكري.

وتمرس ذلك مع ماء نقيع الأمير باريس^(١) ويشربه، ويتنفع أيضاً بالبخور بالعود والند، واستماع الموسيقى، وشرب اليسير من الشراب العطر العتيق الذي يحصل منه النشوة.



(١) هو البرباريس والزرشك بالفارسية ومنه أندلسي ورومي وشامي يجلب من جبل بيروت وجبل بعلبك وهو أجود من الرومي عند باعة الغطر بمصر والشام. قال الرازي: عاقل للبطن قاطع للعطش جيد للمعدة والكبد الملهتين ويقمع الصفراء جيداً. التجربتين: حبه يجفف قروح الأمعاء ويقطع نزف دم الأسفل إذا تمودي عليه ويقوي الكبد الحارة الرطبة إذا خلط بالأدوية الحارة كالسنبل وما يجري مجراه نفع من الاستطلاق الذي يكون عن برد الكبد والمعدة ينفعها إذا ضعفت عن الحمى البلغمية أيضاً.

الباب الأول

من الجملة السابعة من الجزء الثاني

في كيفية الإحبال

ينبغي للمتزوجين أن يتركا الجماع أياماً ثم يُقصد الجماع في أول طهرها، وليكن الرجل قد انهضم طعامه وقارب الجوع، إلا أنه لم يجع، وليطاول اللعب، وخصوصاً مع النساء اللواتي لا يكون مزاجهن رديئاً؛ فإن الرديئة المزاج القبيحة الأدب، يفسد مزاج المني الذي يجتمع بمداعبتها.

وليكثر من لمس ثدييها برفق وتدغدغ، ويلقاها غير مخالطٍ الخلط الحقيقي؛ فإذا سبقت ونشطت خالطها محاكاً منها ما بين نظريها من فوق، فإن ذلك موضع لذاتها، ويراعي منها الساعة التي يشتد منها اللزوم، وتأخذ عينها في الاحمرار، ونفسها في الارتفاع، وكلامها في التبلبل؛ فيرسل حيثئذ المني محاذياً لفم الرّجَم موضعاً لمكانه هناك قليلاً قدر ما يبلغه أثر من الهواء الخارج ألبتة؛ فإنه في الحال يفسد، فلا يصلح للإيلاد، وليعمد بتزريق المني في فم الرّجَم ثم يلزمها ساعة، وقد خالط بعد ذلك الخلط الذي هو أشد استقصاء، حتى إن ثغرات الرّجَم ومتنفساته قد هدأت كل الهدوء، وبعد ذلك يسيراً، وهي فاجحة مشالة الوركين نازلة الظهر، ثم يقوم عنها، ويتركها هنية ضامة الوركين والرجلين حابسة للنفس، وإن نامت بعد ذلك، فهو أوكد للإغلاق.

وإن سبق فاستعمل عليها بخورات موافقة لهذا الشأن، كان ذلك أوفق حولات وخصوصاً الصموغ التي ليست شديدة الحرارة مثل المقل^(١)، وما يشبهه مجمل

(١) هو جنسان صقلي وهو أشد سواداً وألين من المقل الآخر وقوته مليئة وعمله بهذه القوة بليغ والآخر عربي والعربي أيسر من الآخر وقوته أشد تحفيفاً من الأدوية المليئة وما كان منه حديثاً رطباً إذا عجن كان كاللبن فعمله كعمل الصقلي وكلما عتق حدثت في طعمه مرارة شديدة وصار

قبل ذلك. ويصلح أن يتقدم قبل هذا بتناول الأغذية الباهية، ويتناول قبل الجماع بمدة عشرون يوماً كل ليلة قبل النوم درهمين من هذا الدواء بهمان أحمر درهمان، بهمان أبيض درهمان، بدرهم لؤلؤ درهم فلفل قرنفل درهم قاقلة درهمان، زنجبيل درهم، جوزبوا نصف درهم، زعفران نصف درهم، دار صيني درهمان، سليحة درهم أو ورق القرنفل درهم، تجمع هذه الأدوية مسحوقة منخولة، ويُعجن بعسل، ويرفع إناء، ويتناول منه الرجل والمرأة.

حادثاً حريفاً يابساً فقد خرج من طبيعة اعتدال الأدوية المليئة للأورام الصلبة ومن الناس من يستعمله وخاصة العربي في مداواة الأورام الحادثة في الحنجرة وفي قبة الأمعاء وإذا أرادوا استعماله لينوه بريق إنسان لم يأكل شيئاً ثم لا يزالون يعجنونه حتى يصير كالمرهم وقد يظن بالمثل العربي أنه يفتت حصى الكليتين إذا شرب ويدر البول ويذهب الرياح الغليظة إذا لم تنضج ويفشها ويطردها ويشفي وجع الأضلاع وفسوخ العضل كلها.

الباب الثاني

من الجملة السابعة من الجزء الثاني

في علاج من لا تحبل، وامتحاق العقيد

الْمَنِيُّ الصَّحِيحُ الَّذِي تَعَلَّقَ مِنْهُ الْأَبْيَضُ اللَّزْجُ الْبَرَّاقُ الَّذِي يَقَعُ عَلَيْهِ الذَّبَابُ، وَيَأْكُلُ مِنْهُ، وَرِيحُهُ رِيحُ الطَّلَعِ، وَأَيُّ امْرَأَةٍ طَهَرَتْ، فَلَمْ يَجِفْ فَمِ رَحْمُهَا بَلْ كَانَ رَطْبًا؛ فَإِنِهَا لَا تَحْبِلُ، وَأَنْبَهَكَ فِيهَا بَعْدَ كَيْفٍ يَعْلَمُ مَزَاجُ الرَّحِمِ.

فَإِنْ كَانَ يَغْلِبُ عَلَيْهِ الْحَرَارَةُ اسْتَفْرَغْتَ الْأَخْلَاطَ بِالْأَغْذِيَّةِ، وَالْأَشْرِبَةِ، وَاسْتَعْمَلَ عَلَى الرَّحِمِ قَيَروُطَاتٍ مُعَادِلَةٌ لِحَرَارَتِهَا مِثْلُ: الْعَصَارَاتِ، وَاللَّعَابِ، وَالْأَدْهَانِ الْبَارِدَةِ.

وإن كان السبب البرد والرطوبة - وهو الكائن في الأكثر - عولج بهذه الأدوية، ويبدأ أولاً باستعمال هذه الحقنة: فُقَّاحٌ إِذْخِرُ، كَفْ مَزْرَنْجُوشُ، كَفْ فَوْذَنْجُ، كَفْ تَرَبْدٌ^(١) خَمْسَةَ دِرَاهِمٍ، ثُمَّ يَطْبَخُ ذَلِكَ بِخَمْسَةِ أَرْطَالِ مَاءٍ حَتَّى يَبْقَى رَطْلٌ وَاحِدٌ، وَتَحْتَقِنُ

(١) قال أبو العباس الحمصي: التبريد بالعراق على الصفة التي تجلب إلينا وهو مجلوب إليهم أيضاً من وادي خراسان وما هنالك وأخبرني الثقة العارف بالعقاقير.

أبو علي البلخاري ببغداد أنه بحث في البلاد الخراسانية عن صفته وهيئته وورقه فأخبره الجلابون له أن ورقه على هيئة ورق اللباب الكبير إلا أنه محدد الأطراف وله سوق قائمة لم أتضح أنا صفتها وأصوله طوال على الصورة التي هي مجلوبة وهم يقطعونه وهي خضر قطعاً قطعاً على القدر الذي هو موجود. ذكر لي الثقة أن كل ما يجلب من التبريد في البحر يسرع إليه التآكل بخلاف المجلوب منه في البر فاعلم ذلك ولما كان المتأخرون من المتطببين لم يبحثوا عن صفته وذكره مهملاً في كتبهم وجد المدلسون السبيل إلى تدليسه بغير ما نوع من الكلوخ، ومن يتوعد وغير ذلك مما يجب التوقف عنه والتحذير منه.

ابن ماسويه: في إصلاح الأدوية المسهلة خاصة التبريد إسعال البلغم إلا أنه يورث البشاعة للنفس لفظاعة مطعمه فإن أراد مريد أخذه فليقدم قبل ذلك في إصلاحه بلته بدهن اللوز الحلو فإنه يمنع ضرره ثم يأخذه والمختار منه ما كان حديثاً جوفه شديد البياض أملس الظاهر دقيق العيدان غير متآكل ليس بذى شظايا والشربة منه ما بين درهم إلى درهمين.

به بما يمكنها منه من في الرحم فاترًا، وتبتدئ باحتمال صمغ الكنكر^(١)؛ لتخرج الرطوبات، ثم تتبخر كل يوم بأقراص متخذة من المر والميعة، وحَبِّ الغار أجزاء سواء معجونة بالميعة السائلة، وتبخر بقمع ليوفر البخور على فم الرحم.
بخور آخر: زرنخ أحمر، وجوز السرو، يعجن بميعة سائلة، وتبخر بقمع بعد الطهر ثلاثة أيام.

المشروبات ذوات الخواص: تسقى المرأة بول الفيل؛ فإنه عجيب في ذلك، وليفعل ذلك بقرب الجماع، وكلما يجامع، وأيضًا نشارة العاج؛ فإنه حاضر النفع.
آخر: شحم الأوز في صوفة، واحتمال نفحة الأرنب بعد الطهر مع زَبَد البحر يعين على الحمل.

وكذلك احتمال بَعَر الأرنب، وكذلك مرارة الطبي الذكر، وخصوصًا إن جعل معها شيئًا من خصي الثعلب والعسل، وكذلك مرارة الذئب أو الأرنب والأسد نحو دانقين.

(١) هو الخرشف البستاني. قال ديسقوريدوس في الثالثة: هو صنف من الشوك ينبت في البساتين والمواضع الصخرية والتي فيها مياه وله ورق أعرض بكثير وأطول من ورق الخس مشرف مثل ورق الجرجير عليه رطوبة تدبى باليد أملس إلى السواد وساقه طولها ذراعان ملساء في غلظ أصبع وفيما يلي طرف الساق الأعلى ورق صغار شبيهة بما صغر من ورق النبات الذي يقال له قسوس مستطيل لونه شبيه بزهر النبات المسمى براقيس يخرج فيما بينه زهر أبيض، وله بزر مستطيل أصفر اللون وفي طرفه كرأس الدبوس وأصوله لزجة فيها شيء شبيه بالمخاط في لونها حمرة النار طوال، وإذا تضمد به بالماء وافق حرق النار والتواء العصب وإذا شربت أدرت البول وعقلت البطن ونفعت قروح الرئة وخضد لحم العضل وخضد أطرافها.

وقال الرازي في دفع مضار الأغذية: هو غليظ الجرم بطيء الانهضام والانحدار وينفخ ويزيد في الباه ويسخن الكلى والكبد والمثانة وإصلاحه أن يهري بالطبخ ويكثر فيه هذه التوابل والأبازير اللطيفة ويؤكل جرمة.

فصل: إن كان السبب كثرة الشحم استعملت الرياضة، وبلطيف الغذاء، وهجر الاستحمام الرطب إلا بمياه الحمامات، والاستفراغ بالفصد، والحقن الحارة، وبالمجففات المسخنة مثل: الترياق والسادريطوس، ويجب أن تهجر الشراب الرقيق الأبيض، وتستعمل الأحمر القوي الصرف.

ومن [الفرايج]^(١) الجيدة لهن سكينج، ومر، وعسل، ودهن السوسن.
وإن كان السَّبَب رياحًا مانعة من تمكن المنيّ، عولجت بالكمّولي، وشراب الأنيسون، وبزر الرازيبانج، وبزر السذاب في ماء الأصول، واستعملت فزارج متخذة من هذه، ومن محلات الرياح مثل الجندباستر، وبزر السذاب.
وإن كان السَّبَب شدة اليبس؛ استعملت الحقن المُرطبة، واحتالات الشحوم اللينة، وسقي لبن المعز والأسفيذباجات الدسمة.
وإن كان السَّبَب ضيق فم الرّحم؛ فيجب أن يستعمل دائمًا ميل من أسْرَب ويغلظ على التدريج، ويُمسح بالمراهم اللينة، ويُستكثر من الجماع، وينفعها أكل الكرنب، ويُستعمل الكرفس والكمون والأنيسون.
وإن كانت رطوبة استفرغت بالإيارجات^(٢) والمعاجين الكبار كالشروديطوس^(٣) والدرياق والسادريطوس ومعجون الفلاسفة.

(١) هكذا في الأصل.

(٢) الإيَارَجَةُ، بالكسر وفتح الرَّاء: مَعْجُونٌ مُسَهِّلٌ.

(٣) ذكره ابن النفيس في الموجز في الطب (ص ١٥١، ٢٥٧، ٢٦٤).

الباب الثالث

من الجملة السابعة من الجزء الثاني

في التحرز من الحمل

قد يفتقر الطبيب إلى منع الحمل عن الصَّغيرة والمخوف عليها من الولادة، والتي في رحمها علة، والتي في مثانتها ضعف؛ فإن ثقل الجنين رُبَّما أورث شقًّا في المثانة، فيسلس البول، ولا يُقدر على حبسه آخر العمر.

ومن التدبير في ذلك أن تؤمر عند الجماع بأن تتوقَّى الهيئة المجلة التي ذكرناها، وتخالف بين الإنزالين، وتؤمر بأن تقوم المرأة مع الفراغ، وتثب إلى خلف سبع مرات أو تسع وثبات، فربَّما خرج المنيُّ، وأما الطفر والوثب إلى قدام، فربَّما سكن المنيُّ، وقد يعين على إزلاق المنيِّ أن تعطس.

ومما يجب أن تراعيه أن تتحمل قبل الجماع وبعده القطران وتمسح به الذَّكر، وكذلك دُهْن اللسان والأسفيداج، وأن تتحمل قبل وبعد شحم الرمان والشبث، واحتمال فقاح الكرنب وبزره عند الطهر قبل الجماع وبعده؛ فإنه قوي في هذا الباب، وخصوصًا إذا جعل في قطران وغمس في عصارة الفودنج أو طبيخه، واحتمال ورق الغرب بعد الطهر في صوفة، وخصوصًا إذا كان مع ذلك مغموسًا في ماء ورق القرنفل، وكذلك شحم الحنظل وخبث الحديد والكرنب والسقمونيا وبزر الكرنب أجزاء سواء تجمع بقطران وتُحتمل، واحتمال الفلفل بعد الجماع يمنع الحمل، وكذلك احتمال زبل الفيل وحده أو مع السخيرية في الأوقات المذكورة، ومن المشروب أن يسقى ماء الباذروج^(١) ثلاث أواق؛ فيمتنع الحمل.

(١) قال ابن سينا في كتابه في الأدوية القلبية: فيه عطرية مع قبض شديد وتسخين وفيه رطوبة فضلية ويفرح لخاصة تعينها العطرية التي يصحبها قبض مع تلطيف على نحو ما حمدناه إلا أن عاقبته أيضاً في التفريح غير محمود، وذلك لأن الجوهر الغذائي الذي فيه مضاد للجوهر الدوائي الذي فيه لأن الجوهر الدوائي الذي فيه يفعل ما ذكرناه، والجوهر الغذائي الذي فيه يتولد منه دم عكر سوداوي والرطوبة الفضلية التي فيه تحدث مضرة النفخة في العروق وقد عرفت هذين المعنيين بالروح والفرح.

الباب الرابع من الجملة السابعة من الجزء الثاني فيما يسقط الأجنة

قد يُحتاج إلى إسقاط الأجنة في أوقات؛ منها عندما تكون الحبل صغيرة، يُخاف عليها من الولادة الهلاك، ومنها عندما يكون في فم الرَّحِم آفة أو زيادة لحم يُشق على المولود عند الخروج فيقتل، ومنها عند موت الجنين في بطن أمه.

واعلم أنه إذا تعرَّس أمر الولادة أربعة أيام؛ مات الجنين، فاشتغل بتخليص الوالدة، ولا يشتغل بحياة الجنين بل اشتغل بإخراجه، والأدوية التي تخرج وتُسقط بأن تقتل الجنين، وبأن تدر الحيض، وقد يفعل بالإزلاق، والقاتلة للجنين المرة والمدرة للحيض أيضاً هي المرة والحريفة، والمزلاقات هي المرطبة للزجة تستعمل مشروبات وحمولات.

ومن الاستفراغات الفصد، وخصوصاً الصافي بعد الباسليق^(١) على كبر من الصبي والإجاعة والرياضة والوثبات الكثيرة وحمل الثقيل والتعطيس.

ومن التدبير الجيد في ذلك أن يُدخل في فم الرَّحِم من الحبل كاعداً مفتولاً أو ريشة أو خشبة مبرية قدر حجم الريشة أو طاقة سذاب أو أسنان أو عرطيشاً أو سرخس؛ فإنها تسقط الأجنة لا محالة، وخصوصاً إذا لطخت بشيء من الأدوية المُسقطه كالقطران، وماء شحم الحنظل ونحوه.

والأدوية المُسقطه منها مفردة، ومنها مركبة، فأما المفردة التي هي أبعد من شدة الحرارة؛ فهي الأفسنتين والشاهترج^(٢).

(١) هو موضع في اليد يصلح فيه الفصد.

(٢) نافع ورقه وبزره للجرب والحكة أكلاً وشرباً لما يرد من الحُمَيَاتِ العتيقة.

وأما الأدوية الحارة المفردة؛ فهي الشطرح^(١) وهو نسبة الخزف، وله رائحة حريفة إذا احتمل أسقط الجنين والمشيمة، والحلتيت وبخور مريم في هذا الباب قوي شرباً وحمولاً.

حتى أن قومًا زعموا أن الحامل إذا وطئته؛ رُبَّما أسقطت بعد وقت، وعصارتها يفسد الجنين طلاء على البطن؛ فكيف حمولاً على قطنة.

وإن سُقي من الأشنان الفارسي وزن ثلاثة دراهم أَلقت الجنين من يومه، وحافر الحمار يخرج الجنين الميت بخوراً، وكذلك عين سمكة مالحة.

صفة دواء قوي يخرج الجنين حيّاً وميتاً: حلتيت نصف درهم، ومن ورق السذاب اليابس ثلاثة دراهم، ومن المرّ درهم، وهو شربة سلامة الأبهل، شربة بالغداة وشربة بالعشي.

دواء يُسقط الأجنة بسهولة، ويسكن الغثيان: دار صيني، قردمان أبهل، عشرة مرخمة، والشربة ثلاثة دراهم كل يوم، وقد يسهل مع ذلك، وهو تنقية للنفساء، وإخراج المشيمة، وترياق الأربع، قوي في الإسقاط وإخراج الميت.

فُزرجة جيدة: عصارة قثاء الحمار عشرة قراريط معجونة بمرارة ثور، ويحتمل؛ فإنه يخرج الجنين حيّاً وميتاً.

ذكر زراقة الرَّجَم يجب أن يكون الزراقة مملسة الطَّرف، طويلة العنق بطول قرن الرَّجَم من المرأة المعالجة، وبحيث تدخل فم الرَّجَم، وتحس المرأة أنها قد صارت في فضاء داخل الرَّجَم، ويُزَرَّق منها ما يقيّل الجنين أو يزلقه أو يخرججه، تدر الحامل بعد الإسقاط يُدَخَّن بالفل والحرمل وعلك البُطم والصعتر والخردل الأبيض لغسل الدم، ويخلط فتحبس في إخراج المشيمة، ثم يُمسك المنخران والفم كطاء قشور البيض ويتمدد وتزلق المشيمة.

(١) لعله الشيطرح أيضاً وهو العصاب، وهو سواك الرعيان وجوز الرعيان والهندي عو المعروف، وهو الذي تشربه الناس بالسكر، بدل القهوة بفاس.

وإذا ظهرت المشيمة قلقل قليلاً قليلاً برفق لا عنف لئلا تنقطع، واشتغل بالتعطيس، وإن لم تخرج المشيمة؛ فإنها بعد أيام تتعفن وتخرج، لكن يستعان على أذاها بالبخورات العطرة، وشرب دواء المسك، ويطلّى على المقعدة والقلب القرنفل^(١) والزعفران^(٢).

* * *

(١) قال إسحاق بن عمران: هو ثمر وعيدان يستعملان جميعاً يؤتى به من أرض الهند فيه العيدان وفيه الرؤوس ذوات الشعب وهو أجوده وأجوده أصهبه ومنه دقاق وجلال وجلاله هو المقطوع يقطع سلس البول والتقطر إذا كانا عن برد ويسخن أرحام النساء، وإن أرادت أن تحبل المرأة شربت في كل ظهر وزن درهم قرنفل، فإذا أرادت أيضاً أن لا تحبل فتأخذ في كل يوم حبة قرنفل ذكر فتزدردها، وإن شربت من القرنفل نصف درهم مسحوقاً يؤخذ مع شيء من لبن حليب على الريق فإنه مقو على الجماع.

(٢) الجامع لمفردات الأدوية والأغذية - (ج ١ / ص ٣٤٢)

جالينوس في الثامنة: في الزعفران شيء قابض يسير، وهذا منه أرضي بارد، ولكن الأغلب عليه الكيفية الحارة فتكون جملة جوهره من الإسخان في الدرجة الثانية ومن التجفيف في الدرجة الأولى، ولذلك صار ينضج بعض الإنضاج، ومما يعينه على ذلك القبض اليسير الموجود في ذلك لأن ما كان من الأدوية لا يسخن إسخاناً قوياً، وكان فيه قبض فهو في قوته مساوٍ للأدوية التي تغري وتلحج إذا كان معها حرارة موجودة وليست بالشديدة وهي أدوية تنضج.

وقال ابن سينا في الأدوية القلبية: حار في الثانية يابس في الأولى وفيه قبض وتحليل قويان يتبعهما لا محالة الإنضاج، وله خاصية شديدة عظيمة في تقوية جوهر الروح وتفرجه بما يحدث فيه من نورانيته وانبساطه مع متانة وتعينها العطرية الشديدة مع الطبيعة المذكورة فإذا استكثر منه أفرط في بسطه للروح وتحريكه إلى خارج حتى يعرض منه انقطاعه عن المادة المغذية ويتبعه الموت، وقد قدر لذلك وزن فالأولى أن لا يذكره.

وقال مسيح: الزعفران يهضم الطعام ويخلو غشاوة البصر ويقوي الأعضاء الباطنة الضعيفة لما فيه من القوة القابضة إذا شرب أو وضع من ظاهر عليها ويفتح السدد التي تكون في الكبد والعروق باعتدال لما كان فيه من الحرافة والمرارة إلا أنه يملأ الدماغ.

الجملة الثامنة من الجزء الثاني

في مداواة العذيوط

العذيوط^(١) هو الذي إذا جامع ألقى زبله عند الإنزال، ولم يطق ضم مقعدته، وأكثرهم يغلب عليه الشبق جداً، ويكثر فيهم اللذة، ويسترخون وترهل أبدانهم، وينفعهم المراهم والأضمدة القابضة المقوية للعضل، مثل دهن الناردين خاصة، ودهن السرو^(٢)، ودهن الأبل مرهم جيد سحق الكهربا والأقاقيا والسوسن اليابس والحناء، ويتخذ منها ومن دهن السفرجل مرهماً، ويستعمل دائماً على العضل الذي بالمقعدة، وتتخذ حمولات جابسة، وخصوصاً عند الجماع مثل أن يُحتمل شيافة زامك وعفص وكندر وجُلنار.

وأيضاً تحتمل الأدهان القابضة ويُغذ بالأغذية القابضة كالسماقية والخضرية، ويتناولون كل ليلة قبل النوم من اللبن، ويكثر من شم العنبر ويتناولون شراب التفاح الحلو الذي فُتق فيه شيء من الزعفران في غداة كل يوم وبعد الاستحمام، ويتبعونه بهاء نقيع الأمير باريس محلولاً فيه معجون الورد السكري.

(١) قال المجد في القاموس المحيط - (٢/ ٢٢٦): العِذْيُوطُ والعُذْيُوطُ والعِذْوَطُ، كجَزْدَوْنٍ وعُضْفُورٍ وَعَثُورِ التَّيْتَاءِ جِ عِذْيُوطُونٌ وَعِذَائِيْطٌ وَعِذَائِيْطٌ، وَقَدْ عَذِيْطٌ، وَالاسْمُ الْعَذْطُ، أَوْ لَا يُشْتَقُّ مِنْهُ فِعْلٌ لِأَنَّهُ خِلْقَةٌ.

(٢) قال ديسقوريدوس في الأولى: يقبض ويبرد وإذا شرب ورقه مسحوقاً بطلاء وشيء يسير من المر نفع المثانة التي تنصب إليها الفضول ومن عسر البول، وجوز السرو إذا دق وهو رطب وشرب بخمر نفع نفث الدم وقرحة الأمعاء والبطن التي يسيل إليها الفضول وعسر النفس الذي يحتاج فيه إلى الانتصاب والسعال، وطبخ جوز السرو أيضاً يفعل ما يفعله جوز السرو وإذا دق جوز السرو طرياً وخلط بتين لين الصلابة وأراقولونس وهو لحم ينبت في الأنف من باطنه وإذا طبخ بالخل ودق وخلط بالترمس قلع الآثار البيض العارضة للأظفار، وإذا تضمد به أضر الأدره من الفتق، وورق السرو يفعل ما يفعله جوز السرو وقد يظن أنه يطرد البق إذا دخن بأغصانه والورق، وورق السرو إذا كان مسحوقاً وتضمد به ألزق الجراحات وقد يقطع الدم وإذا دق وخلط بالخل سود الشعر، وقد يتضمد به وحده وبالسويق للجمرة والنملة والجرم والأورام الحارة العارضة للعين، وإذا خلط بموم وزيت عذب ووضع على المعدة قواها.

وقال ابن سينا: طبيخه بالخل نافع لوجع الأسنان ورماده إذا قر على حرق النار وعلى سائر القروح الرطبة نفعها.

الجملة التاسعة
في مداواة أمراض تختص بالرحم
الباب الأول
من الجملة التاسعة من الجزء الثاني
في تدبير المفتضة

سبيل المجامع أن يتأني عند الوطء؛ فإنه لا يعلم على ماذا يرد من صحة الرَّحِمِ وسقمه وملائمته للإحليل وإضراره به، وأكثر الأرحام لا يخلو من مرضٍ وعرض مكرر أو حال ضار بمن يأتيها كالشُّقاق في الرَّحِمِ والسيلان والضحى اللذاع لا يستطيع وطؤها؛ لأن الألم الشديد يُسرِع إلى القضيْب حين يولج لذع كلذع الزناير، فلا يجد قرارًا إلا بمباشرته الماء البارد، ويعقبه ضعف عند الباءة فيما بعد، والدليل في ذلك عينا المرأة؛ فإن العين عند أبقرات دليل على مزاج الرَّحِمِ، فإذا حسنت وصفًا بياضهما، ولم يكن في الأجفان هيج كان دليل على صحة الرَّحِمِ.

والأمر الثاني حال المرأة عند تمكينها من نفسها والمراودة لها؛ فإن كانت كالمجبورة والمتكرهة والمتعلقة بعذر أو كالمثألة، وكانت شديدة الحرص على دفع يد العاثر بذلك العضو، فحينئذٍ يجب التأني في وطئها.

فإذا عرض لهن نزف وأوجاع؛ فتجلس في المياه التي قد طبخ فيها زامك وآس وجلنار وعفص مرضوض وسنبل الطيب وفقاح الإذخر، وفي الخمر والزيت بعده، واستعمل من بعد ذلك قيروطي، متخذ من دُهن ورد وشمع، ويجعل في صوف ملفوف على أنبوب مانع عن الالتحام، ويخفف عليهن المجامعة، وأن يستعمل العسل على الفرازج بعد غسل العضو بالشراب المحلول فيه الملح، وبعد تلك الفرازج تتحمل مرهم هذه صفته: أسفيداج الرصاص ولبان وطين مختوم من كل واحد جزء، ويخلط بدهن وشمع وتتحمل به.

الباب الثاني

من الجملة التاسعة من الجزء الثاني

في معظّمات الذكّر والمضيقات والملذّات والمسحات

وبعد؛ فلا عتب إذا تكلمنا في تعظيم الذكّر، وفي تضيق الرّحم، وتلذيد الأنثى ما يولد انتشار الذكّر وقيامه؛ لأنها من أسباب النسل، فكثير ما يكون صغير القضيب أو سريع الإنزال أو قلة صلابة الذكّر سبباً، لأن لا تلتذ به لأنه خلاف ما اعتادته فلا ينزل، وإذا لم يكن ولد، ورُبّما قرعت صاحبها وتطلب غيره.

فما من سبيل الرجل العاقل من حفظ صحة مزاج إحليله، والاعتناء بتقوية آلات نسله؛ فكم من أسير عانٍ كان إحليله شفيعه، وكم من ملك عزيز السلطان نزعه فتور أيره من ملكه، وأثر بمكانه من هو أنشط منه، وكم من مريض سُقي السم عوض الدواء؛ لإهماله وهجره عنه.

وكم من زنيم^(١) أُجلِس مجالس الملوك، وتمكّن من الرغائب لقوة رهزه، وامتداد إحليله، وكم من فتى على العين جمالاً والأذن بياناً عاملته بالهجر وقلبه، وآثرن بمكانه مشوه الصورة لعظم ذكّره، وقلة أعبائه.

وكذلك إن لم تكن المرأة ضيقة لم توافق الزوج، ولم يوافقها واحتاج كل واحد منهما إلى بدل، وكذلك التلذيد؛ فإنه يدعو إلى الإنزال العاجل؛ فإن النساء في أكثر الأوقات يتأخر إنزالهن، ويقمن غير قاضيات للوطر، فلا يكن شعبن من شبقهن، ومن أجل هذا أفزعن إلى المساحقة.

(١) الزنيم: هو المستلحق في قوم ليس منهم، لا يحتاج إليه؛ فكأنه فيهم زنمة، وهي شيء يكون للماعز في أذنّها كالقرط [مختار الصحاح (زن)].

وأما التضييق والتسخين؛ فإنه محبوب عند النساء، فكُم من سوداء مهزولة وأرمنية مفتولة أو ثرت على الحسناء الرومية والحدود التركية.

ونحن نذكر ما يعالج به هذه الأحوال ملذذات الرجال والنساء الحلتيت وزبق الكابه وعسل الأملج وعسل قد عجن به سقمونيا والزنجبيل والفلفل بالعسل، وأن يستعملوا [الطرفا^(١)]، وخصوصًا على النصف الأخير من القضيبي؛ فإنه أكثر فائدة في استعمال ذلك على الكثرة، ويدلك الذَّكْر بالشحوم والأدوية الحارّة بعد الخرق الخشنة، وصب الألبان عليه، وخصوصًا ألبان الضأن ثم إلزاق الرِّفْت عليه، يدام على هذا طرفي النهار، ولبن وماء [الباذورد^(٢)].

في المضيقات والمسخرات يؤخذ عقص مخ جزئين تفاح الإذخر جزء، وينخلا في منخل ضيق، ويتحمل بخرق مبلولة في الشراب واحدة بعد واحدة؛ فإنه يعيد البكارة، وأيضًا قشور الصنوبر مدقوقة أربعة أجزاء، شبت جزئين، سُعد جزء، ويطبخ شراب ريحاني، ويبل به خرق كتان ويتحمل، ويجب أن يحفظ في إناء مشدود الرأس، ويستعمل منها واحدة بعد واحدة؛ فإنها جيدة.

مضيق آخر: عود وسُعد وزامك وقرنفل وراس وقليل سك يسحق الجميع ويلوث صوفة مسحوقة في المسوس، ويتحمل بها.

دواء مسخن للقبل مطيب: يغلى سك وزعفران ومسك في شراب ريحاني، ويشرب به خرقة كتان، ويستعمل؛ فإنه مطيب.

صفة فرجة تطيب الرِّجَم وتضيقه وتملّسه وتسخنه وتذهب خشونته: سكينج نصف درهم، جاوشير ثلاثة دراهم، زعفران ثلاثة دراهم يحل السكينج والجاوشير بالماء في الهاون، حتى يصير كالعسل ثم يضاف إليهما الزعفران، وتتحمل به في صوفة.

صفة فُرجة تطيب الرِّجَم وتطيب ريحه: عقص درهم، جلنار نصف درهم، زعفران نصف درهم، مسك قيراط تجمع هذه الأدوية مسحوقة، وتخلط بدهن البان ويتحمل بها.

(١) في الأصل (الطوسا).

(٢) في الأصل (الباذروج).

الباب الثالث من الجملة التاسعة من الجزء الثاني في تعرف مزاج رحم المرأة

من الواجب على المستديم لمعاشرة المرأة أن يكون عالماً بمزاج رحمها؛ لئلا يستعمل أحدهما بعض اللطوخات أو بعض المسوحات الضارة لها، وإن كان بها حكة الرَّحِم، والأبنة التي تحدث للنساء كان في إغفال ذلك أعظم الجنايات؛ لأنه إذا تقدمت عند المعرفة بذلك، تعمد معالجته بما يشفيها.

ونحن نذكر الآن دلائل أمزجة الرحم:

دلائل حرارة الرَّحِم: يدل عليها مشاركة البدن في الحرارة، وقلة الطَّمث، ويدل عليه لون الطَّمث خصوصاً إذا أخذ على قطنة أو خرقة كتان ليلة ثم يجفف في الظل؛ فينظر هل هو أحمر أو أصفر؟ ويدل على حرارة وصفراء أو دم أو هل هو أبيض أو أسود؟ فيدل على ضد ذلك، ولكن الأسود مع التتن العفن يدل على حرارة وما سواه من الأسود دليل برودة، وقد يدل على حرارتها بأوجاع نواحي الكبد وخراجات وقروح تخرج في الرَّحِم، وكثرة الشعر وانصباع بول المرأة في الأكثر وسرعة النبض.

دلائل برد الرَّحِم: احتباس الطَّمث أو قَلَّتْ ورقته أو بياضه وسواده السوداوي في تطاول الظهر، وتقدم أغذية غليظة باردة، وتقدم جماع كثير، وحذر في أعالي الرَّحِم، وقلة الشعر في الرَّحِم، وقلة صبغ الماء وفساد لونه.

دلائل الرطوبة: رقة الحيض، وسيلان الرطوبة، وإسقاط الأجنة كما يعظم دلائل اليبس قلة السيلان والجفاف.

دلائل شقاق الرَّحِم: يدل عليه الوجع عند الجماع، وخروج الدَّكْر دامياً؛ وسببه إما يبس بطن أعلى الرَّحِم خصوصاً عند الولادة، وإما الورم متقادماً، وقد يغلف الشقاق، ورُبَّما صار كالثَّالِيل، وإن اندمل الموضع.

دلائل القروح: يدل عليها الوجع، وخصوصًا إذا كانت على فم الفرج أو قريبة منه يدل عليه سيلان المِدة والرطوبات المختلفة اللون والرائحة والضرر بما يرخي من الأدوية والانتفاع بما يقبض.

وعلاوة السقيه من القروح أن يكون الذي يخرج إلى غلظ وبياض وملائمة ووجع شديد وبين ولدغ، وعلاوة ذلك أنها وضرة وسخة كثيرة الرطوبات واللقوة الحادثة بالرحم وهي التي يسميها الأطباء سيلان الرَّحِم، فلسنا نذكر من أمرها سببًا؛ لأن المطرقين والعقلاء إلى مجانبه هذه العاهات، والهرب منهم أقرب منهم إلى مزاوله الطمع فيما يستحيل من علاجهم.

الباب الرابع

من الجملة التاسعة من الجزء الثاني

في مداواة النزف والاستحاضة والسيلان

يُحتاج إلى استقصاء النظر في علاج هذا المرض؛ فكم من متحابين فرق بينهما هذا المرض، وجعلهما على أشدَّ قلق، والإفراط في سيلان الطَّمْث إن كان دفعًا من الطبيعة؛ فعلامته ألا يصحبه أذى؛ وإنما يؤدي إلى المنفعة، ولا يغير القوة، وأكثر ما يُعرض للميتعمات.

وأما ما كان سببه الامتلاء العام دفعته الطبيعة أو غلب فاندفع، فعلامته احمرار الجسد والوجه ودور العرق، وغير ذلك من علامات الامتلاء، وقد يكون معه وجع، وقد لا يكون معه، وما لم يَضعف يُحبس ويعرف الغالب مع الدم بأن يجفف الدم، ويتأمل لونه هل هو إلى البياض والصفرة أو سواد أو قرمزية؛ فيُستفرغ الخلط الَّذِي غلب عليه أيضًا.

وأما الكائن بسبب ضعف الرَّجِم، وانفتاح عروقه يدل عليه خروج الدم صافيًا غير مؤلم، وإن كان بسبب حدة الدم عُرف بلونه وحرقته، وسرعة خروجه، وقِلَّة انقطاع خروجه، وإن كان برقة الدم لاستيلاء الرطوبة، والمائية عليه كان الدم مائيًا غير حاد، ويتضرر بالقوابض، ورُبَّما ظهر عليها كالحبل أو كالطلق، فتقع رطوبة.

وأما الكائن عن القروح؛ فيكون مع وجع، وأما الكائن عن الأكلة؛ فيكون خروجه قليلًا قليلًا أسود كالدردي، إذا كان عن الأوردة دون الشرايين، وإذا كانت الأكلة في عنق الرَّجِم كان اللون أقل سوادًا، وإذا كان هناك أو عند فم الرَّجِم أمكن يُمسَّ، وعلامات بواسير الرَّجِم ظاهرة، ويكون الدم في الأكثر أسود إلا أن يكون عن الشرايين، ورُبَّما كان الباسوري قطرة قطرة، وكثير ما يصحب البواسير في الرَّجِم

صداع، وثقل رأس، ووجع في الأحشاء والكبد والطحال؛ فإذا سال الدم من تلك البواسير برأ.

فأما النزف الكائن على سبيل دفع الطبيعة، والكائن عن الامتلاء، وثقل الدم عن البدن؛ فينبغي ألا يُحبس حتى يخاف ضعف، ورُبَّما كان معيًّا في علاج ما كان من الحدة الصفراوية إسهال الصفراء بمثل الشاهترج والأهليلج^(١) الأصفر لما فيه من القوة القابضة، وإن كان السبب المائية فسُقي صمغ عربي وكثيرًا، وإن كان السبب ضعف الرَّجْم جُمع إلى الأدوية المقبضة أدوية مقوية بعطرها أو خاصيتها كالزغفران والقرنفل والطيب، وإن كان يسبب قروحًا؛ عولجت بأدوية مركبة من الكثيراء والجلنار واللُّبان مع الأفيون والطين المختوم.

وأما النزف الحاد فإن لسان الحمل لا نظير له في علاجه، ورُبَّما قطع النزف ضامدًا، وهو ينفع من المزمن وغير المزمن، وشرب الخل أيضًا، واستعمال الكافور شربًا وضامدًا، ورب حُمَاض الأترج نافع جدًّا، وكذلك سقي الصمغ العربي مع الكثيراء، وبزر الكتان بالماء الحارِّ، والطباشير بالكافور نافعة لها جدًّا، وأقراص الجلنار بالغ النفع يوميًّا، وطين مختوم، وطين أرمني، وشبت، ومن دم الأخوين بالسوية يؤخذ من جملتها وزن درهم، ومن [...] وزن حبتان، ومن السكر وزن دائق يداف في شراب الآس.

صفة أخرى: أفاقيا وُجلنار وعَفَص ورأسن وساذنج وكندر يعجن [بمركب] قوي [.....] نصف درهم.

دواء آخر جيد جدًّا: زاج الأستاكفة وجفن البلوط ومر وكندر وأفيون، يجعل حارًّا، ويُسقى منه درهم.

(١) الإِهْلِيلِجُ، وقد تكسر اللام الثانية، والواحدة بهاء تَمَرَّم، منه أَصْفَرُ، ومنه أَسْوَدُ، وهو البالغ النَّضِيجُ، ومنه كَابِلٌ يَنْفَعُ مِنَ الْحَوَائِقِ، وَيَحْفَظُ الْعَقْلَ، وَيُزِيلُ الصَّدَاعَ، وهو في المَعْدَةِ، كَالْكَذْبَانَوْنَةِ فِي الْبَيْتِ، وَهِيَ الْمَرْأَةُ الْعَاقِلَةُ الْمُدْبِرَةُ.

دواء غيره: يُشرب من الودع المحرق^(١) وزن درهمان بماء الشّاق والسّفرجل، ويجعل هؤلاء قبل أن يضعها، وهي الهريس والمصوص من لحم الجداء، والطير الجبلي، والمطحّنات والقديدات لحامضة يأكلها باردة، ويجتنب كل طعام حار بالفعل والقوة. وأما النزف الكائن بسبب رطوبة الدم ومائته؛ فالوجه في علاجه إدرار العرق، وإدرار البول.

آخر مطبوخ هذه صفته: بزر كرفس درهمان، حاشا^(٢) درهم، أنيسون درهم، رازيانج درهمان أسارون^(٣) درهم ونصف فوة^(٤) درهمان، تطبخ مرضوضة في رطل

(١) قال بعض الأطباء: هو صنف من المحار يشبه الحلزون الكبير إلا أنه أكبر وخزفه أصلب وكلاهما يدخل في علاج الطب محرقاً وغير محرق وبعضهم يسمي هذا سوار الهند. البصري: لحمه صلب عسر الإنهضام فإذا انهضم غذى غذاء جيداً ولين الطبيعة وإذا أحرق الودع تولد فيه حرارة ويبوسة وجلاء البهق والقواي وجلاء البياض من العين وجلاء البصر وإذا دق لحمه ناعماً واستعمل نشف الرطوبات الحادثة في الأعضاء المترهلة وهو صالح لأصحاب الحبن ولزيادة تخفيف كثير وتسخين يسير، فإذا شرب بشراب أبيض نقى القروح الكائنة في الأمعاء قبل أن تحدث فيها عفونة. انظر: الجامع لمفردات الأدوية والأغذية - (٢/ ٢٢٢). (٢) يعرف بصعتر الحمير وهو كثير بأرض بيت المقدس وما والاها.

جالينوس في السادسة: يقطع ويسخن إسخناً بيناً فهو لذلك يدر الطمث والبول ويخرج الأجنة ويفتح سدد الأحشاء وينفع النفث من الصدر ومن الرئة ومن أجل ذلك ينبغي أن نضعه من التخفيف والأسخان في الدرجة الثالثة.

ديسقوريدوس: وإذا شرب بالملح والحل أسهل كيوساً بلغمياً مائياً وإذا استعمل طيبخه بالعسل نفع من عسر النفس الذي يحتاج معه إلى الإنتصاب ومن الربو وإخراج الدود الطوال وأدرّ الطمث وأخرج المشيمة والأجنة وهو يدر البول وإذا عجن بالعسل ولحق سهل نفث الدم والفضول التي في الصدر وإذا تضمد به مع الخل حلل الأورام البلغمية الحديثة وهي تحلل الدم المنعقد وتقلع النمش والثآليل التي يقال لها أفرحودونس وإذا خلط بالسويق وعجن بالشراب ووضع على عرق النسا وافقه وإذا طرح في الطعام وأكل نفع من ضعف البصر وقد يصلح استعماله في وقت الصحة.

(٣) في التجريبيين: الأسارون يسخن المعدة والكبد ويخرج رطوبتهما الفضلية بإدرار البول وتلين الطبيعة وتفتت حصا الكلية وينفع من أوجاعها وينقي مجاري البول من الأخلاط اللزجة المولدة للحصا فيها.

(٤) قال جالينوس في السادسة: هذا دواء أحمر يستعمله الصباغون وهو مر الطعم، ولذلك صار ينقي الكبد والطحال ويفتح سددهما ويدر البول الغليظ الكثير، وربما بول الدم ويدر الطمث ويحلّو جلاء معتدلاً في جميع الأشياء المحتاجة إلى الجلاء فهو لذلك ينفع من البهق الأبيض إذا

ونصف ماء حتى يبقى منه نصف رطل، ويُسقى على عشر درهم شراب الأصول،
ويُشرب بالغداة الرازيانج الأخضر وبزره يابساً والأنيسون، وينفعها الهرائس والجُبن
والأغذية الغليظة والشواء.

وأما النزف الكائن عن القروح: فعلاجه هذا المهرم: يؤخذ جُلُنار
ومُرداسنج^(١) يُتخذ منهما.

ومن الشمع قيروطي^(٢) بهن ورد، ويُتحمّل.

صفة دواء الاستحاضة: أبُهْل عشرة دراهم، بزر نعناع درهم، بزر الرازيانج
درهمان، يجعل في قدر، ويُصبّ من الشراب الصرف عليه رطلان، ويُطبخ حتى

طلي عليه مع الخل، وفي الناس قوم يسقون منه أصحاب عرق النسا ووجع الورك ومن عرض
له استرخاء في أعضائه يسقونه إياه بهاء العسل.

ديسقوريدوس: وله قوة بها يدر البول، ولذلك إذا شرب بالشراب الذي يقال له الملقراطن نفع من
اليرقان وعرق النسا والفالج المسمى قرايس، وقد بيّول بولاً كثيراً غليظاً، وربما أبال الدم،
وينبغي للذين يشربونه أن يستحموا كل يوم، وإذا شرب بعض أغصانه بورقه نفع من نهش
الهوام وثمره إذا شرب بسكنجين حلل ورم الطحال وعرقه إذا احتمل أدر الطمث وأحدر
الجنين، وإذا تلطخ بالخل على البهق الأبيض أبرأه.

الدمشقي: القوة حارة في الدرجة الثانية تنقي الطحال والكبد وتنقي الأعضاء وتنفع إذا عجت بخل
من البرص. انظر: الجامع لمفردات الأدوية والأغذية (٢/ ٢٨).

(١) وهو المرتك. قال ديسقوريدوس في الخامسة: منه ما يعمل من الرمل الذي يقال له موليدانيطس
ومعنى هذا الاسم الرصاصي وإنما يعمل منه بأن يؤخذ فيحمى حتى يصير ناراً ومنه ما يعمل
من الفضة ومنه ما يعمل من الرصاص وأجوده ما كان من البلاد التي يقال لها أشبانيا وبعده ما
كان من البلاد التي يقال لها أرخياوفا والذي من الهند وبعده الذي من صقلية وقد يكون في
هذه المواضع لأنه يعمل من صفائح رصاص تحرق ومنه ما لونه أحمر وهو صقيل ويقال له:
حورسطس ومعناه الذهبي وهو أجود أصنافه وبعده الفضي وبعده ما يعمل من الرصاص ومنه
ما لونه إلى الفرفرية، ويقال له: أرخوستس ومعناه الفضي والذي يعمل من الفضة يقال له
أريونيطس وقلويدس، فأما الذي يعمل من الرصاص فإنه يقال له موليدانيطس.

(٢) هو مرهم معروف عند الأطباء يتخذ من الشمع المذاب في دهن الورد أو اللوز أو البنفسج
ونحوها.

ينتصف ثم يُلقى عليه من الأنزروت^(١) درهمان، ومن الحضض^(٢) درهمان، ومن سمن البقر ملعقة، ومن العسل ملعقة، ويسقى منه على الريق قدر ملعقة، ويؤخر الغداء إلى العصر، يُفعل ذلك ثلاثة أيام.

وأما علاج السيلان: فإن كان مساً عُولج بما يُعالج به ذلك الرجال من الأدوية المجففة للمني - ونحن نذكرها فيما بعد - وإن كان بالسيلان رطوبات عفنة؛ فالصواب تنقية البدن بالفصد والأسهال إن احتملت القوة، [...] يحقن الرّجِم أولاً بالمنقيات المجففة كالماء الذي طبخ فيه أصل السوس الأزرق والفراسيون والفودنج والقليل من العسل، وذلك الساقين بأدهان ملطّفة مع أدوية حادة مثل دهن الإذخر بالعافر قرحا والفلفل، ثم يتبع ذلك بالقوانص محقونة ومشروبة والمحقونة أعمل بعد الاستفراغ، وهي المياه التي يُطبخ فيها العفص والجلّنار وقشور الرمان والإذخر والآس.

(١) صمغ شجرة تنبت في بلاد الفرس شبيهة بالكندر صغيرة الحصى في طعمه مرارة لونه إلى الجرمة. ابن سينا: هو صمغ شجرة شائكة.

جالينوس في الثامنة: قوته مركبة من قوتين: إحداها مسددة لا حجة، والأخرى فيها بعض المرارة ولذلك صار يجفف تجفيفاً لا لذع معه، وبهذا السبب يقدر أن يلحم ويحمل الجراحة الحادثة عن الضربة.

ديسقوريدوس: وله قوة ملزقة للجراحات تقطع الرطوبة السائلة إلى العين ويقع في أخلاط المراهم وقد يغش بصمغ يخلط به.

الطبري: إنه يجبر الوثي ويلحم القروح وينقيها مع العسل، وإذا سحق ببياض البيض أو باللبن وجفف ثم سحق ذروراً نفع من الرمد.

(٢) شجرة مشوكة لها أغصان طولها ثلاثة أذرع وأكثر عليها الورق وهي شبيهة بورق شجر البقس ملرز ولها ثمر شبيه بالفلفل أسود ملرز مر المذاق أملس وقشر الشجر أصغر شبيه بالحضض المدوف بالماء ولها أصول كثيرة ذاهبة في جانب خشنة ويكون بالبلاد التي يقال لها ماقدونيا، والبلاد التي يقال لها لوقيا، وفي أماكن أخرى كثيرة.

الباب الخامس

من الجملة التاسعة من الجزء الثاني

في احتباس الطمث

من وقعت إليه المرأة الموافقة والجارية الحسناء أن يُعنى بحفظ صحتها، ومن أهم ما حُفظت به صحة أبدان النساء جريان حيضهن في أوقاته؛ فإنه متى احتبس أدّى إلى أمراض صعبة خطيرة؛ فعلامة ما يجسه البرد ثقل النوم، والشخير فيه، وبياض لون الجسد، وخضرة الأوراد، وتفاوت النبض، وبرد العرق، وكثرة البول، وبلغمية البراز.

وما كان من الحرارة دَلٌّ عليه الالتهاب، وجفاف الرَّجَم، وسائر علامات حرارته التي ذكرناها، ويؤكدُ هُزال البدن وخلاء العروق والعلاج فصد الصّافن والعرق، والذي خلف العقب، وفصد عرق الركبة والحجامة على السّاق والكعب ثم استعمال الفودنج بماء العسل، وطبيخ الأبهل، والدار صيني، والعسل.

نسخة حمول جيد: مر، وفودنج من كل واحد أربعة دراهم، وأبهل ثمانية دراهم، سذاب يابس عشرة دراهم، زبيب منقّى منزوع العجم عشرون درهماً، تعجن بمرارة البقر، وتتخذ فزرجات، وكذلك الجاوشير والحلتيت والسكينج والقردمانا، والجلوس في طبيخ الفودنج، والسذاب ونحوها يُدّر الطمث.

الباب السادس

من الجملة التاسعة من الجزء الثاني

في مداواة قروح الرّحم وشقاقها

إن كانت القرحة عتيقة؛ فعلامة ذلك سيلان الرطوبات الصديدية من الرّحم يفتتها أولاً بماء العسل مزروقا بالزراقة، وبطيخ الإبرسا، وإن كان سيئ الحال؛ فيحتاج إلى تنقية البدن بمسهل، واستعمال المراهم النافعة للأكال، وإصلاح الغذاء، وإن كانت القرحة مع ورم؛ عولجت بعلاج الأورام.

صفة مرهم نافع للقروح قبل أن ينبت فيها لحم: مرتك وأسفيداج وأنزروت أجزاء سواء يتخذ منها قيروطي بالشمع ودُهْن ورد، وإن كان هناك وَصْرُ جُعِل فيه قليل زنجار؛ فإذا أخذ اللحم وخذش ذلك عولج بهذه المراهم توتيا مغسول جزءان أفاقيا الفضة أسفيداج الرصاص، وأنزروت من كل واحد جزء، ويتخذ منه قيروطي بدهن ورد وشمع.

الباب السابع

من الجملة التاسعة من الجزء الثاني

في مداواة حكة الرِّجَمِ وآفته

قد تُعرض في الرِّجَمِ بسبب أخلاط حادة صفراوية ومالحة بورقية أو أكالة سوداوية بحسب ما يظهر من أحوال لون الطمث المجفف، وبثور متولدة منها أو مَنِيٍّ حار جداً، ورُبَّما أفرطت الحكة حتى أسقطت القوة، وقد يُعرض لتلك المرأة ألا تشبع من الجماع، ويصيبها البغاء، وكلما جومت ازدادت شراً؛ وعلاجه تنقية البدن بالفصد من الباسليق واستفراغ الصفراء بالسقمونيا والبلغم بحب الأصبغيقون، والسوداء بحب الأفتيمون^(١) وطبيخه في أوقاتٍ مختلفة، ويكسر حدة المَنِيِّ بالأدوية المبردة، ويلطخ فم الرِّجَمِ بالأقاقيا والورد والصَّنْدَل وشياف ماميثا^(٢)، [.....] والخل وزُدهن الورد ومثل عصارة البقلة الحمقاء، وينطل بمياه طبخ فيها العفص والجلنار ويضمَّد بثفلها.

مُحْمَلٌ مَجْرَبٌ لِلْحَكَّةِ: ورق النعناع وقشور الرمان وعدس مقشَّر مطبوخة بنيذ تُحْمَلُ.

مُحْمَلٌ آخَرُ: زعفران وكافور من كل واحد دائق، مُرداسنج دانقين حب الغار نصف درهم ينخل، ويُعجن ببياض البيض وزُدهن ورد، وشيء من الشراب ويحتمل.

(١) قال بولس: وأما الأفتيمون فهو شيء يتكوّن على الصعتر ويسهل قريباً مما يسهل الأفتيمون إلا أنه أضعف منه. لي: هذا هو الأشموز المعروف في زماننا هذا وقبله أيضاً عند أئمة هذا الفن وهو المجلوب من أقريطس، ومن البيت المقلص أيضاً بلا شك ولا مرية فيه فليعلم ذلك لا يعرف سواه.

وقال الرازي: وبذله في إسهال المرّة السوداوية وزنه تربد وربعه حاشا وقال غيره بذله حاشا بوزنه ونصف وزنه.

(٢) قال الرازي: ينقي مجاري الكلى والبول ويصفي الحلق.

ابن سينا: جيد للقروح العفنة في اللثة والقلاع في الفم وريق ماضغه يلذذ المنكوحه. غيره: يقوي المعدة والأعضاء الباطنة شرباً.

الشريف: إذا أمسكت في الفم حسنت اللثات وتطيب النكهة وتعطر الأنفاس وتتصرف في كثير من الطيوب ويخرج الحصاة من الكلى والمثانة.

الجملة العاشرة من الجزء الثاني في الأسباب القاطعة عن الباء من جهة المرأة

رأيتُ بحصن كيفاً رجلاً من ذوي السل، وكانت زوجته على مثال من صفة العجوز الرّعاء، وكان يراعيها، ويكره إغضاها لأجل ابنتين كبيرتين كانتا له منها، فطال عليه احتماله ذلك مع شدة ترصدها التطلع على أحواله وحجرها عليه من التّسرّي والتزويج، وكان مصفّر اليدين من العين؛ لأنه كان متلاًفاً للمال، ولم يزل إخوانه وخيلانه يُظهرون له غلظة في استسلامه إليها إلى أن أغضبها، فلحقت بأهلها مطلقة، فأنفذ إليها بغلتين نفيستين كانتا له، وكلّهما على بيعها، وقبض صداقها؛ فقبضت ذلك وأحجمت عن بيعه رجاء العودة، فأبطأت عليها فباعته، وقبضت الثمن، وتعوّض عنها بفتاة ناهد، والشفاعات من الأكابر والمراسلات والوسائل ترادف عليه، وهو يتصامم عن بعض، ويعتذر إلى بعض، حتى عادت بعد استحكام راضية بالشريكة، ولست أيدك الله ذاهباً إلى تجديد الفراش سعادة أو مصلحة، وإنما استخرت من لا ينفك من أمر يكرهه، وكان هذا الرجل من أكثر الناس افتتانا بالصور الجميلة، وأعظمهم تميّناً للصور الحسان، والعلاج المشترك لهذا السبب، وبقية الأسباب المشتركة التعوّض عن المكروه بالموافق، وعن النافر بالملائم.

الجملة الحادية عشر من الجزء الثاني

في ذكر المفردات القاطعة عن الباء

العدس وماؤه وخصوصاً بالشهدانج^(١)، والنيلوفر، والكزبرة، وبزر بقله، وعصارة القصب الرطب، وماء الودع الشديد الحموضة، ودقيق البلوط والخل، والرمال الحامض، والسماق، وبزر الخس.

ومن الأدهان؛ فالزيت مقلل للمني، والتصيد بالطحلب، وحشيش السيكران، والسبع، وغير ذلك من المتردات تجعل على الأنثيين والمقعدة.

ومما جرّب أن من أكثر المشي حافياً نقصت شهوته أو سقطت، والشونيز المقلو وغير المقو، وبزر الشبت، وبزر السذاب، والفودنج، والحدقوق، والكُمون، وشد صفائح الأشرب على الظهر مضعف للباء.

وكذلك لبس الخشن، والتفات النفس عن عالم الطبيعة إلى عالم العقل شاغل عن الباء.

وكذلك تذكر المعاد، والفكر فيما بين يدي المرء ممّا هو كل لحظة مستقبله، وساع

(١) وهو القنب، وبزر هذا النبات يطرد الرياح ويحلل النفخ ويخفف تخفيفاً يبلغ من قوته أن الإنسان إذا أكثر منه جفف المنى وقوم آخرون يعصرون ذلك وهو طري ويستعملونه في مداواة وجع الأذن وأحسبهم يداوون به الوجع الحادث عن شدة.

ابن سينا: رديء الخلط قليل الأذى والغذاء.

إسحاق بن عمران: هو عسر الإنهضام رديء للمعدة مصدع والدم المتولد منه راجع إلى الصفراء ويصير له بخار يورث الصداع ويعقل البطن ويدبر البول.

إسحاق بن سليمان: والمقلو من حبه أقل ضرراً، وربما يدفع ضرره أن شرب بعده السكنجبين السكري، وأما ورقة فإنه إذا دق وغسل بائه الرأس نقى الأبرية من أصول الشعر.

قال الرازي في كتاب دفع مضار الأغذية: يصدع ويظلم البصر ويمنع ذلك منه شرب الماء البارد وقضم الثلج عليه أو الأخذ من الفواكه الحامضة.

إليه من الموت الَّذِي نَغْصُ أبناء الدنيا متى ذكره، وتصور فراق البدن، وانحلال هذه البنية التي تعيَّرها، وفساد صورة هذا الهيكل، وتصور انحلال أجزائه، وانتقاض تركيبه، وتنت ربحه، ومصيره ترابًا.

وحال النفس المعتكفة على الأباطيل المفتنة بزخارف الملاذ الفانية المحجوبة عن عالم النور المستقبل لأهوال القيامة، ويتصور اللذات بالجماع الَّذِي لا طائل في مدالكه، وما يؤثره في بدنه من تحليل الحرارة الغريزية.

فقد قيل: ما جامع عاقل إلا وندم عند الإنزال على مكروه يتوقعه من عقاب أو عار أو خسارة مال أو ضرر بدنه.

والإضراب عن الجماع ممَّا يلهي عنه، ويقطع الحاجة إليه، والتشاغل بالأمر المهمة، وقراءة الكتب الملهمية، والنظر إلى الوجوه السمجة. بلغني أن أعرابي جلس بين شعبي امرأة، وهمَّ بها؛ فقال: إن امرءًا باع جنة عرضها السماوات والأرض بقليل ما بين رجلِك لقليل النظر بالمساحة؛ فنزل عنها. وقيل: إن العبادي تمكَّن من امرأة، فتفكَّر في شيء من هذا، ففترت شهوته، واسترخى متاعه؛ فقالت المرأة: قم يا خائب! فقال العبادي: الخائب من فتح جرابه، ولم يكل فيه.

ولما قُتل مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية، جاء عامر بن إسماعيل، فوقف على بابه، فخرج إليه خادم مروان؛ فقال له عامر: هات المفاتيح؛ فقال: إن أمير المؤمنين - يعني: مروان - أمرني ألا أسلم المفاتيح إلا إلى أمير الجيش إذا حدث به حادث الموت، فأخذها عامر، ودخل فجلس على فُرْش مروان، والشموع تزهو ليلاً، ثم دعا بعشاء مروان الَّذِي كان أُعِدَّ له، ودعا بابتنة مروان عبدة، فأجلسها عنده.

فقالت له: يا عامر، إن دهرًا أنزل أمير المؤمنين عن فُرْشه، وأجلسك عليه، حتى تأملت وجهي، وقد كانت الأبصار تنقطع دون هودجي لدهر، ينبغي لك أن تأمنه، فاستحيا عامر، وقال لها: انصرفي، وبلغ ذلك السفاح.

فكتب إلى عامر أنه بلغ إلى أمير المؤمنين ما كان منك في الليلة التي قُتل فيها مروان، ومن عبدة ابنته، ولولا أن أمير المؤمنين يجب أن تصبح أموره بالعمو لكان أولى الأمرين بك التأديب، ويحك! أما كان لك في سنك وتجربتك ومعرفتك ما حجزك عن الاستضاءة بمصاييح مروان، والنوم على فُرشه، ومسامرة ابنته حتى وعظتك صبيّة، وبعثتك على مكارم الأخلاق، وترك الاغترار بانقلاب الدُّول والأيام، وما علّمت أنها لم تبق على أحدٍ؟

وروي أن الحسن بن الحسن البصري مرَّ بقوم فيهم شاب يُكثر الضحك، فوقف عليه الحسن، وقال: يا فتى، عبرت الصراط؟ قال: لا، قال: ففيم هذا الضحك؟ فقلَّ ما رئي ذلك الشاب بعدها ضاحكًا.

الجملة الثانية عشر من الجزء الثاني

في تركيب أغذية وأدوية وأطلية تقطع عن الباءة

صفة سفوف تخفف المنجي، وتقطع عن الباءة: بزر الخس، وبزر البنج، وبزر الخيار، وبزر الهندباء^(١)، وبزر قطونا غير مدقوق، وكُسْفَرَة يابسة، ولينوفر مجفف يدق الجميع سوى بزر قطونا، وتُتخذ سفوفاً، والشربة منه ثلاثة دراهم كل يوم بماء طيبخ فودنج أو ماء سذاب.

صفة سفوف آخر يقطع عن الباءة: بزر بنج انكشت خمسة دراهم، بزر السذاب درهمان، بزر الشبت درهمان، شوينز درهم، كمون درهمان، بنج درهم، تُجمع مسحوقة منخولة، وتُدق وتُسف منه كل يوم ثلاثة دراهم مدة سبعة أيام.

صفة لطوخ تقطع عن الباءة: مرداسنج، وقيموليا^(٢)، وأسفيداج مغسول محرق

(١) هذا النبات منه بستاني، ومنه بري. والبري هو مائي والبيوسة في الدرجة الأولى. وأما البستاني فهو أبرد وأرطب. والدليل على ذلك طعمه قبضا مع مرارة، والقبض فيه أغلب من المرارة. وهذا الدواء هو في غاية من منفعة للكبد.

(٢) قال ديسقوريدوس: هو نوعان أحدهما أبيض والآخر فيه فرفيرية وهو دسم وإذا لمس وجد بارد المجسة وهو أجود النوعين.

جالينوس: وقوته قوة مركبة وذلك أن فيه شيئاً يبرد وشيئاً يحلل بعض التحليل ولذلك صار متى غسل خرج عنه هذا الجزء المحلل ومتى لم يغسل فإنه يعمل بالقوتين كليهما وإذا طلي به موضع حرق النار من ساعته بعد أن يخلط معه خل نفعه وينبغي أن لا يكون الخل ثقيلاً جداً وإن كان على هذه الصفة فالأجود أن يخلط معه ماء قليل وكذلك يفعل كل طين خفيف الوزن أعني ينفع من حرق النار إذا طلي من ساعته بالخل والماء ويمتنع من أن يحدث في المواضع نفاخات. ديسقوريدوس: وإذا ديف كلا النوعين بخل ولطخت به الأورام العارضة في أصول الأذان وسائر الجراحات حللها وإذا لطخ كل واحد من النوعين على حرق النار في أول ما يعرض نفع منه ومنع الموضع من التثقب وقد يحلل كل واحد منها الأورام الجاسية العارضة في الأنثيين والأورام الحارة العارضة في جميع أعضاء البدن والحمرة وبالجملة ما كان من هذا الطين خالصاً فإنه كثير المنافع.

ابن حسان: أهل البصرة يسمون طين قيموليا الطين الحر وأصنافه كثيرة ومنه أرمني ومنه سلجاسي

أجزاء سواء، يخلط بخل، ويطلّى به أسفل الظهر والعانة.

الطبايح القاطعة عن الباء: إدمان السُمّاقات الحامضة، والخضريات،

والرُمانيات الحامضة، والمصوص، وخصوصًا ما جعل فيه السذاب.

ومنه أندلسي والأرمني لم نره بعد وهو أجود الكل وبعده السجلهاسي وهو أفضل في العلاج من الأندلسي وهو أبيض شديد البياض صلب الجرم مكتنز الأجزاء لا ينكسر بسرعة ولا ينحل في الماء إلا بعد برهة غير أنه إذا انحل ففيه من اللزوجة أكثر مما في غيره والأندلسي صنفان أبيض وأسود رديء والأبيض الشديد البياض وهو الذي نستعمله في العلاج والأسود رديء لا يصلح له ولا يتصرف في شيء منه. محمد بن عبدون: الطين الحر هو الطين العلك الخالص من الرمل والحجارة.

علي بن محمد: الطين الحر هو الخالص من الرمل وربما خصوا بهذا الاسم طين شيراز لنقائه وتداخل أجزائه وهو طين رخص شديد الرخوصة لونه أخضر مشبع الخضرة أكثر خضرة من الطفل حتى أن خضرته تقرب من خضرة الزنجار وإذا دخن بقشر اللوز ليؤكل احمر لونه وطاب طعمه وقلما يؤكل غير مدخن.

علي بن رزين: والطين الحر بارد يابس في اعتدال جيد لجميع أنواع الحرارة إذا أنقع ووضع على موضع الذي فيه الحرارة وقال في كتاب الجوهرة: الطين الحر يطلّى بالخل على لسع الزنايبير فيسكنه.

ابن سميحون: وقال بعض الأطباء: وبدل طين قيموليا إذا عدم وزنه من طين مصر. ديسقوريدوس: ومن أصناف الطين صنف يقال له قسلس عنى ومعناه في اليوناني الطين الخثاقي وهو طين لونه شبيه بلون الطين الذي يقال له أراطرباس وهو عظيم المدر بارد المجس فإذا ألصق باللسان اشتدت لزوقته فتعلق باللسان وهو مثل العسل وقوة هذا الطين شبيهة بقوة الطين الذي يقال له قيموليا إلا أنه أضعف منه بقليل ومن الناس من يبيع هذا الطين بحساب الطين الذي يقال له أراطرباس على جهة التدليس. جالينوس: قوته شبيهة بقوة القيموليا وأما لونه فبعيد جداً من لونه لأنه أسود مثل الطين الكرمي وله من اللزوجة مثل ما لطين ساموش أو أكثر.

الخاتمة

وإذ قد أتينا بشرح ما وعدنا بشرحه في هذا الكتاب؛ فلنختم المقال بحمد الله على جزيل فضله، وجليل لطفه، وجميل صنعه، والصلاة على هادي الأمة محمد المصطفى صلوات الله عليه، وعلى آله الأكرمين صلاةً باقيةً إلى يوم الدين.

ثم بالاعتذار إلى لبيب يتصفّحه؛ فيستطيل إلى ما أسهت في شرحه، بالإضافة إلى ما يُستحسن الاختصار عليه، أو يستقل حجم ما اخترت إنجاز الكلام فيه؛ فيقول: إن مصنفَ هذا الكتاب قد أطل، وأضجر بإسهابه في هذا الباب البطال، أو يقول: قد أخلّ في هذا الباب بحكاية فلانة أو أبيات فلان، وكان ينبغي أن يضيف إلى هذه الجملة معجوز فلان، ولعل المصنف لم يطالع الكتاب الفلاني، فاعتمد على قريحته فاستكدها.

وكلّ رجح في عقله على ما أنابت قريحته، ومن تطلب المعثر، ووقف مع الظاهر لا عدم بينا يراه، لكنه عالم يستقبّحه سواه، فلو اتفقت الآراء والقوى والأهواء لكان ما أتى به الناس جميعاً سواء، وشيئاً واحداً على أي ما أطلت بأصول ما يتعلق بهذا التأليف مع إنجازها، ولو قصدت إيراد كل ما عندي في أبوابه من الفروع والحكايات والأشعار لخرج الكتاب عن حدٍّ ما يخص عند السامة والملل إلى حدٍّ ما يملّ، ولصار مناسباً لقول القائل:

نَفَرُّ إِلَى الشَّرَابِ إِذَا غَصَصْنَا فَكَيْفَ إِذَا غَصَصْنَا بِالشَّرَابِ^(١)

ورُبّ عارف يتصفح أبواب هذا الكتاب؛ فيقول: أضاع مصنف هذا الكتاب

(١) البيت من الوافر، وهو للشريف الرضي في ديوانه من قصيدة مطلعها:

إِلَى كَمْ لَا تَلَيْنُ عَلَى الْعِتَابِ وَأَنْتَ أَصَمُّ عَنْ رَدِّ الْجَوَابِ

اجتهاده، وأحبط عمله، وأذهب وقته، وملأ الطروس بأبواب الافتتان، واتساع ما فُتح عليه من العبارة والبيان؛ فليعلم من رُبِّما وقع له ذلك أي ما صنفته إعجاباً بما ضَمَّتته ولا افتتاناً بما أودعته، فلست ممن يستحقه صبوة، ولا ممن يعرض له عن حدِّ نبوة.

ولقد أَلَفْتُ في العلوم البرهانية والصنائع العقلية ما لم أر لأحدٍ مثله؛ فتقاصرت الهِمم عن تطلبه، واشتغل أهل الزمان إلا من عصم الله بالهزلي، واستولى عليهم حب البطالة، واستخفاف الخلاعة، وتكاثفت الموانع عن الانزواء عنهم، والهرب منهم، واضطرت وإن لم أعمد في طلبائهم إلى الشرب من مائهم؛ فمكثت أنزل في تأليف ما أولفه درجة بعد درجة من الأعلى والأصعب إلى الأدنى والأقرب في سفرٍ بعد سفرٍ، واستعليته بالإضافة إلى الهِمم والأذهان المزاولة لحله حتى اكتفت همتي في لزومها الحد وهمهم كطرفي نقیض؛ فرأيت أقرب الطرق إلى استدراجهم إلى الفضيلة، وآخرها بحديثهم إلى ملاحظة [...] ^(١) الحكمة، والشعور بمآ فاتهم من المعرفة أن أتوسط بفكري [...] ^(٢) ما خاضوا فيه، ومال بهم طبعهم إليه، وقصروا أوقاتهم عليه، فإنني لم أخليه من فوائد جدية، ومواعظ مجلدة للقلوب الصدية، ولا [...] ^(٣) عن نصيحة نافعة، وعبرة رادعة، وتثقيف وأدب، وأستغفر الله مِمَّا يحبط العمل لديه، وأستوفقه لما يقرب إليه.

تمَّ الكتاب بحمد الله وحسن توفيقه، والحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد، وآله الطيبين الطاهرين، وصحبه الأكرمين، وسلم.

وافق الفراغ منه يوم الخميس ثامن عشر من ذي الحجة من سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة.

كتبه العبد المستغفر من ذنوبه إبراهيم الإسرائيلي عفا الله عنه.

(١) كلمة بها بظر بالأصل.

(٢) كالسابقة.

(٣) كلمة غير واضحة.